

UNIVERSAL
LIBRARY

OU-234353

UNIVERSAL
LIBRARY

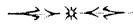
٢٩٤٥٩
ج - ب



١٥١

تاريخ التمدن الاسلامي

وهو يبحث في نشوء الدولة الاسلامية
وتاريخ مصالحها الادارية والسياسية والجندية وبيان ثروتها
وتاريخ العلم والادب والتجارة والصناعة فيها ونظام
الحياة الاجتماعية وآدابها والعادات
والاخلاق الخ



تأليف

عمر جزي زيدان

منشئ الهلال

كتب الهلال

الجزء الخامس

في نظام الاجتماع وطبقات الناس والاداب الاجتماعية
والمعيشة العائلية وحضارة المملكة وآثار المدنية
وابهة الدولة ومظاهر العظمة والفخامة

مطبقة الهلال بالقاهرة بمصر

سنة ١٩٠٦

المقدمة

هذا الجزء الخامس من تاريخ التمدن الاسلامي وهو آخر اجزاء الكتاب .
 فحمد الله لاننا توقفنا الى اتمام هذا العمل الشاق مع ما يعتوره من العقبات ويفقر
 اليه من اعمال الفكرة والمراجعة لما توخينا فيه من التحقيق والتدقيق ولا سيما بعد
 ان عمدنا الى ذكر المآخذ في هوامش الصفحات مع الاشارة الى الكتاب والجزء
 والصفحة من كل منها . ولا يخفى ما يقضيه ذلك من التيقظ والتعب في ضبطه
 والتوفيق بين اجزائه . ولكنه اعاننا من الجهة الاخرى على الاجياز في بعض
 الاماكن اكتفاءً بالاشارة الى خلاصة الموضوع وحالة القاري في استيفائه الى
 المصدر الاصيل لئلا يخرجنا ايراده الى التطويل

على ان كثرة المواضيع وتعدد فروعها وتداخلها قد حملنا احياناً على
 ايراد بعض النصوص في جزء مع ورودها في جزء آخر قبله . وانما فعلنا ذلك
 رغبة في استيفاء الادلة واحكام البرهان بتنسيق المقدمات وتأنجها وتغادياً من
 إرجاع القارئ الى بعض الاجزاء السابقة - وان كنا لم نرتكب هذا التكرار
 الا عند الضرورة لان وجهتنا الاولى في كتابتنا انما هي بسط العبارة وايضاح
 الموضوع حتى ينجلي للقاري كأنه مجسم . على اننا كثيراً ما احلنا المطالع الى
 مراجعة ما سبق ذكره في اماكنه

والجزء الذي نحن في صدده اكثر سائر الاجزاء طلاوة واقربها الى افهام
 المطالعين على اختلاف طبقاتهم وتفاوت معارفهم لانه يبحث في مثل ما افقه من
 العادات والاداب مما تآلذ مطالعته وتنوق النفس الى معرفته من الابحاث الاجتماعية
 والمواضيع العمرانية والأحوال العائلية مما يريد الناس عادة بقولهم « حضارة » او

« مدينة » وهو بالحقيقة بعض ظواهرها على ما تبين لك في الاجزاء السابقة
فمواضيع هذا الجزء سهلة على المطالع ولكنها شاقة على المؤلف لخلو كتب
القوم من امثالها على الاسلوب الذي تحديناه في هذا الكتاب . ولو فتشت
ما كتبه اسلافنا في التاريخ والادب والعلم وغيرها ما رأيت لاحد منهم فصلاً ولا
جملة ولا فقرة في نظام الاجتماع مثلاً أو طبقات الناس أو الآداب الاجتماعية
أو الحضارة أو الابهة الا ما قد يرد عرضاً في اثناء النوادر أو الحكم أو التراجم
أو الوقائع مما استعنا به في الاستدلال على بعض الحقائق المذكورة

وبحوث هذا الجزء تنظم في اربعة ابواب كبرى (١) نظام الاجتماع
(٢) الاداب الاجتماعية (٣) حضارة المملكة (٤) ابهة الدولة

فنظام الاجتماع اساسه طبقات الناس ولذلك قدمنا الكلام بفصول في
طبقاتهم قبل الاسلام في جزيرة العرب وما يحقق بها من البلاد العامرة في الشام
والعراق ومصر وفارس وافريقية ثم طبقاتهم بعد الاسلام وما طراً عليها من التغير
في ايام الراشدين فالامويين فالعباسيين . وبسطنا الكلام في نظام الاجتماع
بالعصر العباسي فقسّمنا الناس الى طبقتين كبيرتين الخاصة والعامة وجعلنا الخاصة
اربع طبقات الخليفة واهله واهل دولته وارباب البيوتات . واضفنا الى الخاصة
طوائف من الناس يصح إلحاقهم بها سميناهم « اتباع الخاصة » وهم الجند والاعوان
والخدم . ويدخل في طائفة الخدم العبيد والجواري والخصيان . وبيننا ما كانت
عليه كل طبقة او طائفة في عهد ذلك التمدن

وجعلنا العامة طبقتين كبيرتين الأولى المقربون وهم فئة من العامة سميت
بهم قرائنهم او همهم الى إلحاق بالخاصة . كاصحاب الفنون الجميلة واهل الادب
والشعر والغناء وارباب التجارات الثمينة والصنائع العليا . وذكرنا ما كان يكتسبه

هوؤلاء من الاموال المتدفقة من خزائن الدولة . واما الطبقة الثانية من العامة فهم معظم الامة ويقسمون الى فئتين الاولى اهل الثرى وهم السواد الاعظم والثانية عامة اهل المدن وهم اكثر سكانها ويتعاطون الصناعات اليدوية والتجارات الصغرى وبينهم طوائف العيارين والشطار والمختشين وغيرهم وذكرنا تاريخ كل منها

واما الاداب الاجتماعية فصدرناها بتمهيد في تاريخها من زمن الجاهلية فذكرنا مناقب البدو كالعصبية والانتة والوفاء والسماء والنجدة والارحية والعفة وكيف تسرب الفساد الى هذه المناقب تدريجاً بتقديم القوم في معارج الحضارة وذكرنا الاسباب التي بعثت على تبديل بعضها في عصر الراشدين فالامويين الى العصر العباسي . وبسطنا الكلام في اداب هذا العصر بسطاً وافياً لانه هو المراد بهذا الباب فقسمنا الكلام فيه الى فصول في العائلة ونظامها وما يتخلل ذلك من حال المرأة العربية فينبأ عفتها وانفتها في الجاهلية واوردنا امثلة من اشهرن فيها بالشجاعة والحزم والرأي . وكيف تبدلت احوالها في عصر الترف بما ادخله عليها الرجل من الجوارى والسراري حتى ذهبت الغيرة ونشأ سوء الظن فحبسها وضيق عليها . وافردنا فصلاً لاسلوب الارتزاق في عهد ذلك التمدن بالسفاه المتسلسل على سنة العرب . وجعلنا كلامنا في المعيشة العائلية فصولاً في الطعام واللباس والمأوى فاجملنا تاريخ كل منها في ايام الجاهلية وما احدثه فيه ذلك التمدن

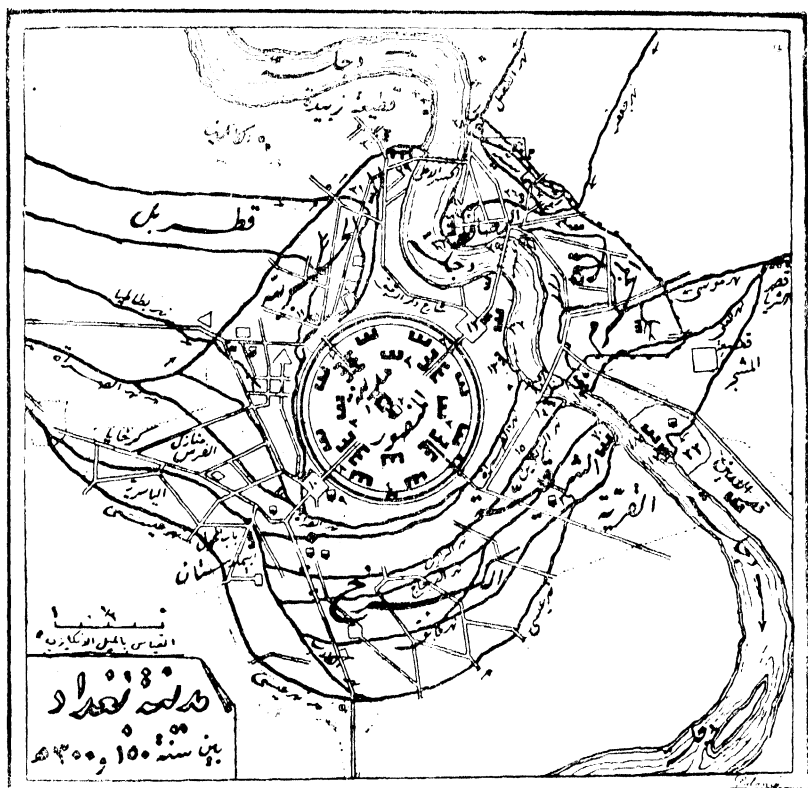
ثم اتينا الى الباب الثالث من هذا الجزء وهو حضارة المملكة فقسمناه الى قسمين اولها العارة او العمران وثانيهما الثروة والرخاء . والعارة اما في المدن او في القصور فاتينا بامثلة من عمارة اهم المدن الاسلامية واشهر القصور والمباني في دمشق وبغداد والقاهرة وقرطبة وغرناطة وغيرها . اما الثروة فيدور الكلام فيها على أبحاث في ثروة الخلفاء والامراء وما تقنضيه من التائق بالطعام والتنعيم

باللباس والتزين بالاثاث والرياش والمجوهرات ونحوها . ثم القصص وما يلابسه من التسري وعقد مجالس الغناء والشراب . ثم السخاء وقد نظرنا فيه من ايام الراشدين الى العباسيين وكيف تدرج القوم في مقدار الصلة ونوعها . ويتخلل ذلك فصول في الغناء وتاريخه من الوجهة الاجتماعية والادبية والمسكر وخلاصة اقوالهم في تحريمه وتحليله وتاريخ انتشاره وانعاس الخاصة به فضلاً عن العامة وما نتج عن ذلك من التهلك والاسراف والفحشاء

اما بهمة الدولة فجعلنا مدار الكلام فيها على الخلفاء واحوالهم من سداجة الراشدين ونقشفهم الى بذخ العباسيين واهتمامهم . وقسمنا البحث في هذا العصر الى فصول عديدة في مجالس الخلفاء ومواكبهم واحتفالاتهم وعلائقهم بالدول المعاصرة وملايسهم والعابهم وملاهيهم . ويتفرع القول في مجالسهم الى المجالس العامة ومجالس الادب والغناء والمناظرة وغيرها . فوصفنا المجلس وفرشه ومراتب الجلوس فيه وشروط الاستئذان في الدخول والتحية وآداب المجالسة وعلامة الصرف ونحو ذلك . وقسمنا ملاهيهم الى فصول في الصيد والسباق والكرة والصولجان ورمي البندق وارتباط السباع وغيرها

وذيلنا هذا الجزء بفهرسين كبيرين الاول جدول اسماء الكتب التي ذكرت في هوامش الاجزاء الخمسة مع اسم المؤلف وسنة نشر الكتاب ومحل طبعه والثاني فهرس ابجدي عام لمواضيع الاجزاء الخمسة فضلاً عن فهرس هذا الجزء وقد بذلنا الجهد في تحري الحقيقة وتوخينا الانصاف والاخلاص بما يبلغ اليه الامكان — فان احسننا فذلك قصدنا واقصى مرادنا وان أسأنا فعن غير عمد منا وما العصمة الا لله وحده





- | | | |
|-------------------------------|----------------------------|---------------------------|
| ١ قصر الذهب او القبة | ١٢ الميدان وبجانبه الاصطبل | ٢٢ قصر المعتصم |
| ٢ الخضر | ١٣ دار القرار (قصر زبيدة) | ٢٣ دار الروم (البطركانة) |
| ٣ ابنية الحكومة لمصالح الدولة | ١٤ دار حميد بن عبد الحميد | ٢٤ قصور البرامكة |
| ٤ المطبخ | ١٥ جامع معروف الكرخي | ٢٥ باب الطاق |
| ٥ باب البصرة | ١٦ مشهد علي | ٢٦ قصر المهدي |
| ٦ باب خراسان | ١٧ قصر جعفر البرمكي ثم | ٢٧ جامع الرصافة |
| ٧ باب الشام | صار من قصور الخلافة | ٢٨ باب الشماسية وقصر موسى |
| ٨ باب الكوفة | ١٨ قصر الناج | ٢٩ قصر الحريم الطاهري |
| ٩ جامع المسيب | ١٩ قصر الفردوس | ٣٠ قصر زبيدة |
| ١٠ ديوان الصدقة | ٢٠ دار عيسى | ٣١ دار الرقيق |
| ١١ سجن باب الشام | ٢١ قصر ابن الخصيب | ٣٢ قصر الخلد |
| | | ٢٣ حدائق القصور والبساتين |

نظام الاجتماع

في المملكة الإسلامية

موضوع هذا الباب النظر في حال الهيئة الاجتماعية في ابان التمدن الاسلامي وبيان الجماعات التي كانت تتألف منها طبقاتهم وعلائقها بعضها ببعض . ولزيادة الايضاح نهد الكلام بنظام الاجتماع علي عهد الروم والفرس في البلاد التي فتحها المسلمون من تينك المملكتين وما كان من تاثير الاسلام في ذلك النظام وكيف تدرج في الارتقاء من ابان الراشدين فالامويين فالعباسيين ثم بنسط القول في نظام الاجتماع بالعصر العباسي

نظام الاجتماع قبل الاسلام

يقسم الكلام في ذلك الى وصف طبقات الناس (١) في الشام والعراق (٢) في مصر (٣) في افريقيا (٤) في بلاد فارس (٥) في جزيرة العرب

١ — طبقات الناس في الشام والعراق

نريد بهذين البلدين ما بين دجلة في الشمال الشرقي وآخر حدود الشام في الجنوب الغربي وسكان هذه البقعة اكثر ام الارض اختلاطاً في اجناسهم واديانهم وآدابهم لكثرة الدول التي توالت عليها من اقدم ازمئة التاريخ . وللعلماء ابحاث طويلة وآراء متضاربة في احوالهم لا محل لها ولا فائدة منها . وخلاصة ما يستخرج من ابحاثهم ان اقدم من عُرف من اهل تلك البلاد بطون من الساميين . وكانت مساكن القبائل السامية تمتد من دجلة عند اطراف ما بين النهرين شمالاً شرقياً الى سواحل سوريا حتى العريش فالبحر الاحمر غرباً وشواطئ اليمن وحضرموت جنوباً بغليج فارس وبحر عمان شرقاً . وهي عبارة عن بلاد ما بين النهرين والعراق وسوريا وفلسطين وجزيرة سيناء وجزيرة العرب

والساميون ثلاثة فروع كبرى (١) الآراميون وهم القبائل السامية الشمالية كانت مواطنهم في ما بين النهرين والعراق وسوريا الاقسماً من شواطئها (٢) العبرانيون وهم القبائل

السامية الوسطى ومواطنهم في فلسطين وشواطئ سوريا (٣) العرب وهم القبائل السامية الجنوبية ومقامهم في جزيرة العرب وما يليها من بادية الشام والعراق وجزيرة سينا الآراميون

فالآراميون كانت لغتهم فرعاً من اللغة السامية يعرف باللغة الآرامية وانقسموا بتوالي الاجيال الى امم اشتهرت في التاريخ اهمها امه السريان في ما بين النهرين والعراق والكلدان في اعالي سوريا . وانقسمت اللغة بهذا الاعتبار الى الفرعين السرياني والكلداني . والعبرانيون يراد بهم ابناء ابراهيم وقد اسبقوا في فلسطين نحو القرن الثالث عشر قبل الميلاد وتلاحق بهم الفينيقيون وكانوا يتكلمون لغة تشبه العبرانية . واما العرب فكانوا يتفاهمون بلغة من اللغات السامية هي العربية ومن فروعها او اخواتها الحميرية والحبشية . واقرب القبائل العربية الى الشام الانباط وكان لهم شأن في اثناء تسلط الرومان على الشام سيأتي ذكره

فما بين النهرين والعراق والشام وفلسطين كانت في اقدم ازمته التاريخ مأهولة بشعوب سامية تنقارب نسباً ولغة . اما قبل نزول الساميين فكانت مقاماً لأم لا يعرف اصلها وكان الساميون اقوى منهم فغلبهم على بلادهم واسبقوا فيها واخذ اولئك بالانقراض قبل الميلاد بعدة قرون . وهاك ترتيب مساكن الساميين هناك من الشمال الى الجنوب — السريان فالكلدان فالفينيقيون فالعبرانيون فالانباط . وخالطتهم امم شتى غير سامية اقامت بين اظهروهم في بقاع مختلفة من بلادهم غير بقايا الشعوب الاصلية مما يطول بيانها ولكن الساميين تغلبوا عليهم جميعاً وعاشت اديانهم وآدابهم وعاداتهم .

على ان مركز هذه البلاد الجغرافي جعلها عرضة لمطامع الفاتحين من الامم القديمة كالحثيين والمصريين والاشوريين والفرس فكانوا يتناوبون فتحها او اكتساحها ونقاط شعوبهم اليها . ولكن الامر لم يستقم لدولة من هذه الدول في سوريا كما استقام لليونانيين خلفاء الاسكندر . فان هذا القائد العظيم فتح هذه البلاد في القرن الرابع قبل الميلاد واوغل فيها ثم صيرها خلفاؤه يونانية وتوافد اليها اليونان واقاموا فيها واختلطوا باهلها ولا سيما بعد ظهور النهرانية وهي في سلطة الرومان . ولكن العنصر اليوناني ما زال متغلباً عليها واكثر تغلبه على سواحل بحر الروم ويضعف شأنه في الداخلية تدريجاً

. ومع ذلك الاختلاط ظلت الشعوب السامية محافظة على آدابها وعاداتها ولغاتها ولا سيما اليهود فانهم مع ما اصابهم من الاضطهاد والسبي ظلوا من حيث الآداب والدين نحو ما كانوا عليه في ايام داود وسليمان الا ما اصاب لغتهم من التغيير في اثناء السبي

ببابل فانها اختلطت بالسريانية والكلدانية وعُرفت باللغة الآرامية او الكلدانية وبها كتبوا التلود . وانقسموا الى اليهود والسامريين . اما من بقي من الشعوب السامية ولا سيما السريان فتنصروا وانفردوا بآدابهم وعاداتهم واكثرهم كانوا يقيمون في العراق وما بين النهرين واعالي سوريا الى فلسطين

الانباط

فكانت حدود الشام الغربية على سواحل بحر الروم يغلب عليها العنصر اليوناني وحدودها الشرقية مما يلي البادية يغلب عليها العنصر العربي . وكان هناك في اوائل القرن الرابع قبل الميلاد امة عربية عرفت بالانباط او النبط كان مقامهم وراء فلسطين غرباً جنوبياً على انقاض الادوميين في بقعة تمتد من جزيرة سينا الى حوران تعرف بالبلاد العربية الصخرية Arabia Petra ولا تزال آثار مدينة بطرا باقية الى الآن وفيها الابنية المنقوشة والتماثيل المخوتة ونحوها . حاربهم الروم سنة ٣١٢ م بقيادة انتيغونوس وكان الانباط عشرة آلاف . مقاتل وذكر ديودورس انهم كانوا يمتنعون الزراعة رغبة في الرحلة ويعيشون على اللحوم والالبان ويحرمون الخمر تحت طائلة القتل . وانما شرايهم الماء يجلونه بالبن وهو كثير عندهم . وكانوا يجرون بالمر والاطياب يحملونها من شواطئ البحر الاحمر وبلاد العرب والبحر او القار يحملونه من البحر الميت الى مصر ليستخدمه المصريون في التحنيط . وكانت طرق التجارة بين مصر وسائر المشرق لا تسلك الا على يدهم والا فانهم يهاجمون القوافل ويغزون التجار . ثم تغلب عليهم البطالسة وقهرهم فباعدها عن حدود مصر ونزلوا حوران ونبغ منهم في القرن الاول قبل الميلاد ملك يسميه اليونانيون اريتاس (الحارث) حارب عامل دمشق وغلبه على مدينته واستولى عليها وعلى ملحقاتها تحت رعاية الرومانيين نيافاً واربعين سنة . ثم صار الانباط حلفاء الرومان في القرن الاول للميلاد وامندت شوكتهم في اثناء ذلك الى جزيرة العرب مما يلي سواحل البحر الاحمر

وظلت مدينة بطرا مركزاً تجارياً بين الشرق ومصر حتى اكتشفوا الطريق من القصير الى فقط على النيل فاخذت بطرا بالنهقر وكان الانباط قد تحضروا فذهبت خشونتهم وعجزوا عن الغزو والحرب فاركنوا الى الزراعة وأووا الى المنازل وانغمسوا في الترف فجاءهم تراجان الروماني سنة ١٠٥ م فخاربهم واخضعهم واذلهم فذهبت عصبيتهم وانحلت قوامهم فاخذوا الى الدعة واختلطوا باهل البلاد الاصليين من السريان أو الاراميين وانتشروا على حدود سوريا وفلسطين مما يلي البادية بين جزيرة سينا والفرات ولم تقم لهم قائمة

من ذلك الحين

ولما جاء المسلمون لفتح الشام وجدوا بقايا هذه الامة هناك يتكلمون اللغة الارامية او السريانية لغة اهل العراق وما بين النهرين فحسبوا الانباط والعراقيين امة واحدة فاطلقوا عليهم جميعاً اسم « الانباط » والذي عليه المحققون ان انباط بطرا وما يليها عربٌ وانما تكلموا الارامية على اثر اخلاطهم باهل الشام والعراق بعد ذهاب دولتهم . و يظن علماء التوراة ان النبطيين ينسبون الى نبايوط من اباء التوراة

ولما ضعف الانباط ظهر مكانهم على حدود الشام والعراق اجيال جديدة من العرب اتخذهم الروم والفرس حلفاء يردون عنهم غارات اخوانهم اهل البادية او ينصرونهم في الحروب التي كانت تنتشب بين تينك الدولتين قبيل الاسلام . فاقام حلفاء الروم في جهات حوران وهم الغساسنة واقام حلفاء الفرس على شاطئ الفرات في الحيرة وهم المناذرة . فاذا انتشبت حرب بين الروم والفرس تجند الغساسنة للروم والمناذرة للفرس ودافع كل منهما عن اصحابه . فكانوا مع بداوتهم وسذاجتهم عوناً قوياً لهاتين الدولتين الضخمتين ينصرون احدهما على الاخرى . ولحق هذا السبب اقام العرب على الحدود بين الفرس والروم في ما بين النهرين والعراق وفيهم بطون من اياد وريعية

فسكان الشام والعراق عند ظهور الاسلام كان معظمهم من بقايا الاراميين الاصليين وهم السريان في الشمال والشرق واليهود والسامريون في الجنوب وبقايا الانباط في الغرب يليهم العرب الغساسنة والمناذرة ثم قبائل اياد وريعية بين النهرين . ويختل هذا المجموع شتات من امم اخرى كالجرارمة في جبل اللسكام^(١) والجرارمة في الموصل^(٢) واخلاط من مولدي اليونان الرومان على الشواطىء ومولدي الفرس والاكراد في الشمال . وكانت جامعة الدين قد غلبت على جامعة النسب او الجنس او اللغة فاصبحت الطوائف تنتسب الى مذاهبها الدينية كالنصارى واليهود والسامريين . وينقسم النصارى الى ملكيين ويعاقبة ونساطرة وموارنة وغيرهم . وكانت الدبانة والسياسة مرتبطين والحزب الديني عبارة عن حزب سياسي يستخدم في تأييد الدولة . فالكنيسة القسطنطينية كانت ام كنائس المشرق وشعوب هذه الكنائس تنقاد الى تلك الكنيسة لتأييد سلطة القيصر صاحب العرش فيها والكلام في تفصيل ذلك يطول

نظام الاجتماع في الشام والعراق

اما حال الاهالي بالنظر الى الحكومة فكان على غير المألوف بينما بعد النسبة بين الحاكم والمحكوم في تلك الايام ولا سيما في البلاد التي يحكمها الغرباء البعيدون عن اهلها لغة او ديناً او جنساً . فالرومان كانوا يعدّون البلاد واهلها وهم العامة ملكاً لهم يتصرفون بهم كيف شاؤوا وكان الفلاحون في كثير من البلاد يعدّون من توابع العقار فينتقل العقار من مالك الى آخر وفلاحوه معه ويسمونهم سرف (Suffs) اي الاقنان (جمع قن) الا الذين نسمو بهم همهم الى القرب من رجال الدولة بالصناعة او الادب او التجارة وهم قليلون . فكان الناس طبقتين طبقة الخاصة وهم الملك واهله واعوانه ورجال الدين ومن جرى مجراهم . والعامة اهل البلاد الاصليون واكثرهم الفلاحون او الاكرة

فخاصة اهل الشام في العصر الروماني حكمها وهم البطارقة والبطريق غير البطريرك . وكان البطارقة عند الرومانيين جماعة من اشرف المملكة الرومانية نشأوا مع مدينة رومية وكان لهم نفوذ عظيم في الدولة الرومانية وانحط شأنهم بعد انقسامها ولم يبق لهم عمل فلما امتدت سطوة الروم الى المشرق رأوا تلك البلاد البعيدة لا يستطيع الحكم فيها واخضاع اهلها الا اهل السطوة والهيبة فعهدوا بذلك الى البطارقة ولولهم المستعمرات الشرقية وفي جملتها الشام ومصر وكانت الشام ولاية واحدة تقسم الى ١١ اقلياً على كل اقليم بطريق معه الجند كانه حاكم مستقل^(١) وكانت حدود الشام بالنظر الى الحكومة تنتهي من الشمال الشرقي الى الفرات ولا يدخل العراق وما بين النهرين فيها وانما جعلناها منها في كلامنا عن الاهالي لانهم واهل الشام من اصل واحد كما رأيت

٢ — طبقات الناس في مصر

ان سكان مصر اقل اختلاطاً من سكان الشام والعراق ومع ذلك فقد توالى الهجرة اليها من اقدم ازمنة التاريخ قبل زمن الفراعنة . والفراعنة اكثرهم من الفاتحين الغرباء فكانوا اذا فتحوا مصر واستقام لهم الامر فيها هاجر اليها اهل عصبيتهم لاستثمار ذلك الفتح . فياتون على ان تكون اقامتهم وقضية ريثاً يجتمع لهم المال ولكن اكثرهم لا يرجعون ولا يمضي بضعة اجيال حتى يختلطوا بالسكان ويصيروا جزءاً منهم كما حدث في زمن الرعاة والفرس

(١) راجع تفصيل ذلك في صفحة ١٠٦ من الجزء الاول

اليونان والرومان وغيرهم من فتحوا مصر قبل الاسلام . والغالب في الفاتحين انهم لا يزالون يسيرون عصبيتهم من عصبية سائر رعاياهم حتى ينتقل الامر من ايديهم الى فاتح آخر فتنامى عصبيتهم ويندمجون في جملة الوطنيين . ناهيك بمن كان ياتي مصر للتجارة والاستثمار لاشتهارها بالخصب والرخاء

وكان الفاتحون يترفعون غالباً عن الاختلاط بسائر افراد الامة فيكون منهم الجنود ورجال الدولة والكهنة ونحوهم من اهل السيادة ويجعلون مقامهم في المدن الكبرى ويبقى الشعب للفلاحة والصناعة والخدمة . فالبطالسة حكموا مصر نحو ٣٠٠ سنة وثقاطر اليونان في ايامهم بكثرة وكانوا يقيمون في الاسكندرية او غيرها من العواصم واكثرهم من الجنود او التجار او رجال الدولة لادارة الحكومة . وكذلك كان شان الرومان فانهم تولوا وادي النيل ستة قرون والروماني يمتاز عن المصري لغة ومذهباً وخلقاً وكانوا يقيمون في المعازل والحصون او المدن الكبرى كما كان حالهم في الشام

فلما ظهر الاسلام كان سكان مصر طبقتين (١) الرومان او الروم وعاصمتهم الاسكندرية ومنهم رجال الدولة والاجناد وبعض رجال الاكليروس (٢) الاهالي وهم الاقباط الاصليون يخاطبهم بعض المولدين من اليونان والرومان وغيرهم من النازحين للتجارة او الخدمة او غيرها من اهل الشام واليمن والعراق والنوبة وافريقية . وكان بين الحكومة والاهالي فاصل آخر مذهبي فكان الروم على مذهب الملك وهم الملكيون والاقباط على مذهب يعقوب البرازعي وهم يعاقبة

٣ — طبقات الناس في افريقية

يريد العرب بافريقية البلاد الواقعة في شمال افريقيا حيث الآن تونس وطرابلس والجزائر ومراكش وهي في الاصل مستعمرة سامية لبعض النازحين من فينيقية قبل الميلاد بعدة قرون بنوا فيها مدينة قرطاجة او قرطجنة وانشأوا دولة هي شرقية باعتبار اصلها وان كانت غربية في موقعها لان اهلها ساميون ولغتها من اخوات اللغة العربية . وقد حارب القرطاجيون الرومانين ونازعوهم على الميادين فقطعوا اليهم البحار وجبال الالب حتى حاصروا رومية وكادوا يذهبون بدولتها ولو فعلوا ذلك لتغير وجه الارض عما نعرفه ولكنهم اخفقوا فرجعوا ثم ارتد عليهم الرومان وحاربوهم في بلادهم حتى افنؤهم واخربوا مدينتهم

وتوالى على قرطاجة بعدهم امم شتى كالرومان والفندال والفرس وغيرهم
اما اهل البلاد الاصليون فقد كان معظمهم قبل القرطاجيين اقواماً من الجنس
البربري يعتصمون بالجبال دأبهم النهب والغزو . ولما ذهب القرطاجيون وخلفهم الرومان
وجدوا اهل تلك البلاد طبقتين احدهما حضرية تتوطن السواحل في ما هو الآن مراكش
والجزائر وتونس يتعاطون التجارة والصناعة والاخرى تسكن الجبال والبادية . فسموا الاولى
الموريتانيين والثانية النوميديين . وكان النوميديون من القبائل الرحل الاشداء فلم تقوَ
الدولة الرومانية على اذلالهم بل كانوا كثيراً ما يهاجمون حاميتها في المدن ويعودون الى
جبالهم . ذلك كان شأنهم مع من فتح افرريقية بعد الرومان . وما زالوا على ذلك حتى جاء
المسلمون وفتحوا افرريقية واهلها طبقتان الاولى اهل المدن وهم الموريتانيون ومن اختلط بهم
من الامم الفاتحة الروم والفندال وقد اعتنقوا النصرانية وتحضروا . والثانية النوميديون
وهم لا يزالون على بدائنتهم وظلوا ممتنعين في جبالهم الى اواخر القرن الاول للهجرة وهم
الذين يسميهم العرب قبائل البربر على ما هو مذكور في كتبهم ولهم شأن كبير في
في تاريخ الاسلام

٤ — طبقات الناس في بلاد فارس

نريد ببلاد فارس ما بين دجلة في الغرب الجنوبي ونهر جيحون في الشرق الشمالي
ويدخل فيها خوزستان وكرمان ومكران وبلاد الجبال وخراسان واذريجان وارمينيا وغيرها
وهي تحوي شعوباً شتى من امم مختلفة لا يمكن حصرها وتمييزها بعد ان طال العهد عليها . ولكنها
تمتاز في كل حال عما يجاورها من سكان العراق والشام امتيازاً كلياً في الجنس واللغة والدين
اما الجنس فسكان بلاد فارس اكثرهم من الجنس الآري وهو غير الجنس السامي الذي
عمر الشام وما وراءها كما تقدم . اما اللغة فالفارسية من اللغات الآرية اخوات لغات
اوربا وهي غير اللغات السامية . واما الدين فالمذهب الذي كان شائعاً في تلك البلاد
قبل الاسلام الزردشتية أو المجوسية ومذهب اهل العراق والشام النصرانية واليهودية

وتوالى على بلاد فارس دول كثيرة حتى فتحها الاسكندر في القرن الرابع قبل الميلاد
فلما مات وافتسم المملكة قواده لم يستطيعوا استبقاء تلك البلاد في حوزتهم فافتسمها
امراؤها وهم المعروفون بملوك الطوائف حتى قام اردشير بن ساسان سنة ٢٢٤ م فجمع كلمتها

بالسيف وتوالى عليها اهله الى ظهور الاسلام وهي الدولة الساسانية فلما ظهر الاسلام كان سكان تلك المملكة طبقتين العامة والخاصة . اما العامة فاهل البلاد الاصليون ومنهم الفلاحون والصناع والحدم وغيرهم من نتاج الاختلاط قرونًا بين القبائل الآرية وبعض القبائل الطورانية من الانراك والدلم . وكانوا يسمون عند ظهور الاسلام « الطاجية » ولا يعرف اصل هذه اللفظة تمامًا^(١) ولكنهم يريدون بها طبقة العامة والطاجية فخام الاجسام اقربا الابدان

واما الخاصة فالملك واهله ورجال دولته ورجال الدين والاشراف من بقايا الدول السالفة . فبعد الملك واهله تأتي طبقة الشهاجة « شهربان » او الشهاجة^(٢) وهم اشراف السواد وارباب الدولة كلبطارقة عند الروم . تليهم طبقة الدهاقين واحدم دهقان و ينتسبون الى الملوك القدماء من الدول السالفة وهم اصحاب الارضين وفي ايديهم اكثر البقاع يستغلونها على رقاب الطاجية . والدهاقين خمس مراتب وقد يتولون الامارات و يتعاطون الحكومة كأمراء بخارا (بخازا خدا) فقد كانوا عند ظهور الاسلام من الدهاقين وكذلك هرات . وقد يكون الدهقان مثل بعض العامة

وكانت مملكة فارس عند ظهور الاسلام في حوزة الدولة الساسانية تقسم الى عمالات يتولى كل عمالة امير يسمونه « مرزبان » واصل معنى هذه اللفظة قائد الحدود . على ان بعض العمال كانوا يتمتعون بشيء من الاستقلال في احكامهم ولا سيما في الامارات البعيدة وكان بعضها مستقلة استقلالًا تامًا ويتخذ كل امير لقبًا خاصًا به مثل « رتبيل » لقب امير سجستان و « رنجان » لامير سمنجان و « جيغويه » لصاحب طخارستان و « اصهبذ » لصاحب بلخ و « باذان » لمرو الروذ و « شهرک » للطالقان و « اخشيد » لصاحب فرغانة وقس

عليه . على ان بعض الولايات كمر و سرخس وطوس كان يتولاها المرازبة واكبر نفوذًا وسطوة من اشراف المملكة وملوكها رجال الدين وهم كهنة الزردشتية و يسميهم المسيحيون المجوس واسمهم عند الفرس الموبدان واحدم « موبذ » وهم كالاساقفة عند النصارى رئيسهم يسمونه « موبذ موبدان » مثل رئيس الاساقفة وكان نفوذهم في الدولة يفوق نفوذ الملك^(٣) ومنهم القضاة او من يقوم مقامهم في الحكومة بين الناس وكان في بلاد الفرس جماعات تجمعهم نسبة او صفة يقيمون في بلد او ينتقلون في البلاد

(١) الهلال صفحة ٩٩ سنة ١٣ (٢) المسعودي ١٢٣ ج ١

(٣) Christianisme dans l'Empire Perse 6

كلاساورة والسيابجة والزط والاحامرة ونحوهم^(١)

٥ - طبقات الناس عند العرب الجاهلية

قد علمت ان سكان جزيرة العرب من الشعوب السامية اخوان الاراميين والعبرانيين ولكنهم لم يصبهم ما اصاب اخوانهم في العراق والشام من الاختلاط لامتناع جزيرتهم على الفاتحين بما يحقد بها من البوادي التي يعسر سلوكها على الجيوش . وقد همَّ بها الاشوريون واليونان والروم وغيرهم ورجعوا عنها بلا طائل حتى اذا كان القرن الخامس للميلاد فتح الاحباش قسمها الجنوبي (الين) وعجزوا عن الحجاز فاستنصر الينيون الفرس فنصروهم واخرجوا الاحباش وحلُّوا محلهم واختلطوا باهل الين وعرفوا بالابناء الاحرار على ان بلاد العرب كانت ملجأ النازحين من الشام او مصر او العراق فراراً من ظلم او ضغط او امتناعاً على الحكومة لسبب من الاسباب . واكثر الام نزوحاً اليها اليهود لكثرة ما قاسوه من الاضطهاد منذ خروجهم من مصر الى ان اضطهدهم الروم على عهد طيطس وغيره - وهاجر اليها كثيرون من اليونان والرومان والفرس والهنود والاحباش وغيرهم بلا حرب ولا اضطهاد . ومع ذلك فان العرب ظلوا مستقلين بانسابهم وعاداتهم وآدابهم ويقسمون باعتبار النسب او الوطن الى فحطانية او يمنية وعدنانية او حجازية . وانقسمت لغتهم بهذا الاعتبار الى حميرية ومضرية وقد فصلنا طبقات العرب وقبائلهم وحلفاءهم ومواليهم وعبيدهم في الجزء الرابع من هذا الكتاب

نظام الاجتماع في عصر الراشدين

بيِّنا في الجزء الرابع المذكور ما احدثه الاسلام من التغيير في العصبية العربية وما تولد به من الطبقات الجديدة التي لم تكن قبل الاسلام كالمهاجرين والانصار واهل بدر واهل القادسية وما اقتضاه النسب الهاشمي او القرشي من العصبية الجديدة ومنهم طبقات الاشراف من العلويين او العباسيين وابناء الانصار والمهاجرين على ما وضعه عمر في ديوانه من مراتب العطاء باعتبار تلك الطبقات^(٢) . وما يلحق بذلك من طبقات التابعين وتابعي

(١) البلاذري ٣٨١ (٢) الجزء الاول ١٢٥

التابعين والانتساب الى مشاهير الصحابة كآل الزبير وآل ابي بكر وغير ذلك مما اقتضاه الاسلام والفتوح الاسلامية . فتولد من ذلك بيوتات اسلامية غير البيوتات العربية التي كانت قبل الاسلام

اما البلاد المفتوحة فلما جاء المسلمون لفتحها فأول من لقيهم على حدودها العرب ابناء لغتهم واهل عصبيتهم ولما اوغلوا في الشام والعراق استأنس اهلها باللسان العربي لقربه من لسانهم الآرامي او السرياني مع بعد لسان حكامهم يومئذ الرومي او الفارسي عنهم — فكان ذلك من جملة ما مهد لهم اسباب الفتح . اما طبقات الناس الاصلية فقلما اصابها تغيير في عصر الراشدين لان المسلمين لم يكونوا يخاطبونهم ولا يدخلون في شيء من احوالهم الادارية او الدينية او السياسية وانما كان همهم اقتضاء الجزية واخراج وحماية من دخل في ذمتهم من اهل الكتاب . فكانوا يقيمون في مضاربهم او معاقلهم بضاحية البلد المفتوح بما يشبه الاحتلال العسكري — الا من دخل في حوزتهم من الارقاء بالاسر او السبي ومن اعنقوه فصار من الموالي . وهناك طبقة جديدة نشأت بانتشار الاسلام خارج جزيرة العرب وهم المسلمون من غير العرب ولهم شروط واحوال تختلف ما للعرب على ما بيناه في الجزء الرابع

نظام الاجتماع في عصر الامويين

كانت قصة الاسلام على عهد الراشدين في المدينة بجوار قبر النبي فنقلها الامويون الى الشام قرب البلاد المفتوحة وعملوا على توسيع دائرة مملكتهم فجردوا الجيوش وفتحوا المدن حتى وطئت حوافر خيولهم ما وراء النهر في اقصى الشرق وركبوا بحر المجاز (بوغاز جبل طارق) الى اسبانيا ففتحوها وما وراءها من بلاد الافرنج الى نهر تورس . ونصبوا اعلامهم على اعظم مدائن الفرس والترك والروم والاسبان والافرنج حتى هددوا القسطنطينية . وحولوا الاحتلال الموقت الى السيادة الدائمة . وجعلوا الاسلام دولة بعد ان كان ديناً وأبدوه بنقل دواوين الحكومة في الشام ومصر والعراق من اليونانية والقبطية والفارسية الى العربية وبعد ان كانت تلك الدواوين يتولاها اهل البلاد غير المسلمين جعلوها في ايدي المسلمين . وضرربوا النقود العربية فاستعاضوا بها عن نقود الروم والفرس ونقشوا عليها الآيات القرآنية بدلاً من الصور والرموز . ونقلوا طراز الدولة من اليونانية او الفارسية الى العربية — فال ذلك كله الى انتشار العرب في الارض وسيادة العنصر العربي ونشر اللغة العربية

على ان شدة تعصبهم للعرب دعا الى انقسام المسلمين الى طبقتين العرب والموالي فضلاً عما فرقوا فيه بين العرب انفسهم باعتبار النسب القحطاني والعدناني . وظل العرب في ابامهم على بداوتهم بما كانوا يتوخونه من المحافظة على خشونة الجاهلية وتنشيط ادابها فطبقات الناس في العصر الاموي تقدمت خطوة عما كانت عليه في زمن الراشدين فكان الناس طبقتين كبيرتين المسلمين وغير المسلمين والمسلمون طبقتان العرب وغير العرب وهم الموالي . وغير المسلمين هم اهل الذمة من القبط والانباط والروم والفرس وغيرهم كما كانوا قبل الاسلام — الاً من دخل في خدمة المسلمين من الاطباء والكتّاب والمترجمين وهم طبقة جديدة من اهل الذمة لم تكن قبل الاسلام . غير ما حدث في اثناء الفتوح الاموية والحروب الاهلية من انتقال بعض الطوائف والجماعات من بلد الى آخر كانتقال السلاجبة والزط الى سواحل الشام في ايام معاوية . ونقل الحجاج جماعة من زط السند الى العراق واسكنهم باسافل كسكر . ومبى عبيد الله بن زياد خلقاً من اهل بخارا فاسكنهم البصرة . ولما بنى الحجاج مدينة واسط نقل كثيراً منهم اليها فاقاموا فيها وتناسلوا ^(١) فضلاً عما كانوا يصطبونهم احياناً في حملاتهم البعيدة للفتح او الغزو فقد يكون في الحملة جماعات من البرابرة والانباط والاقباط والجرامقة والجرامة ^(٢) فهؤلاء اذا فتحوا بلداً اقاموا فيه وتناسلوا واختلطوا باهلها

وبالجملة فان الهيئة الاجتماعية في ابام الامويين كانت في بدء انتقالها من حالها القديمة في عصر الروم والفرس الى العصر الاسلامي . ولم يتم ذلك الانتقال وتكيف بشكلها الخاص بالاسلام والتدين الاسلامي الاً في العصر العباسي لترفع الامويين عن الاختلاط بغير العرب ورغبتهم في البقاء على البدوة . ومع اقبال جنودهم في بلاد فارس وخراسان وتركستان ومصر وافريقيا والاندلس قلما اختلطوا باهلها او اقتبسوا منهم او قلدوهم في شيء من عاداتهم واخلاقهم حتى الخليفة المقيم في دمشق — الاً ما اتخذوه من الحرس والبريد والسرير على ما ياتي بيانه . اما العباسيون فنظراً لتغلبهم بالموالي واهل الذمة على الامويين جعلوا مقامهم بين اشياهم الفرس فبنوا بغداد على الحدود بين الفرس والسريران او بين الآريين والساميين او بين المجوس والنصارى وقربوا الفرس واتخذوا منهم الوزراء والعمال ورجال الدولة فنظموا لهم الدواوين على نحو ما كانت عليه في الدولة الساسانية

نظام الاجتماع في العصر العباسي

كل ما قدمناه من الكلام على طبقات الناس في العصور السالفة انما هو تمهيدٌ للكلام عن العصر العباسي اذ نضج التمدن الاسلامي وتكيفت طبقاته على شكل خاص بهذا التمدن وكان على اتم اشكاله في مدينة بغداد قضية العالم الاسلامي فهي اوضح نموذج يمثل به نظام الاجتماع في ذلك العصر

كان الناس في العصر العباسي طبقتين الخاصة والعامة تحت كلٍ منهما طبقات واتباع وفروع سيأتى تفصيلها :

طبقات الخاصة

كان الخاصة خمس طبقات (١) الخليفة (٢) اهله (٣) رجال دولته (٤) ارباب البيوتات (٥) نواب الخاصة

فالخليفة صاحب السلطتين الدينية والسياسية^(١) فاحر بمن كان هذا منصبه ان يعظم الناس شأنه ويتقربوا اليه بالطاعة وبذل الخدمة ويتزلفون بالمدح والاطراء . وسيأتى الكلام على الخلفاء ومجالسهم ومواقبهم والاداب في مخاطبتهم وغير ذلك في باب ابهة الدولة من هذا الجزء

واهل الخليفة هم بنو هاشم وكانوا ارفع الناس قدراً بعده ويسمونهم الاشراف وابناء الملوك^(٢) فاذا دخلوا على الخليفة جلسوا على الكراسي وسائر الناس دونهم على الوسائد او البسط الا هو فانه يجلس على السرير . وكانوا يرتزقون على الغالب برواتب يقتضونها من بيت المال فضلاً عن النعم والهدايا على ما يتراءى للخليفة في امرهم فاذا خاف تطاول احدهم للملك اغل يديه بالهدايا وقطع لسانه بالعطاء - تلك كانت سياسة العباسيين منذ تاسيس دولتهم . وكان الهاشميون في اوائلها عوناً كبيراً في تأييدها يتولون الاعمال ويقودون الجند ويعينون الخليفة بالرأي والسياسة . فلما تابدت اصبح الخلفاء يخافون مطامع اهلهم

(١) راجع الجزء الرابع صفحة ١٧٩ (٢) المسعودي ١٧٧ ج ٢ وغيره

فأخذوا يبذلون لهم الاموال فمن اعجزهم كف اذاه بالمال عمدوا الى الفتك به — باشر ذلك ابو جعفر المنصور وتمشى الخلفاء على خطته فكانوا يعطون اهلهم الرواتب الباهظة والهدايا الفاخرة يسهلون عليهم اسباب القصف والهبوط ليشغلوا بذلك عن طلب الملك وتجز همهم عن النهوض

فكان الهاشميون في الغالب من اهل السعة والرخاء يتمتعون بشرف الملك ولا يحملون اوزاره واعباء تبعته فانغمس اكثرهم في الترف وانهمكوا بالشراب والغناء وابتنوا القصور الشام والحدائق الغناء واستكثروا من الجواري وجمعوا اليهم المغنيين والقيان وقربوا الشعراء والادباء . واكثر مقامهم في البصرة بعبيدين عن دور الخلفاء ودسائسها الا من ولأه الخليفة عملاً او جنداً . واشتهر بعضهم بالثروة الطائلة كمحمد بن سليمان فقد بلغت امواله نيفاً وخمسين مليون درهم غير الضياع والدور وكانت غلته ١٠٠,٠٠٠ درهم في اليوم^(١) وبلغت ثروة خنمة بنت عبد الرحمن الهاشمي مالا يسعه الديوان^(٢) ومع ذلك فقد كانوا يؤخذون بغير ذنبهم ويخافون الدسائس على حياتهم

واما رجال الدولة فزريد بهم الوزراء والكتاب والقواد ومن جرى مجراهم من ارباب المناصب العالية . وكان اكثرهم في ابان الدولة العباسية من الموالي وخصوصاً الفرس كالبرامكة وآل الربيع وآل سهل وآل وهب وآل خافان وآل الفرات وآل الخصب وآل طاهر وغيرهم . وكانوا يختلفون نفوذاً ووسطوة باختلاف الخلفاء وتفاوت ادوار التمدن . ولكن الوزارة كانت على الاجمال من اوسع ابواب الكسب على ما بيناه في الجزء الثاني من هذا الكتاب

اما اهل البيوتات فهم الاشراف من غير الهاشميين ومرجع شرفهم الى اتصال حبل قرباهم بالنسب النبوي او بقريش وكان الخلفاء يراعون جانبهم ويفرضون لهم الاعطية والرواتب ويقدمونهم في مجالسهم . على ان هذه الانساب كانت اكثر نفعا لاصحابها في عهد بني أمية مما في ايام بني العباس ولا سيما بعد سقوط العنصر العربي بقتل الامين . فلما افضى الامر الى المعتصم قطع رواتب الاشراف في جملة ما قطعه من اعطيات سائر العرب ولعلماء غيدت بعد ذلك على غير قياس

اتباع الخاصة

وللخاصة اتباع أخرجه من طبقات العامة بما خصوهم به من اسباب القربى او الخدمة
 وهم اربع طبقات (١) الجند (٢) الاعوان (٣) الموالي (٤) الخدم
 فالجند فرق كثيرة تختلف اصلاً ونظاماً على ما فصلناه في الجزء الأول من هذا الكتاب
 وقد يتبادر الى الذهن قياساً على المؤلف عندنا ان الجند رجال الخليفة ياتمرون بأمره . وقد
 يكون بعضهم كذلك لكنهم كانوا يختلفون في ذلك العصر عما هم عليه الآن لان بعض
 الخاصة من الوزراء او العمال كانوا يجندون رجالاً ينفقون عليهم من اموالهم وقد يتعاونهم
 غلماناً و يربونهم للاستعانة بهم على اعدائهم وقت الحاجة . ويسمونهم باسمائهم . وقد يذهب
 الوزير او العامل وينتقل جنده الى غيره و يبقى معروفاً باسمه . فاجتمع في بغداد من الاجناد
 طوائف كثيرة تنتسب الى اصحابها كالساجية والنازوكية والبلغمية والمارونية وفيهم الاتراك
 والفرس والبرابرة والاحباش والاكراد . ومن هذا القبيل الفرق العزيزة والاشيذية
 والكفوربة في مصر مما لا يحصى ومن تلك الفرق ماهو من قبيل الضابطة او نحوها كالشاكزية
 او لمجرد حماية القصور او غير ذلك

اما الاعوان فهم خاصة الرجل ورفاقه ولا يراد بهم ما يراد بالرفاق او الاصدقاء اليوم
 فقد كان للغلاء وسائر الخاصة من رجال الدولة والاشراف رفاق يصطحبونهم ويجالسونهم
 ويعيشون في منازلهم ويكون لهم رواتب بقضونها . ومنهم طائفة الجلساء الذين يجالسون الخليفة
 او الامير وهم غير الندماء او الشعراء وانما هم رجال من اهل التعقل والثقة يختصهم الخليفة
 او الامير او الشريف بمجالسته فيفاوضهم في شؤونه ويركن اليهم في مهامه ويكون لهم الدالة
 عليه وربما كان بعضهم من مشايخ اهل او بعض ذوي قرابته
 واما الموالي فقد فصلنا الكلام عنهم في الجزء الرابع من هذا الكتاب وبيننا احوالهم
 وشروطهم وتاريخهم ولا حاجة الى المزيد

الخدم

اما الخدم فأكثرهم في ذلك العهد الارقاء السود والبيض من الذكور والاناث وقد
 اصطلموا ان يسموا الارقاء البيض ممالك والسود عبيداً ويقسم الكلام في الخدم الى ثلاثة
 اقسام الارقاء والخصيان والجواري :

١ - الارقاء

في الجز الرابع من هذا الكتاب فصلٌ عن الرق في الاسلام ومصادره واحكامه (صفحة ٤٤ وما بعدها) وفصل آخر عن الخدم وطبقاتهم ونفوذهم في الدولة حتى نبغ منهم القواد والوزراء (صفحة ١٦١) فنأتي في هذا المقام بما يختص من هذا الموضوع بنظام الاجتماع قلنا في ما تقدم عن طبقات الناس قبل الاسلام ان العامة من اهل البلاد الاصليين بالشام والعراق ومصر وفارس كانوا يثنون تحت نير الاستعباد وبعضهم ارقاء فعلاً ولا سيما الاثنيان خدمة المزارع الذين كانوا ينقلون مع العقار من مالك الى مالك . فهو لاء العامة جاءهم الاسلام رحمة لانهم تحوّلوا من الرق الى الحرية او الى العهد فمن اسلم صار حرّاً له ما للمسلمين وعليه ما عليهم ومن ظلّ على دينه دخل في ذمة المسلمين يدافعون عنه ما ادى الجزية الا من حاربهم واسروه فهو ملك لهم يتصرفون به كيف شاؤوا . ولكن اكثر الذين حاربوا المسلمين في صدر الاسلام من حامية البلاد وهم الجنود من الروم او الفرس غير العامة اهل البلاد المظالمين . فمن دخل من الحامية في اسر المسلمين صار ملكاً لهم - فكأن الاسلام حرّر العبيد واستبعد الاحرار - الا ما زعمه بعض امراء بني امية من استعباد اهل البلاد المفتوحة عنوة او اعتبار المسلمين غير العرب من الموالي

كثرة الاسرى او الارقاء

وتكاثر الاسرى في اثناء الفتوح حتى كانوا يعدّون بالالوف ويبيعون بالعشرات - اعتبر ما كان من ذلك في الصدر الاول وما تبعه من الفتوح البعيدة في ايام بني امية فقد بلغت غنائم موسى بن نصير سنة ٩١ هـ في افريقية ٣٠٠,٠٠٠ رأس من السبي فبعث خمسين الى الخليفة الوليد بن عبد الملك ٦٠,٠٠٠ رأس ولم يسمع بسبي اعظم من هذا ^(١) وذكروا ان موسى هذا لما عاد من الاندلس كان معه ٣٠,٠٠٠ بكر من بنات شرفاء القوط واعيانهم ^(٢) وقس على ذلك غنائم قتيبة في بلاد الترك وغيرها

وبلغت غنائم ابراهيم صاحب غزنة سنة ٤٧٢ هـ من قلعة في الهند ١٠٠,٠٠٠ نفس ^(٣) وفي وقعة ببلاد الروم سنة ٤٤٠ هـ بقيادة ابراهيم بن ينال سبا المسلمون ١٠٠,٠٠٠ رأس غير الدواب ^(٤) . وفي جملة غنائم الحرب فضلاً عن الاسرى من الرجال جماعات من النساء

(١) نفح الطيب ١١٣ ج ١ وابن الاثير ٢٥٩ ج ٤ (٢) ابن الاثير ٢٧٢ ج ٤

(٣) ابن الاثير ٤٦ ج ١٠ (٤) ابن الاثير ٢٢٧ ج ٩

والغلمان مما ينقل نقله فكثيراً ما كانوا يبيعونهم بالعشرات رغبة في السرعة كما فعلوا في واقعة عمورية سنة ٢٢٣ هـ اذ نادوا على الرقيق خمسة خمسة او عشرة عشرة . وربما بلغ ثمن الانسان بضعة دراهم — ذكروا ان غنائم المسلمين في واقعة الارك بالاندلس سنة ٥٩١ هـ بيع الاسير فيها بدرهم والسيف بنصف درهم^(١) والبعير بخمسة دراهم وقد يقضون عدة اشهر وهم يبيعون الاسرى والغنائم

تلك امثلة من اسباب تكاثر الرقيق عند المسلمين غير ما كان يرسله بعض العمال الى بلاط الخلفاء من الرقيق وظيفه كل سنة من تركستان^(٢) وبلاد البربر وغيرها
معاملة الاسرى

كانوا في صدر الاسلام اذا ظفروا بغنيمة تولى الامر برقسمتها على القواد بعد ارسال الخمس الى بيت المال ثم اختلف ذلك مع الزمان باختلاف الدول . ففي الدولة الفاطمية بصركا كانوا اذا عاد الجند من حرب ومعين الاسرى يصل الاسطول بالنيل الى شاطئ القاهرة فينزلون الاسرى ويطوفون بهم القاهرة ثم ينزلونهم في مكان كانوا يسمونه المناخ (في جهة السماعيلية اليوم) كان مستودعاً للاسرى المذكور فينظرون فيهم فاذا استرابوا في احد قتلوه ومن كان شيخاً لا ينفع ضربوا عنقه وألقوا بجثته في بئر كانت في خرائب مصر تعرف ببئر المنسامة . ومن بقي يضاف الرجال منهم الى من في المناخ ويمضى بالنساء والاطفال الى قصر الخليفة بعد ما يعطى الوزير منهم طائفة ويفرق الباقي لخدمة المنازل . ويدفع الصغار من الاسرى الى الاستاذين فيربونهم ويعلمونهم الكتابة والرماية ويسمونهم اذذاك « الترابي » وقد يرتقي اولئك الصبيان الى رتب الامراء^(٣)

ولم يكن استخدام الاسرى على هذه الصورة خاصاً بالمسلمين بل هي عادة كانت مربية في تلك العصر فمن يقع من المسلمين في ايد اعدائهم كان حظهم الاسترقاق حتى ينتدبهم المسلمون وكان للغناء عناية في فكك الاسرى يبدلون في سبيله المال او يعطون اسرى عندهم على سبيل المبادلة . واشهر ما وقع من الفداء بين المسلمين والروم لان الحرب كانت سجلاً بينهما في البر والبحر يأسرون بعضهم بعضاً فاحتاج الخلفاء الى الفداء . وكان الامويون ينتدبون اسراهم احياناً وعلى قدر الضر بعد الضر في سواحل الشام والاسكندرية وملطية وسائر الثغور على الحدود — واول فداء منظم وقع في ايام بني العباس على يد الرشيد سنة ١٨٩ هـ وتولى

(١) فتح الطيب ٢٠٩ ج ١ (٢) المقرئزي ٣١٣ ج ١

(٣) المقرئزي ١٩٣ ج ٢ و ٤٨٩ ج ١

الفداء بعده بضع عشرة مرة في اثناء ١٥٠ سنة . وتزايدت عناية المسلمين في فكك اسراهم حتى اصبح اهل الورع من الاغنياء يققون المال على فككهم^(١)
اما الروم فقلما كانوا يفتدون اسراهم بالمال ولعل السبب في ذلك ان اولئك الاسرى يكونون في الغالب لقيفاً من رعاياهم او اجناداً من الغرباء المأجورين وليس من الروم انفسهم اما المسلمون فهم غالباً المهاجرون فاذا ظفروا كانت غنائمهم من ذلك اللقيف واذا غلبوا فمن وقع في الاسر منهم كان من المحاربين الذين يستحقون الفداء والرابطة القومية بين المسلمين يومئذٍ اشد وثوقاً منها بين الروم ورعاياهم واجنادهم . على ان المسلمين كثيراً ما كانوا يابون المال بدل الاسرى ولا سيما في الدولة الفاطمية ولا يعرف عن هذه الدولة انها فادت اسيراً من الافرنج ببال ولا بأسير مثله فكان ذلك من جملة البواعث على زيادة الارقاء عند المسلمين

فهل يستغرب بعد ذلك اذا استكثر المسلمون من العبيد والماليك فيبلغ عددهم عند بعضهم عشرة او مئة او الف . حتى الفقراء من عامة الجند كان احدهم لا يخلو من عبد او بضة عبيد يخدمونه^(٢) وكان للفارس في عصر الايوبيين عشرة اتباع يخدمونه او بضع عشرات الى مئة^(٣) فكيف بالامراء والقوادح في صدر الاسلام فان الخليفة عثمان كان له الف مملوك مع علمك بزهد الراشدين قبله^(٤) فاعتبر كم يكون عددهم في ايام الثروة والترف فقد كان الامير في الدولة الاموية اذا سار مشى في ركابه مئة عبد او بضع مئات او الف عبد^(٥) وبلغ عدد غلمان رافع بن هرثة والي خراسان سنة ٢٧٩ هـ ٤٠٠٠ عبد ولم يملك احد من ولاة خراسان قبله مثله

اصناف الارقاء

وكانوا اذا تكاثرت الارقاء عند احدهم واراد استخداهم في منزله جعل عليهم تقبياً يتولى النظر في شؤونهم يسمونه الاستاذ . على ان الغالب في الغلمان اذا كثروا عند امير ان يتخذهم جنداً يجرسونه فيعلمهم الحرب والقتال . فقد كان عند الاخشيذ صاحب مصر ٨٠٠٠ مملوك يجرسه في كل ليلة الفان . واكثر فرق الجند عند الامراء من غلمانهم واصلمهم من السبي والاسرى او يبتاعونهم بالمال لهذه الغاية كما تقدم في كلامنا عن فرق الجند وربما بلغ ثمن المملوك الف دينار

(١) المقرئ ٧٩ و ١٩١ ج ٢ (٢) المسعودي ٢٢ ج ٢ (٣) المقرئ ٩٥ ج ١

(٤) الديميري ٤٩ ج ١ (٥) ابن الاثير ١٤٧ ج ٤ والاغانى ٣٧ ج ١

اما الباقون من الارقاء للخدمة في البيوت فيعطونهم الصنائع اللازمة لتدبير المنزل فمنهم الفراس والطباخ والحازن والوكيل او النقيب والبواب والملاح والركابي وغيرهم^(١) ومنهم الوصيف والمملوك وفيهم الرومي والتركي والفارسي والبربري والزنجي والصقلي بين مجلوب ومولد من الذكور والاناث مما لا يحصى

واذا زادوا عما يحتاجون اليه في الخدمة او الحراسة او الحماية اتخذوا الغلمان منهم زينة لمجالسهم وكان يفعل ذلك اهل السعة واليسار ولا سيما الخلفاء فانهم تأفقوا في تزيينهم بانواع الالبسة المزخرفة مما لم يسبق له مثيل وأول من اقدم على ذلك الامين بن الرشيد فانه بالغ في طلب الغلمان ولا سيما الخصيان وابتاعهم وغالى فيهم وصيرهم خلوته وزينهم مثل زينة الجواري . ثم صار الاستكثار من الغلمان سنة عند الخلفاء فكان عند المتندر بالله ١١٠٠٠ غلام او مملوك وفيهم البيض والسود . فالبيض من الفرس والديلم والترک والطبرية وغيرهم والسود من النوبة والزغاوة يجلبونهم من مصر ومكة وافريقية . والزنج صلهم من رجال صاحب الزنج الذي ثار بالبصرة وهم غتم فتح يأكلون لحوم الناس والبهائم لميته وقد عوقبوا على ذلك فلم يرجعوا وكانوا منفردين لا يختلطون بالبيض ولكل طائفة وبة في خدمة الخليفة بين حراسة وغيرها^(٢)

٢ - الخصيان

الخصاء عادة شرقية كانت شائعة قديماً بين الاشوريين والبابليين والمصريين القدماء وأخذها عنهم اليونانيون ثم انتقلت الى الرومان فالافرنج . ويقال ان اول من استنبطها سميراميس مملكة اشور نحو سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد — وكان المظنون ان الخصاء يذهب بقوة الرجولية وفي التاريخ جماعة من الخصيان اشتهروا بالشجاعة والسياسة وتولوا مناصب مهمة في أزمنة مختلفة منهم نارسس القائد الروماني الشهير في عهد يوستنيان في القرن السادس للميلاد وهرمياس حاكم اتارنية في ميسيا الشهير الذي قدم الفيلسوف ارستو ذبيحة عن روحه غير ما ذكره فيه من القصائد . ومن اشتهر من الخصيان في الاسلام كافور الاخشيدي صاحب مصر . واشتهر منهم في الهند وفارس والصين جماعات كبيرة واستبد الخصيان في أواخر الدولة الرومانية استبداداً كبيراً

وللخصاء اغراض اشهرها استخدام الخصيان في دور النساء غيرة عليهن . فلما ظهر الاسلام وغلب الحجاب على اهلهم استخدموا الخصيان في دورهم واول من فعل ذلك يزيد بن معاوية فاتخذ منهم حاجباً لديوانه اسمه فتح واقتدى به غيره فشاع استخدامهم عند المسلمين مع ان الشريعة الاسلامية أميل الى تحريمه على ما يؤخذ من حديث رواه ابن مظمون

وكانت تجارة الرقيق شائعة في أوروبا قبل الاسلام . ومن اسباب رواجها ان قبائل السلاف (الروسين) نزلوا في اوائل ادوارهم شمالي البحر الاسود ونهر الطونة ثم أخذوا ينزحون غرباً جنوباً نحو أواسط أوروبا وهم قبائل عديدة عرفت بدئذ بقبائل السلاف (او السكلاف) والسرب والبوهيم والدملات وغيرهم . فاضطروا وهم نازحون ان يحاربوا الشعوب الذين في طريقهم كالسكسون والهون وغيرهم . وكان من عادات أهل تلك العصور ان يبيعوا اسراهم بيع الرقيق كما تقدم فتألف لذلك جماعات كبيرة من التجار يحملون الاسرى عن طريق فرنسا فاسبانيا الى افريقية ومنها الى الشام ومصر . فلما وقعت هذه البلاد في ايدي المسلمين راجت تلك التجارة

فكان التجار من الافرنج وغيرهم يتعاونون الاسرى من السلاف والجرمان من جهات المانيا عند ضفاف الرين والالب وغيرها الى ضفاف الدانوب وشواطئ البحر الاسود — ولا يزال اهل جورجيا والجرس الى اليوم يبيعون اولادهم بيع السلع — فاذا عاد التجار من تلك الرحلة ساقوا الارقاء امامهم سوق الاغنام وكلهم بيض البشرة على جانب عظيم من الجمال وفيهم الذكور والاناث حتى يحطوا رحالهم في فرنسا ومنها ينقلونهم الى اسبانيا (الاندلس) فكان المسلمون يتعاونون الذكور لخدمة او الحرب والاناث للتسريح . وغلب على اولئك الارقاء انتسابهم الى قبيلة السلاف وكانت تلفظ عندهم « سكلاف » فمر بها العرب « صقلي » واصبح هذا اللفظ عندهم بدل على الرقيق الابيض بالاجال . وكثيراً ما يرد لفظ الصقالبة في تاريخ الاسلام ويراد به الارقاء من قبائل السلاف والجرمان — وفعل الافرنج نحو ذلك ايضاً فاستخدموا هذه الالفاظ لنفس هذا المعنى ومنها (Esclave) في الفرنسية و (Sklave) في الجرمانية و (Slave) في الانكليزية

ولما شاع الحجاب بين المسلمين في ابان سلطنتهم واستخدموا الخصيان في دورهم عمد تجار الرقيق واكثرهم من اليهود الى خصاء بعض الارقاء وبيعهم بثمان غالية فراجت

تلك البضاعة وكثر المشتغلون بها وانشأوا « لاصطناع » الحصان معامل عديدة أشهرها « معمل » الحصان في فردون بمقاطعة اللورين في فرنسا . كانوا يخصون أولئك المساكين وهم اطفال فيموت كثيرون منهم على اثر العملية فن بقي حياً ارسلوه الى اسبانيا فيشتريه الكبراء بثمن كبير . واصبحوا بتوالي الازمان يتهادون الحصان كما يتهادون الخيل او الآثاء او الآنية فكان ملوك الافرنج اذا ارادوا التقرب من خليفة المسلمين في الاندلس او غيرها اهدوه التحف ومن جعلها الحصان كما فعل ملكا برشلونه وطركونة لما طلبا تجديد الصلح من المستنصر خليفة الاندلس فانهما اهدياه ٢٠ خصياً من الصبيان الصقالبة و ٢٠ قطاراً من صوف السمور . الخ . فتكاثر الحصان في بلاط الخلفاء حتى تألفت منهم فرق لحراسة الحاصه كما تألفت الفرق من سائر الممالك والعبيد . فاذا احتفل الخليفة ببيعة أو نحوها كان الممالك والحصان زينة ذلك الاحتفال

وراجت تجارة الصقالبة في ابان التمدن الاسلامي وكل ما كان يفسد على المملكة الاسلامية منهم يستجلب من الاندلس لانهم كانوا يخصون بالقرب منها . غير ما يحملونه من الصقالبة من جهات خراسان مما يسببه الخراسانيون ويحملونه للبيع . لان بلد الصقالبة طويل يسببه الافرنج من الغرب والخراسانيون من الشرق ^(١)

٣ - الجواري

تكاثرهن

للجواري شأن كبير في تاريخ التمدن الاسلامي لا يقل عن شأن العبيد والموالي . واصل الجواري مايسببه الفاتحون في الحرب من النساء والبنات فهن ملك الفاتحين ولو كن من بنات الملوك او الدهاقين يستخدمونهن او يستولدونهن او يتصرفون في بيعهن تصرف الممالك بملكه ^(٢) ولما افضت احوال المسلمين الى الترف والقصص وتدفقت الاموال من خزائن الخلفاء والامراء جعلوا يتهادونهن كما يتهادون الحلي والجواهر . فن احب التقرب من كبير اهدى اليه جارية اتقنت صناعة يعلم انه راغب فيها — فاذا علم مثلاً انه يحب الجمال اهداه وصيفة جميلة او علم منه ميلاً الى الغناء اهدى اليه قينة رخيمة الصوت . وقد يهديه عدة جوار اتقن عدة صنائع وربما صارت احداهن بعد حين ام ذلك المنزل وصاحبة

الامر فيه اذا استولدها سيدها • واذا كانت في دار خليفة لا يبعد ان تصير من امهات الخلفاء كما اتفق لاكثر خلفاء بني العباس — ذكروا ان جارية اسمها دنانير صفراء صادقة الملاحاة كانت اروي الناس للفناء القديم وقد خرجها رجل من اهل المدينة فاشتراها جعفر البرمكي وسمع الرشيد صوتها فالفها وصار يسير الى جعفر لسماع غنائها ووهب لها هبات سنينة • وعلمت امرأتها زيدة بخبرها فشكته الى عمومته فلم ينجحوا في ارجاعه فرأت ان تشغله عنها بالجواري فاهدت اليه عشر جوار منهم مارية ام المعتصم ومراحل ام المأمون وفاردة ام صالح^(١)

وكثيراً ما كان العمال والامراء يتقربون الى الخلفاء بامثال هذه الهدايا فاهدى ابن طاهر الى الخليفة المتوكل هدية فيها ٢٠٠ وصيفة ووصيف^(٢) فلا غرو اذا تكاثرت في قصور الخلفاء والامراء واهل الوجاهة • وليس الاستكثار منهم حادثاً في الاسلام وانما هو من بقايا التمدن القديم فقد كان ملوك الفرس والروم يتهادونهم وبلغت عدتهم عند بعض الاكاسرة ٦,٠٠٠ جارية^(٣) وكان لجماعة من بني العباس الف جارية وسيأتي بسط ذلك في مكان آخر

اصناف الجواري

فلما تعود الناس افناء الجواري اشتغل النخاسون في استعجالهم من اقصى بلاد الترك والهند والكرج والخطا وارمينيا والروم والبربر والنوبة والزنج والحبشة صفاراً وكباراً يربونهم على ما تقتضيه مواهبهم او جمالهم فينبغ منهم الخدم والحواضن والمواشط والولائد والمغنيات والعودات والعالمات وامهات الدهاء والسياسة وغير ذلك • وفيهن البيضا والسمراء والحمراء والبربرية والزنجية بين مولدة في البصرة او الكوفة او بغداد ممن يفصحن العربية ومجولية من ارضها او سبية اخيذة على حالها تتكلم التركية او الفارسية او الرومية او الهندية او البربرية ولا تزال ولو تعربت اعجمية اللسان • والمولدة اثنان من الجليلة وتختلف اثمانهم باختلاف الصناعة او الجمال وباختلاف الغرض من ابتاعهم للتوليد او الفناء او الخدمة • وفي الجلليات النصرانية واليهودية والمجوسية لكل منهم شأنها في دينها حتى يعيدن اعيادهم بما يستلزمه العيد من الزينة الدينية كالصلبان والاحجية ونحوها — ذكر احمد بن صدقة انه دخل على المأمون في يوم الشعانين وبين يديه عشرون وصيفة جلبا روميات مزنات قد

(١) الاغانى ١٣٧ ج ١٦ (٢) المسعودي ٢٨٠ ج ٢

(٣) المسعودي ١١٥ ج ١ وترتيب الدول ١١١

تزين^(١) بالديباج الرومي وعلقن في اعناقهن صلبان الذهب وفي ايديهن الخوص والزيتون^(٢) على انهم كانوا يخصصون كل صنف من الجواري بصفات خاصة وقد صنّفوا كتباً في هذا الموضوع يبينوا فيها الصفات المستحسنة في كل صنف منهم وخلاصة ذلك قولهم : من اراد النجاة فبنات فارس ومن اراد الخدمة فبنات قيصر ومن اراد غير ذلك فبنات بربر والمولدات والزنجيات للزمر والجشيات للحفظ وخزن المال والنوبة للطبخ والارمن للتربية والرضاع . ومن اقوالهم الوجوه في الترك والاجسام في الروم والشعور في الخطا وفارس والعيون في الحجاز والخصور في اليمن^(٣) وقالوا في وصف المولدات بالبصرة والكوفة انهن ذوات اللسان العذبة والقُدود المتهففة والايواسط المخصرة والاصداغ المزرفنة والعيون المكحلة^(٤) مما يطول شرحه . وكانت تجارة الجواري على اروجها في بغداد فكانوا يحملون اليها اجمالهن خلقاً واذ كاهن^(٥) عقلاً لما يتوقعونه من بيعهن بالاثمان الباهظة

تعليم الجواري

وكان تعليم الجواري وتربيتهن من ابواب الكسب الواسعة في ذلك العصر فيذهب احدهم الى دار الرقيق يتتاع جارية يتوسم فيها الذكاء فيثقها ويرويهما الاشعار او يلقنها الغناء او يحفظها القرآن او يعلمها الادب او النحو او العروض او فناً من فنون المنازل ثم يبيعها . وكان يفعل ذلك على الخصوص المغنون المشهورون بدقة الصناعة كابراهيم الموصلبي وابنه اسحق فربما ابتاع احدهم الجارية بمئة دينار فاذا علمها وثقها باعها بمئتمائة او الف دينار^(٦) واشهر المغنيات في المدينة والبصرة وبغداد تعلن على هذه الصورة . وقد يربي بعضهم الجارية ويهديها الى الخليفة او الوزير لتكون وسيلة له في نفوذ الكلمة عنده . وقد تنبغ احدها في فن من الفنون الجميلة كالغناء او الشعر او الادب فتباع بالف الدنانير^(٧) . فكيف اذا انقنت غير فن منها . وربما نبغت منهم من تجيد الشعر والغناء او فنون الادب وال اخبار فيقصدها اهل الادب وذوو المرواة للذاكرة والمساجلة في الشعر وغيره وقد ينبغن في حفظ القرآن حتى كان منهم^(٨) عند ام جعفر مئة جارية لكل واحدة ورد عشر القرآن وكان يسمع في قصرها كدوي النحل من القراءة^(٩)

(١) الاغانى ١٣٨ ج ١٩ (٢) ترتيب الدول ١١٢ (٣) المسعودي ١٥٤ ج ٢

(٤) الاغانى ١٥٤ ج ٨ (٥) الجزء الثاني من هذا الكتاب صفحة ١٣٦

(٦) ابن خلكان ١٩٠ ج ١

فتعدّد الجواري في دور الكبراء وتسابق اهل الترف الى التفنن في تزيينهن . واشهر من فعل ذلك ام جعفر المذكورة فانها لما رأت ابنها يغالي في تحنّث الخلمان والباسهم ملابس النساء اتخذت طائفة من الجواري سمّتهنّ المقدودات عممت رؤوسهن وجعلت لهن الطرر والاصداغ والافقية والبستين الاقبية والقراطق والمناطق كانهن من الخلمان واقتدى بها وجيهات قومها فاتخذن الجواري الغلاميات او المغمومات والبسوهن الاقبية والمناطق الذهب^(١)

نفوذ الجواري

وطبيعي في ربات الحسن ان يكنّ نافذات الكلمة لان الجمال قوة والحب سلاح ولذلك كان ارباب الدماء من الخلفاء والامراء يتباعدون عن الجواري اذا اهدي الى احدهم جارية لم ياتفت اليها ولا سيما مؤسسي الدول كمعاوية والمنصور وعبدالرحمن الداخل . فاشتهر المنصور بكرهه للهنس وكان عبد الرحمن اذا اهداه احد جارية ردّها^(٢) وعكس ذلك خلفاء اواسط الدولة ابان الترف والقصص والرخاء فانهم كانوا يتدّون في حب الجواري حتى يتسلطن على عقولهم كما فعلت حبابه بيزيد بن عبد الملك الاموي حتى كادت تذهب بعقله وشغلته عن مهام الخلافة . وكما فعلت ذات الخال بالرشيد فانها ملكت قيادته حتى حلف يوماً انها لا تسأل شيئاً في ذلك اليوم الاّ قضاء لها فساداً له ان يولي حمويه الحرب والخراج بفارس سبع سنين ففعل وكتب له عهده به وشرط على ولي عهده بعده ان يتّمتها له ان لم تتم في حياته^(٣) كثيراً ما كان الخلفاء والامراء يشتغلون بالجواري عن رعاية الملك ولا سيما المغنيات ولذلك كان رجال الحيلة يستخدمونهن للجاسوسية او نيل رتبة أو منصب وكان المأمون يدس الوصائف هدية ليطلعنه على اخبار من شاء^(٤) ويزداد الجواري نفوذاً وسطوة اذا صرن أمهات كما صارت الخيزران وغيرها من أمهات الخلفاء — راجع الجزء الثاني والرابع من هذا الكتاب وسيأتي الكلام على المغنيات في باب المغنين .

(١) المسعودي ٣٦٦ ج ٢ (٢) نفح الطيب ٧٠٩ ج ٢ (٣) الاغانى ٨٠ ج ١٥

(٤) العقد الفريد ١٤٨ ج ١

طبقات العامة

فرغنا من طبقات الخاصة واتباعهم ونحن متكلمون عن العامة وهم اكثر عدداً وابعد عن الحصر لانهم لفيث من امم شتى ولا سيما في بغداد في ابان عمارتها وقد نقاطر اليها المرتزقون والمحقرون والمستجدون من اطراف المملكة الاسلامية بين صانع وبائع وفيهم العربي والنبطي والفارسي والخراساني والتركي والسندي والرومي والكرجي والارمني والكردي والقبطي والبربري والنوبي والزنجي والاندلسي وغيرهم . وفيهم اهل الحرف الراقية والسافلة وتجار السلع والافشة والجواهر والرقيق وباعة الطعام والشراب فضلاً عن الادباء والشعراء والحكماء والمغنين والندماء مما يطول شرحه ويعسر حصره . على اننا تسهيلاً للبحث نقسم العامة على الاجمال الى طبقتين كبيرتين الأولى طبقة المقربين من الخاصة والثانية طبقة الباعة واهل الحرف والرعاغ وغيرهم

الطبقة الأولى

المقربون من الخاصة

نريد بهذه الطبقة نخبة العامة الذين تسمو بهم نفوسهم اوعقولهم الى التقرب من الخاصة بما يعجبهم او يطربهم فيستظلون بهم ويعيشون من عطاياهم او روايتهم او يرتزقون من بيع سلمهم عليهم وهم اربع فئات اهل الفنون الجميلة والادباء والتجار والصناع

١ - اهل الفنون الجميلة

المصورون

الفنون الجميلة ويسمى العرب « الآداب الرفيعة » ثلاثة التصوير والشعر والموسيقى . فالتصوير لم يكن له شأن كبير في التمدن الاسلامي لورود القول بتحريمه وانما كانوا يصورون ما يصورونه في الدولة الاموية والعباسية يقلدون به ما بين ايديهم من تصوير الروم والفرس او ما جاء به السلاجقة من صناعة المغول من اواسط تركستان . على ان التصوير ازهر وارتقى في بلاد فارس بعد اجتماع كلمة الفرس تحت سيطرة المغول على اثر فتح هولاء في بغداد سنة ٦٥٦ هـ فان تلك الصناعة اخذت بالارتقاء من ذلك الحين

لان المغول المشار اليهم اتوا معهم بهندسين من اهل الصين تولوا هندسة حصار بغداد ومعهم جماعة من ارباب الفنون الجميلة والرياضيات والصناعات الدقيقة فاستفاد الفرس منهم واقتنوا هذه الفنون وفي جملتها التصوير ونشروه في سائر ممالك المسلمين وزينوا به كتبهم وجدران قصورهم ومسوحاتهم في بلاد فارس ومصر وتركستان وغيرها ^(١) وفي دور الكتب الكبرى في مدائن العالم المتمدن اليوم امثلة من هذه الصور ملونة تلويناً بديعاً اكثرها تمثل حوادث بعض كتب التاريخ او الادب او العلم . وبعضها تمثل رسوماً خيالية كصورة المعراج ونحوها . وفي دار الكتب الخديوية بالقاهرة صور ملونة هي عبارة عن اشكال زينوا بها كتاب الشاهنامه للفردوسي وعجائب المخلوقات للقزويني وغيرها . اما في ابان التمدن الاسلامي فلم يكن لاهل هذه الصناعة سوق عند الخاصة الا من اشتغل منهم بهندسة الابنية ولا سيما في الاندلس

واما الشعر والموسيقى فقد راجا وثقرب اصحابهما من الخلفاء وسائر طبقات الخاصة واكتسبوا بها الاموال الطائلة . وقد بينا في الجزء الثالث من هذا الكتاب ما هو الشعر العربي وما اصله وما كان شأنه في الجاهلية وما آل اليه بعد الاسلام من عصر الراشدين فالامويين فالعباسيين وسائر دول الاسلام وعن جمع الشعر ورواته وطبقات الشعراء في الاسلام واشعارهم والشعر تأثيره في الدولة والشعر والخلفاء والامراء وغير ذلك - وسيا في الكلام عما كان الشعراء يصيدونه من الاموال - بقي علينا النظر في الموسيقى واهلها وهم المغنون

٢ - المغنون

الفناء قبل الاسلام

الفناء طبيعي في الامم لانه لغة النفوس وترجمان العواطف وكل امة غناؤها يناسب طبائعها وعاداتها فالعرب الجاهلية كانوا اهل ماشية وانعام وخيام فلم ينتهوا الى شيء من الفنون الجميلة غير الشعر . وكانوا يلجئون به ويطربون بتلاوته بلا ترنيم ولا غناء وتلك اول خطوة خطوها نحو الموسيقى لانها بنت الشعر او اخنه

ثم ظهر فيهم « الحداة » وهو غناء يتغناه الحداة في سوق ابلهم والفتيان في فضاء خلواتهم ثم عمدوا الى « الترنيمة » . وكان ترنيمة على نوعين « الغناء » وهو ترنيمة الشعر

و«التغبير» (بالغين والباء) وهو ترنيم القراءة لغير الشعر
ثم تنوع الغناء عندهم حتى صار على ثلاثة اوجه او ثلاثة الحان او اصوات وهي النصب
والسناد والمزج . « فالنصب » يريدون به غناء الركبان وغناء الفتيان وهو الذي يقال في
المراثي ويسمى « الغناء الجنباني » نسبة الى رجل من قبيلة كلب اسمه جناب بن عبد الله
يزعمون ان اصل الخداء منه وهو يخرج من الطوبل في العروض . و« السناد »
الحن الثقيل ذو الترجيع الكثير النغمات والنبرات . وهو على ستة طرق منها الثقيل الاول
وخفيفه والثقل الثاني وخفيفه . واما « المزج » فهو الخفيف الذي يرقص عليه ويمشى
بالدف والمزمار فيطرب ويستخف الحلوم . وشاع الغناء قبل الاسلام في امهات المدن من
بلاد العرب وهي المدينة والطائف وخيبر^(١)

اما آلات الموسيقى عندهم فاشهرها الدف وهو اشكال منها المستدير والمربع والكبير
والصغير . والمزمار على ابسط انواعه . ولا يظهر انهم كانوا يعرفون غير الدف والمزمار
وما يتفرع عنهما من آلات النفخ والقرع . واما آلات الاوتار كالعيدان والطناوير والمعازف
ونحوها فهي من صناعة الفرس والروم لم يعرفها العرب الا بعد الاسلام
الغناء في الاسلام

فلما جاء الاسلام واستولى العرب على ممالك الدنيا وحازوا سلطان الهجم والروم كانوا
في عصر الراشدين لا يزالون على بداوتهم مع غضارة الدين وشدة مما يدعو الى ترك احوال
الفراغ وما ليس نافعا في دين ولا معاش حتى تركوا ما كان عندهم من انغام الجاهلية ولم يكن
المللوز عندهم الا ترجيع القراءة والترنم بالشعر . فلما جاءهم الترف في ايام بني امية ومن بعدهم
وغلب عليهم الرفه بما حصل لهم من غنائم الامم صاروا الى نضارة العيش ورقة الحاشية
واستحلاء الفراغ . وكان المغنون من الروم والفرس قد دخلوا في سلطان العرب وحمل بعضهم
الى الحجاز في جملة الاسرى والسبايا فاصبحوا من موالي العرب وقد حملوا معهم العيدان
والطناوير والمعازف والمزامير فغنوا بها فاعجبوا بالحنانهم فاشتغل المغنون واكثرهم من الموالي
في تلحين اشعار العرب على الالحان الفارسية او الرومية فنبت في المدينة في ايام بني امية
طائفة من المغنين . والمشهور ان اول من ادخل غناء الفرس الى العربية سعيد بن مسجع وهو
مكي اسود كان في مكة لما حاصرها الامويون وفيها ابن الزبير في اواخر القرن الاول للهجرة
فاسبقهم ابن الزبير بعض البنائين من الفرس لترميم الكعبة فسمعهم سعيد بن مسجع يغنون

بالفارسية فالنقط النغم وغناه بالعربية فاعجب الناس كثيراً فسافر الى الشام وفارس فانقن فن الغناء وعنه اخذ من جاء بعده من مغني المدينة وغيرها . وشاع الغناء في المملكة الاسلامية وراجت بضاعته باتساع اسباب الحضارة والرخاء وتكاثر المغنون لما شاهده من رغبة الخاصة بالغناء فنبغ جماعة من مهرة الموسيقيين انقنوا هذه الصناعة وآلتها انقائاً حسناً على ما بيناه في الجزء الثالث من هذا الكتاب صفحة ١٩٧ وانما يهمننا الآن النظر في تاريخ انتشار المغنين في الاسلام وما كان من منزلته ومنزلتهم

الغناء والدين

كان الغناء في صدر الاسلام مكروهاً ان لم نقل محرماً واختلف الائمة في تحريمه وتحليله كله او بعضه . ويقال بالاجمال ان اهل الحجاز اجازوه واهل العراق كرهوه وحجة من احلّه ان اصله الشعر الذي امر النبي به وحضّ عليه وندب اصحابه اليه وتجنّد به على المشركين فقال لحسان شاعره « شن الغارة على بني عبد مناف فوالله اشرك عليهم من وقع السهام في غلس الظلام » واكثر شعر حساس يغنى به . وحجة من حرّمه انه يسر القلوب ويستفز العقول ويستخف الحليم ويبعث على اللهو ويحض على الطرب وهو باطل من اصله ^(١) وحلل آخرون بعض الغناء وحرّموا بعضه ولكن اهل الثعقل والنقوى كانوا يكرهونه في كل حال ولذلك لم يظهر الا بعد عصر الراشدين . وكان معاوية بن ابي سفيان يعيب على الراغبين في الغناء ولا سيما اهل الوجاهة والشرف وله مع عبد الله بن جعفر حكاية تدلّ على ما عابه عليه من استماع الغناء ^(٢) وان سرّه اشتغال هذا وسواه من اهل النبي باللهو والطرب عن مقاومته في طلب الخلافة — بل هو كان يبذل لهم الاموال في هذا السبيل

ولما تولى الخلافة اصحاب اللهو والقصف اخذ الغناء في الانتشار واول من اباحه ونشط اهله يزيد بن معاوية ففي ايام يزيد هذا (سنة ٦٠ — ٦٤ هـ) ظهر الغناء في مكة واستعملت الملاهي لانه كان صاحب لهو وطرب ^(٣) وتفشى الغناء الجديد في الحجاز ولا سيما المدينة . وما زال محصوراً فيها تقريباً حتى افضت الخلافة الى الوليد بن يزيد بن عبد الملك (سنة ١٢٥ — ١٢٦ هـ) وكان صاحب شراب ولهو مع تهنك وخلاعة فبعث الى

(١) العقد الفريد ١٧٨ ج ٣ (٢) العقد الفريد ١٨٢ ج ٣

(٣) المسعودي ٦٨ ج ٢

المدينة في اسنقدم المغنين اليه في دمشق^(١) فأخذ الغناء بالانتشار في بلاد الاسلام من ذلك الحين

مقاومة الخلفاء للغناء

على ان اهل التعقل من الخلفاء و الامراء كانوا لا ينفكون عن منعه جهد طاقتهم وكان العقلاء غير الحكماء يحرضون الولاة على منعه حتى في المدينة معدن الغناء في ذلك العصر^(٢) وكثيراً ما كان امير مكة يخرج المغنين من الحرم خوفاً من افئتن الناس بغنائهم^(٣) وصرهم عن امور دينهم ولم يكن اهل الغيرة على العرض يصبرون على سماعه ومن اقوالهم «المغنون رسل الغرام»

ذكروا ان سليمان بن عبد الملك وكان يكره الغناء سمع مغنياً في عسكره فطلبه فجأؤه به فقال «اعد ما غنيت» فتغنى واحتفل فقال سليمان «والله لكأنها جرجرة الفحل في الشول وما احسب اننى تسمع هذا الا صبت اليه» ثم امر به بنحسي^(٤)

وسليمان هو الذي امر بنحسي الخنثين في المدينة لمثل هذا السبب — قيل انه كان في بادية له يسهر ليلة على ظهر سطح وقد تفرق عنه جلساؤه فدعا بوضوء فجاءت به جارية فبينما هي تصب عليه لحظ ان ذهنها مشغول عنه بغناء تسمعه فجأه . وفي الصباح ذكر الغناء ولين فيه حتى ظن القوم انه يشتميه فأفاضوا فيه وذكروا من كان يسمعه ومن يغنيه حتى توصل الى الرجل الذي شغل الجارية بغناؤه في الامس . فلما تحقق ذلك اقبل على القوم وقال «هدر الجمل فضبت الناقة ونبت التيس فشكرت الشاة وهدر الحمام فراقت الحمامة وغنى الرجل فطربت المرأة» ثم امر به بنحسي وسأل عن الغناء اين اصله ف قيل «في المدينة بجماعة الخنثين وهم ائمتهم والخذاق فيه» فكتب الى عامله هناك «اخص من قبلك من الخنثين المغنين» بنحصاصهم^(٥)

على ان المتهمكين من الخلفاء والامراء لم ينكروا ما يجرئ اليه الغناء من اسباب اللهو قال الوليد بن يزيد الذي ذكرنا انه اول من اسنقدم المغنين اليه «اياكم والغناء فانه ينقص الحياء ويزيد في الشهوة ويهدم المروءة ويثور على الخمر ويفعل ما يفعل المسكر فان كنتم فاعلين فجنبوه النساء فان الغناء رقية الزنا واني لا أقول ذلك فيه على انه احب الي من كل

(١) العقد الزريد ٢٦٩ ج ٢ والمسنودي ١٣٣ ج ٢ (٢) العقد الفريد ١٩٦ ج ٣

(٣) الاغانى ١٣٠ ج ٢ (٤) الكامل للبرد ٣٧٧ (٥) الاغانى ٦١ ج ٤

لذة واشهى اليّ من الماء البارد الى ذي الغلة ولكن الحق احق ان يقال ^(١) « فكيف بالعقلاء واهل الحزم ومؤسسي الدول او معيديها مثل معاوية وهشام والمنصور وابي مسلم او اهل النقوي مثل عمر بن عبدالعزيز الاموي والمهتدي العباسي . فقد تقدم ما عابه معاوية على ابن جعفر . اما هشام فسمع عن اشعب المضحك في المدينة فامر كاتبه ان يكتب باستقداه فلما ختم الكتاب اطرق هشام طويلاً ثم قال « هشام يكتب الى بلد رسول الله ليجمل اليه مضحك ؟ » وتمثل

اذا انت طاولت الهوى قارك الهوى الى بئس ما فيه عليك . مقال ^(٢) واوقف الكتاب ^(٣) . واما المنصور فقد كان يعبر آل الزبير بجهنم الغناء ^(٤) وسمع ذات يوم ضرب طنبور في داره فكسره على صاحبه . اما عمر بن عبد العزيز فبلغه ان قاضياً من قضاته استخذه الطرب من الغناء فامر بعزله ^(٥) . والمهتدي العباسي كان يتشبه بعمر المذكور فلما تولى الخلافة سنة ٢٥٥ هـ كانت الملاحية قد انتشرت في الدولة العباسية فامر بمنع الغناء ^(٦) وربما امتنعوا عنه الى اجل ريثا يصفو لهم الزمان كما فعل المؤمن لما عاد من خراسان وقد همّه تأييد خلافته فبقي عشرين شهراً لا يسمع غناء ^(٧) وكذلك الامراء العقلاء مثل خالد القسري فانه امر صاحب شرطته بمنع الغناء من العراق ^(٨)

اشتغال الخلفاء بالتنا

ولكن ذلك لم يكن لينع تيار الترف من مجراه الطبيعي على ما اقتضته الحضارة في ذلك العهد . فالمسلمون لما تحضروا وأخلدوا الى السكينة والراحة عمدوا الى اسباب الرخاء وفي جملة الغناء والمرجع في ذلك الى الخلفاء والامراء لان الناس على دين ملوكهم ولا سيما في الحكم المطلق فاذا احب الخليفة الغناء احبه رجال دولته . فراجت بضاعته وكثر المغنون والمغنيات حتى اشتغل الخلفاء واهلهم به وتعلموا الضرب على آلاته واول من دونت صنعته به عمر بن عبد العزيز في ايام امارته على الحجاز ثم الوليد بن يزيد وله اصوات اشتهرت عندهم واشتغل جماعة من خلفاء بني العباس بصناعة الاحسان والتلحين اشتهرهم الواثق والمنتصر والمعتز والمعتد والمعتض . اما ابناء الخلفاء فأول من دونت صنعته فيه ابراهيم بن المهدي واخوه علي بن المهدي وابو عيسى بن الرشيد وعبد الله بن موسى الهادي وعبد

(١) الاغانى ١٣٤ ج ٦ (٢) المسعودي ١٣١ ج ٢ (٣) الاغانى ١٥٠ ج ١٣

(٤) المسعودي ١٢٢ ج ٢ (٥) فوات الوفيات ٢٧١ ج ٢

(٦) الاغانى ١٠٦ ج ٥ (٧) الاغانى ١٢٣ ج ٢ و ٦٣ ج ١٩

الله بن محمد الامين وابو عيسى بن المتوكل وعبد الله بن المعتز وغيرهم . فقس على ذلك ما كان في زمن بني امية ولا سيما في عصر الانحطاط حتى كانوا يحملون المغنين والآنهم في اسفارهم ولوا الى القتال فقد وجدوا في معسكرهم لما ظفر به العباسيون بنواحي اصبهان سنة ١٣١ هـ ما لا يحصى من البرابط والطناير والمزامير ^(١)

فالفناء المطرب من جملة ما اقتبسه المسلمون من البلاد التي فتحوها فاشتغلوا بنقل كتب الموسيقى من الفارسية والهندية ^(٢) وحملهم الترف على سماعه والولوع به فتقرب به اليهم جماعة من العامة صار لهم مقام رفيع بين الجلساء — وسنعود الى ذكرهم

٣ — العلماء والادباء والفقهاء

هم طائفة من العامة تقربوا الى الخلفاء بما يلذ لهم من سماع الاخبار والنوادر او النظر في علوم تلك الايام الدينية او اللسانية او الادبية او التاريخية . ويدخل في ذلك الفقهاء والمحدثون والنحاة والادباء من اصحاب الاخبار كلاصمعي وابي عبيدة والكسائي والفراء وغيرهم وكان للخلفاء رغبة في تجالسهم وسماع ابحاثهم فكانوا يقربونهم ويعظمون شأنهم ويجيزونهم ويفرضون لهم الاعطية والرواتب على ما سنبينه في باب ابهة الدولة . وقد تكلمنا عن الفقهاء ومنزلتهم في اماكن كثيرة من هذا الكتاب

واقندى بالخلفاء وزراؤهم وامراؤهم كابر امكة وآل الفرات فانهم اغدقوا الاموال على هؤلاء فنشطوا العلم واهله ريثما صار العلم صناعة يرتزق بها اصحابها من الناس . ويدخل في ما تقدم المترجمون من غير المسلمين وفيهم السريان والروم والفرس وغيرهم ممن نقل العلوم القديمة الى اللغة العربية في العصر العباسي فانهم فئة من اهل الذمة قربهم الخلفاء واکرموهم من اجل علمهم على ما فصلناه في الجزء الثالث من هذا الكتاب

٤ — التجار

نريد بالتجار باعة السلع الثمينة التي تقتضيها الحضارة كالجواهر والمصوغات والرياش الثمين والثياب الفاخرة والانية والرفيق . واكثر ارتزاقهم من الخليفة واهله واهل دولته وسائر الخاصة من جلسائه واعوانه . وكانوا يقيمون في بغداد والبصرة وغيرها من المدن

الاسلامية واكثرهم من جالية الفرس والروم وغيرهم من الامم الراقية . كانوا يحملون الى دار السلام اصناف التجارة للاتزاق مما يتدفق من خزائن الدولة في عصر الثروة فكانوا يحملون الباقوت والماس من بلاد الهند واللؤلؤ من البحرين والعقيق والعاج من الحبشة . والادهان والزيوت العطرية من نيسابور ونسيج السكتان من شينيز . وطراز الوشي والثياب المنسوجة من الشعر التي يصنع منها ثياب مثقالية بلبسها الخليفة ورجال الدولة والكلال المرتفعة والستور المعلمة من القز — هذه كلها من فسا . والبسط والنخناخ والمصليات والزلالي من جهرم . والستور والمقاعد من دشت . واحسن اصناف البسط والتكك الرفيعة والوسائد والانماط والمقاعد من ارمينية . وكان لهم صبغ من القرمز يصبغون به الصوف لا مثيل له . والعنابي والشوي وسائر ثياب الحرير من اصفهان . والثياب المنيرة من الري . والابريسم ومطارف القز وطباق الخشب من طبرستان ونيسابور . والسهور الاسود وجلود الخنز وجلود الثعالب السود من بلاد الروس . والبز من بلخ . والكاغد والنوشادر والاوزبار والسمور والسنجاب والثعالب من وراء النهر وكذلك المسك ولكن اصله من بلاد التبت . والبسط والمصليات وثياب الصوف من بخارا . والديبقي من تنيس ودمياط . والستور والبسط المصرية من البهنسا . والطبالسة المقورة الرفيعة من كرمان . والحصر والقباطي والقراطيس من مصر . والمناديل الدبلمية البيضاء المعلمة من قوس — ربما بلغ ثمن المنديل منها ٢٠٠٠ درهم . والمقانع القزبات من جرجان والسوس . والبرود المنيرة والقصاع والامشاط من الري . والاكسية والجوارب من قزوين . والخفاف والسمور من همدان . والزجاج والخزف من البصرة . والحصر من عبادان . والديباج والانماط من تستر والجلود المدبوغة من الحبشة بطريق اليمن . والمسك والكافور والعود من الصين

اما الرقيق فايضه كان يحمل من وراء النهر واصله من الصقالبة او من الخزر الاتراك من بادية تركستان واحسنهم يربي في سمرقند وخوارزم ثم يحمل الى بلاد الاسلام . ويحمل الرقيق الابيض ايضاً من الاندلس وفيه الجواربي والغلمان واصلهم من سبي الافرنج وجليقية او من الصقالبة كما تقدم . ومن الرقيق الابيض صنف كان يرد من خراسان غال جداً ربا يبيع الغلام منه بخمسة آلاف دينار . اما الرقيق الاسود فكل ما يحمل منه الى بلاد الاسلام من السودان بطريق مصر او بلاد المغرب

وكان لهذه التجارات قوافل أو سفن تنقلها من الشرق والغرب والشمال والجنوب وتبيعها في اسواق بغداد وغيرها من المدن الاسلامية . واكثر الناس اشتغالا بنقلها في البرطانة

من التجار اليهود الراذنية كانوا ينقون اللغات الراجعة في ذلك العصر وهي العربية والفارسية والرومية والافرنجية والاندرسية والصقلية و يسافرون بين الافاليم العامرة يحملون التجارات من افليم الى آخر^(١) كما كان النينقيون في ابان دولتهم اما التجارة البحرية فاشهر اصحابها السيراقيون فقد كانوا يحملون الجواهر والعاج والابنوس والفلفل والسندل والعود والعنبر والكافور وسائر الاطياب والعقاقير والتوابل من الهند والصين وشواطئ افريقيا وجزائر الهند واليمن وغيرها الى البصرة ببغداد^(٢) فكان التجار يقدون على دار السلام بهذه التجارات فيبيعونها بالاثمان الفاخرة . ويدخل في هذه الطبقة من الناس الصيارف واكثرهم من اليهود وكانوا يقرضون رجال الدولة المال بالربا الفاحش . اشتهر منهم في بغداد مصارف كبرى كانت مكاسبهم موقوفة على الدولة ورجالها كال فتخاس وآل عمران وغيرهم

تجار المسلمين .

فلما نضج التمدن الاسلامي واشتغل المسلمون انفسهم بالتجارة لم يقصروا في شيء من شروطها واقتنوها علماً وعملاً حتى افلوا الكتب فيها وفي الاقتصاد السياسي . وبين يدينا نسخة من كتاب « الاشارة الى محاسن التجارة » للشيخ ابي الفضل جعفر بن علي الدهشقي من اهل القرن الخامس للهجرة فيه فوائد اقتصادية لم يسبقه احد اليها وابحاث في معنى النقود والسلم والمال الصامت والاعراض وتحقيق اثمان الاشياء ما لا نقل قيمته عما بلغ اليه علماء الاقتصاد في هذا العصر — بدل ذلك على ما بلغ اليه المسلمون من الرقي في علم التجارة ناهيك باهل الرحلة منهم الى اطراف المعمور في ذلك العصر فقد طافوا العالم برّاً وبحراً من القرن الرابع للهجرة ودونوا رحلاتهم تسهيلاً لاسباب التجارة واكتشفوا طرقاً تجارية في البحر المحيط والبحر الهندي والاحمر وفي اواسط افريقيا واسيا لم يسبقهم اليها احد اما الاسفار التجارية فقد كانوا فيها سلاطين البحار فخرت سفنهم البحر الابيض على كل شواطئه والبحر الاحمر الى آخره والبحر المحيط الى سومطرا فزنجبار الى بلاد الكفرة وشرقاً الى كلكتة وجزائر الهند والصين وجنوباً الى مداغسقر وسائر شواطئ افريقيا الشرقية واجتازوا بحر قزوين الى بلاد الخزر والروس . أما برّاً فاخترقوا بلاد الهند وتركستان والتبت حتى نزلوا بلاد الصين . واوغلوا في افريقيا الى خط الاستواء فقرّبوا الابعاد بين تلك الاصقاع المتباعدة

(١) ابن خرداذبة ١٥٣ (٢) الاصمغري والمسهودي

فكان التجار المسلمون حوالي القرن الرابع للهجرة يجوبون الافطار براً وبحراً ينقلون التجارة من بلد الى بلد بين شواطئ فارس وسواحل افريقيا والحبشة واليمن وسواحل الهند والصين وسائر المشرق . ويقطعون صحاري خراسان وتركستان وارمينية وافغانستان والهند والشام ومصر والسودان وافريقية والاندلس في نقل اصناف التجارة كأنهم هم وحدهم تجار الارض . ومركز تجارة الشرق البصرة بحراً وبغداد براً . واشتهر من تجار المسلمين من كانوا يمتدقون البحار في القرن الرابع للهجرة السيرافيون الذين تقدم ذكرهم والعمانيون وكانت سفنهم التجارية تجوب بحار الصين والهند والزنج واليمن والقزم وقد عرفهم المسعودي وذكرهم في تاريخه ^(١)

ثروة التجار

وقد استغرفنا في الكلام على التجارة — وجملة القول ان التجارة العليا كانت من ابواب لزق الواسعة في ذلك العصر لاصحاب المواهب التجارية ولمن يخدمهم التوفيق وينقبون ما من البلاط اوبعض اهل . فظهر في عهد ذلك التمدن ييونات تجارية جمعت الاموال حتى تجاوزت ثرونها الملايين من الدنانير . وفيهم جماعة من عامة الناس يوصفون بالغلة فخدمهم حظهم حتى ارتفعوا الى طبقة الخاصة وجمعوا الاموال الطائلة ككل الجصاص تجار الجواهر وقد اشتهروا في العصر العباسي مثل شهرة آل روتشيلد في القرن الماضي وروكفلر الاميركاني في هذا القرن واول من اثرى منهم الحسن بن عبد الله وقد قصّ هو نفسه توصله الى الثروة فقال :

« كان بدء يساري أي كنت في دهليز ابني الجيش خمارويه بن احمد بن طولون بمصر وكنت وكيله في ابتياع الجوهر وغيره مما يحتاجون اليه وما كنت افارق الدهليز لاختصاصي به فخرجت الي قهرمانه لهم في بعض الايام ومعها عقد جوهر فيه مائة حبة لم أر قبله ولا بعده أغر ولا احسن منه كل حبة منه تساوي مائة الف دينار وقالت يحتاج ان تحرط هذه حتى تصغر فتجعل في اذان اللب وفي قلائدها . فكذت اطيعواخذتها وقالت السمع والطاعة وخرجت في الحال مسروراً وجمعت التجار ولم ازل اشترى كل ما قدرت عليه الى ان جمعت مائة حبة اشكالا من النوع الذي طلبته وارادته وجئت عشياً وقلت ان خطر هذا يحتاج الى انتظار وزمان وقد خرطت اليوم ما قدرنا عليه وهو هذا ودفعت اليها المجتمع وقلت الباقي يحرط في ايام فقتعت بذلك وعجبها الحب فخرجت وما زلت اياماً في طلب الباقي حتى

(١) المسعودي ٥٤ ج ١

اجتمع فحملته اليها وقامت عليّ المائة حبة بدون المائة الف درهم واخذت منهم جوهراً بمائتي الف الف دينار ثم لمت دهليزهم واخذت لي غرفة كانت فيه فجعلتها مسكني وكان للحقني من هذا اكثر مما يحصى حتى كثرت النعمة وانتهيت الى ما استفاض خبره ^(١)

وكان لابن الجصاص بيت كبير في بغداد لبيع الجواهرات فلما كانت النكبات والمصادرات علي عهد المقتدر بالله العباسي في اوائل القرن الرابع للهجرة كتب ابن الجصاص في جملة الذين صودروا وسبب ذلك ان عبد الله بن المعتز لما بويغ بالخلافة ثم انحل امره وتفرق رجاله وطلبه المقتدر اختفى عند ابن الجصاص المذكور فوشى به خادم فصادره المقتدر بالله علي و يقال مع ذلك انه كان احق ابله — فاعتبر مقدار ما كان يصل الي التجار اهل النباهة والدهاء

وقس علي ذلك ثروة تجار الفرش والاثاث ولا سيما في البصرة فقد اشتهر فيها جماعة من اهل اليسار واكثر غناهم من تجارة البحر فقد كانت سفن بعضهم تعد بالمئات وتحمل بها التجارة الى انحاء العالم — ذكروا واحداً منهم اسمه الشريف عمر كان دخله ٢,٥٠٠,٠٠٠ درهم في السنة ^(٢) وبلغت ثروة صاحب مراكب في البصرة ٢٠,٠٠٠,٠٠٠ دينار ^(٣) ومنهم رجل اسمه احمد بن عمار كان طحاناً بالبصرة فاصعد الى بغداد في ايام المعتصم فانسعت حاله حتى صار يخرج من الصدقة كل يوم مائة دينار ٠ فاذا اعتبرتها عشر ماله كان دخله الف دينار في اليوم واستوزره المعتصم لامانته ولكنه كان جاهلاً ^(٤)

• — الصناع

اما الصناعة فقد اخذوا منها بنصيب كبير لانهم كما برعوا بالاتجار في السلع برعوا ايضاً باصطناعها وارثت الصناعة عندهم بتوالي الاجيال حتى فاقوا في بعضها البلاد الاخرى وامتاازوا بصناعات خاصة بهم ٠ فهم الذين نشروا السكر في العالم نقلوه من موطنه في الهند الى بلاد فارس وانشأوا له المعامل واستخرجوا منه اصنافاً لم يكن لها مثيل ^(٥) وهم انفقوا صناعة

(١) فوات الوفيات ١٣٨ ج ١ (٢) ابن الاثير ٢٠ ج ٩

(٣) ابن حوقل ١٩٨ (٤) الفخري ٢١٣ (٥) Encycl. Brit. article SUGAR

الورق ونشروها في العالم وعنهم اخذها اهل اوربا بطريق الاندلس ^(١) وقد امتازت بعض مدن الاندلس بصناعات كانت تفاخر بها صنائع المشرق فكانوا يصطنعون في مرسية وشبّا مذهباً في غاية الانقان وفيها ابضاً معمّل للسط لم يكن له نظير وآخر للاسرة المرصعة . وكان في بالقة معامل للزجاج الغريب ونغار مزيج مذهب ونوع من الفسيفساء المفضضة على شكل خاص ولهم اختراع في صناعة الزجاج يؤثرونه لهم فذكروا ان اول من استنبط صناعة الزجاج من الحجارة عباس بن فرناس حكيم الاندلس ^(٢) واخترعوا البارود للبنادق على ما بيناه في الجزء الاول من هذا الكتاب

ولهم في الميكانيكيات صنائع حسنة كالساعة التي اشتهرت في جامع دمشق وذكرها ابن جبير في رحلته بالقرن السادس للهجرة — وهاك ما قاله في وصفها على ما شاهدته بعينه : « وعن يمين الخارج من باب جيرون جدار البلاط الذي امامه غرفة لها هيئة طاق كبير مستدير فيه طيقان صفر قد فتحت ابواباً صغاراً على عدد ساعات النهار ودبرت تدبيراً هندسياً . فعند انقضاء ساعة من النهار تسقط صنجتان من صفر من في بازين مصورتين من صفر قائمتين على طاستين من صفر تحت كل واحد منهما احدهما تحت اول باب من تلك الابواب والثاني تحت آخرها . والطاستان مثقوبتان فعند وقوع البندقتين فيهما تعودان داخل الجدار الى الغرفة وتبصر البازين يمدان اعناقهما بالبندقتين الى الطاستين ويقذفانهما بسرعة بتدبير عجيب تخيلة الاوهام سحراً . وعند وقوع البندقتين في الطاستين يسمع لهما دوي وينغلق الباب الذي هو لتلك الساعة للعين بلوح من الصفر لا يزال كذلك عند كل انقضاء ساعة من النهار حتى تنغلق الابواب كلها وتنقضي الساعات ثم تعود الى حالها الاول . ولها بالليل تدبير آخر وذلك ان في القوس المنعطفة على الطيقان المذكورة اثنتي عشرة دائرة من النحاس مخزّمة تعترض في كل دائرة زجاجة من داخل الجدار في الغرفة يدبر ذلك كله منها خلف الطيقان المذكورة وخلف الزجاجة مصباح يدور به الماء على ترتيب مقدار الساعة فاذا انقضت عمّ الزجاجة ضوء المصباح وفاض على الدائرة امامها شعاع فلاحت للابصار دائرة مخمرة ثم انتقل ذلك الى الاخرى حتى تنقضي ساعات الليل وتحمر الدوائر كلها وقد وكل بها في الغرفة متفقد لحالها درّب بشانها وانتقالها يعيد فتح الابواب وصرف الصنج الى مواضعها » اهـ ^(٣)

(١) الجزء الأول ٢٠٠ (٢) نقح الطيب ٨٧٣ ج ٢

(٣) رحلة ابن جبير ٣٧١

وقس على ذلك كثيراً من الآلات المائية وغير المائية المركبة من البكر والآكر والانابيب والامخاخ وغيرها للرفع والجرف والنقل ولم فيها مؤلفات طوى الزمان بعضها واكثرها مأخوذ في اصله عن اليونانية ككتاب « الحيل الروحانية ومخانيقا الماء » لفيلون البيزنطي وكتاب « رفع الاشياء الثقيلة » لهيرون الاسكندري نقله الى العربية قسطا بن لوقا البعلبكي . وغيرها مما نقله الافرنج الى اللاتينية في نهضتهم الأخيرة وفقدت ترجمته العربية كما فقد اصله اليوناني قبله . وفي هذه الكتب كثير من الرسوم الموضحة لحركة تلك الآلات وقوتها ^(١)

واشتغل المسلمون في هذه الفنون وألفوا فيها الكتب من عند انفسهم . وقد وقفنا على مؤلف خطي في الآلات الروحانية اطعننا عليه صديقنا الشيخ شبلي النعماني العالم الهندي الشهير وهو تأليف « رئيس الاعمال بدیع الزمان ابو العز بن اسماعيل بن الرزار الجزري » في اسباب الحيل والحركات الروحانية والآلات المتخذة للساعات المستوية والزمانية ونقل الاجسام بالاجسام من المقدمات الطبيعية — الفه لابي الفتح محمود بن محمد بن قزل ارسلان من آل ارئق في أواخر القرن السادس للهجرة فيه رسوم ملونة تمثل الآلات الضاغطة والرافعة والناقلة والمتحركة حركات خفية . وبينها رسم يشبه ما وصفه ابن جبير عن ساعة دمشق — فدل هذا وغيره على ما بلغ اليه المسلمون من اتقان فن الميكانيكيات مما يحتاج في وصفه الى كتاب برأسه

الطبقة الثانية من العامة

نريد بهذه الطبقة سائر من بقي من الامة وهم السواد الاعظم وفيهم الزارع والصانع والعبار والشاطر واللص والخنث والصعلوك وغيرهم مما لا يحصى . ولسهولة الاحاطة بهم نقسمهم الى قسمين اهل القرى وهم المزارعون واهل المدن وهم الصناع والباعة والرعاع

١ — المزارعون اهل القرى

فالمزارعون او الاكرة منهم بنألف معظم سكان المملكة وهم اصل ثروتها واكثرهم من اهل الذمة يقيمون في القرى الآمن اسلم منهم فينزل في المدن . وكانوا يتكلمون لغات

البلاد الاصلية السريانية والآرامية واليونانية في العراق والشام والقبطية بمصر والفارسية في بلاد فارس والتركى في تركستان بما وراء النهر . واخذ العنصر العربي يتغلب على عناصرهم واللغة العربية لتغلب على السنتهم والاسلام يتغلب على اديانهم حتى ساد الاسلام عليهم جميعاً وعمّت العربية البلاد الواقعة غربي دجلة وهي العراق والشام ومصر وافريقية والسودان وصارت تعدّ بلاداً عربية واكثر اهلها مسلمون . وانقرضت اللغات التي كانت منتشرة فيها الا بقايا قليلة من السريانية في بعض القرى المتباعدة من الشام والعراق . اما شرقي دجلة بفارس وتركستان والهند فقد ساد الاسلام ايضاً وانتشرت اللغة العربية بين اهل العلم ولكن ألسنة اهل البلاد ظلت حية يتفاهمون بها الى الآن

٢ — العامّة سكان المدن

هم نفي من يأثم المدن من اهل المطاعم وطلاب المكاسب بالتجارة او الجندية او الادب او الشعر وتعد بهم نفوسهم عن اللحاق باهل المهم واصحاب القرائح فيضطرون الى احتراف ما يتعيشون به مما لا تعوزهمه او رأي . ولو اردنا الرجوع الى اصول عامة بغداد مثلاً لرأيناهم اخلاطاً من مولدي العرب والفرس والترك والديلم والروم والبط والارمن والجرسك والاكراذ والكرج والبربر وغيرهم ولكنهم بعدّون عرباً لتغلب اللغة العربية على سنتهم وعامة المدن طبقتان الطبقة الاولى المرتزقون بالصناعة والتجارة وهم طائفتان (١) الصناع اصحاب الصناعات اليدوية كالحدادين والحيّاكين والخياطين والحلاقين والتجارين والصيادين والخبازين والطحّانين ومن جرى مجراهم (٢) الباعة الذين يبيعون البقل واللحم وغيرهما من اصناف المأكولات على انواعها وبعض المنسوجات والسلع الدنيئة . وهم طوائف كثيرة كالزياتين والبقالين والجزارين وباعة الاقمشة والطحين والخضرو ونحوها والطبقة الثانية المرتزقون بالدعارة والذهب والصوصية وهم اصناف كثيرة نشأت في بلاد الاسلام على أثر الفتن والانشقاق بين اهل الدولة لا يستطيع اهل هذا الجبل تصوّر امثالهم لبعد ذلك عن مألوذهم — الا الذين ادركوا متشردي بيروت المعروفين بالزعران وهم طائفة من اهل البطالة كانوا يحترفون السرقة والتغرّش بانباء السبيل . والزعران مثال صغير لرعا ذلك العصر فقد كان في بغداد وغيرها من مدن الاسلام طوائف كثيرة تعرف بالعيارين والشطار والصعاليك والزواويل ونحوهم كثيراً ما استنحل امر بعضهم حتى تعجز الحكومة عنهم وقد تستنجدهم في بعض حروبها

والسبب في ظهورهم اضطراب الدولة العباسية بعد عصرها الأول بن دخل فيها من
المفسدين منذ حجر على الخلفاء واستولى الاجناد على مصالح الدولة وجعلوا همهم جمع المال
لأنفسهم والتنازع على السلطة كما بيناه في الاجزاء الماضية ولا سيما الجزء الرابع . ولا
يخفى ما تجرّ اليه الفتن من وقوف الاعمال وغلاء الاسعار غير ما كان يرتكبه
الحكام انفسهم من خزن الاقوات فتقلّ ارزاق العامة فيعمدون الى التعدي ويتألفون
عصابات لمناوأة اصحاب الاموال من التجار وغيرهم في المدن ولا سيما بغداد أم المدائن
الاسلامية في ذلك العهد . فكان الدعار يتكاثرون ويزدادون تعدياً والحكام في
شاغل عنهم والخسارة معظمها على الاهالي . وتوالى ذلك اعواماً حتى خربت مدينة السلام
وام حضارة الاسلام . ولا يمكن الامام بكل طوائف الرعايا فنذكر اشهرها :

الغيارون

ظهر الغيارون ببغداد في اواخر القرن الثاني للهجرة وكان لهم في الفتنة بين الامين
والمأمون شأن كبير لان الامين لما حوصر في تلك المدينة وعجز جنده عن الدفاع استنجد
الغيارين وكانوا يقاتلون عراة في اوساطهم الميازير وقد اتخذوا الرؤوسهم دواخل من الخوص
سموها الخود ودرقا من الخوص والبواري قد قرنت وحشيت بالخصي والرمل . ونظمهم نظام
الجند على كل عشرة عريف وعلى كل عشرة عرفاء نقيب وعلى كل عشرة نقباء قائد
وعلى كل عشرة قواد امير ولكل ذي مرتبة من المركوب على مقدار ما تحت يده . ومعهم
اناس عراة قد جعل في اعناقهم الجلاجل والصدف الاحمر والاصفر ومقاود والجماس من
مكاسس ومذاب . وبلغ عددهم يومئذ نحو خمسين الف عيار^(١) وساروا للحرب يضربون
الاعداء بالمقلع والخصي وكانوا اهل مهارة بذلك فأبلاوا بلاءاً حسناً لكنهم لم يثبتوا امام
الجانيق والجنود المنظمة فعادت العائلة عليهم وقتل منهم خلق كثير وفيهم يقول الشاعر :

خرّجت هذه الحروب رجالاً لا لقحطان ولا لنزار
معشر في جواشن الحصر يعدون الى الحرب كالبيوت الضواري
ليس يدرون ما الفرار اذا ابطل عاروا في القنا للفرار
واحد منهم يشدّ على ألفي ن عريان ماله من ازار
وبقول الفتي اذا طعن الطعنة خذها من الفتي العيار

وحدث نحو ذلك من العيارين في حرب المستعين والمعتز سنة ٢٥١ هـ اذ حصر المستعين بالله ببغداد نحو حصار الامين فيها فاستعان بالعيارين وفرض لهم الاموال وجعل عليهم عريقاً اسمه بينونه وعمل لهم تراساً من البواري المقيمة واعطاهم الخالي ليجعلوا فيها الاحجار . على انهم كانوا كلما حدثت فتنه اهلية اغتصموا اشتغال الدولة بها وهموا بالمنازل والحوانيت واخذوا الاموال . وكثيراً ما كانت تحدث امثال هذه الفتن في بغداد من القرن الثالث للهجرة وما بعده^(١)

وكانوا يزدادون قوة كلما ازدادت الدولة ضعفاً وتكاثرت تعدياتهم على بغداد كلما تكاثرت الفتن فيها اما بين الحكام في التنارع على السلطة او الاموال واما بين العامة تعصباً لبعض المذاهب ولا سيما بين السنة والشيعة او الحنفية والشافعية . فلم ينقض النصف الاول من القرن الخامس للهجرة حتى تسلط العيارون على بغداد وجبوا الاسواق واخذوا ما كان يأخذه رجال الدولة وانتظموا انتظام الشرطة او الجند واشتهر من رؤسائهم في ذلك العصر رجل اسمه الطقطقي وآخر اسمه الزبيق^(٢) بطل القصة المشهورة وظهر العيارون في سائر المدن الاسلامية وعظم شأنهم وكثيراً ما كان الوزراء وغيرهم من ارباب الحل والعقد يقاسمونهم ويسكتون عنهم^(٣)

الشطار

هم طائفة أخرى من اهل الدعارة كانوا يمتازون بملابس خاصة بهم ولهم مئزر يأترزون به على صدورهم يعرف بازرة الشطار^(٤) وكانوا اكثر انتشاراً في المملكة الاسلامية من العيارين واطول بقاء منهم وظهروا في الاندلس ولهم فيها نواذر وتنكيات وتركيبات واخبار مضحكة تملأ الصحف الكبار لكثرتها وتضحك الشكلى^(٥) على ان اسمهم كان يختلف باختلاف البلاد فهم يعرفون في العراق بالشطار وفي خراسان يسمونهم سرابداران وفي المغرب الصقورة وسماه ابن بطوطة « الفتاك » وذكر تفشيهم في ايامه (القرن الثامن للهجرة) و اشار الى اجتماعهم على الفساد وقطع الطرق وتكاثرهم في نواحي سبزوهر حتى هجموا على مدينة بيهق وملكوها وملكوا غيرها وجندوا الجنود وركبوا الخيل وولوا احدهم سلطاناً عليهم وانحاز اليه العبيد يفرون من مواليهم فكل من جاء من هؤلاء اعطاه ذلك السلطان مالا

(١) ابن الاثير ٢٤٤ ج ٨ و ١٤٥ — ١٥٠ ج ٩ (٢) ابن الاثير ٢٤٦ ج ٩

(٣) ابن الاثير ٤١ ج ١١ (٤) الاغانى ٩١ ج ٦ (٥) نفع الطيب ٧٦٦ ج ٢

وفرمّا اذا ظهرت منه شجاعة أمره الى آخر ما ذكر^(١)

ولم يكن الشطار وغيرهم من اهل الشرور يعدون اللصوصية جريمة وانما كانوا يعدونها صناعة ويحالفونها باعتبار ان ما يستولون عليه من اموال التجار الاغنياء زكاة تلك الاموال التي اوصي باعطائها للفقراء^(٢) وكان اولئك اللصوص اذا شاخ احدهم ربما تاب فتستخدمه الحكومة في مساعدتها على كشف السرقات . وكان في خدمة الدولة العباسية جماعة من هؤلاء الشيوخ يقال لهم « التوابون » على انهم كثيراً ما كانوا يقاسمون اللصوص ما يسرقونه ويكتمون امرهم^(٣)

طوائف أخرى من الرعاع

وهناك طوائف اخرى من رعاع العامة او من في معنهم تكاثروا في عصر الاضطهاد بالملكية العباسية كالصعاليك والزواويل والحرايش وغيرهم كان طلاب السلطة يستعينون بهم في حروبهم بعضهم على بعض و يعدون بالآلاف فقد كان مع ابي دلف عشرون ألفاً من الصعاليك^(٤)

وبدخل في معنى هذه الطوائف من تجمعهم والارتزاق بالتعدي على اصحاب الاموال العبيد وكانوا كثيرين لا يخلو منهم منزل كما رأيت . فلما اختلفت الاحوال وضعف اسيادهم ذهبت الهيبة من قلوبهم حتى اذا ساحت لهم فرصة نهضوا مع الناهضين . وربما اتحلوا لنهوضهم دعوة دينية يقومون بها كما فعل صاحب الزنج في اواسط القرن الثالث للهجرة فانه قام قرب البصرة باسم الشيعة العلوية وكان في ضواحيها جماعة من العبيد يكسحون السباح فدعاهم الى النهوض معه على ان يحررهم من الرق ويريحهم من التعب وكانوا قد شاهدوا رفاههم الارقاء البيض (المالك الاتراك) يتعدون على الخلفاء فاقتدوا بهم . فمكّل عبد سمع بهذه الدعوة تبعها حتى استفحل امرهم وضربوا اسيادهم بالسياط^(٥) واجتمع منهم مئات الالوف وحاربوا الدولة العباسية بضع عشرة سنة قتلوا في انثائها ٢٠٠٠ و ٢٥٠٠ نفس من الرجال والنساء والاطفال مما نقشعر له الابدان . وانتهت تلك الدعوة بقتل زعيمها وتفرق اصحابه . واراد الهبة بمصر أن يفعلوا مثل الزنج بالعراق فلم يفعلوا . وقد يعدّ من هذا القبيل ايضاً الحشاشون وهم طائفة من الفوضويين ظهوروا في القرن الخامس للهجرة وجعلوا دأبهم

(١) رحلة ابن بطوطة ٢٣٥ ج ١ (٢) الجزء الرابع ١٧١

(٣) المسعودي ٣٣٥ ج ٢ (٤) ابن الاثير ٦٩ ج ٧

(٥) ابن الاثير ٨٢ ج ٧ والطبري

الفتك بأهل السلطة غدرًا وكان لهم شأن كبير في تاريخ الاسلام^(١) ومن طبقات العامة « الخنثون » وكانوا في الحجاز قبل الاسلام وهم جماعة من اهل الخلاعة انتشروا بالمدينة بعد الاسلام على اثر ظهور اللهو والقصف وكثرة الاموال وكثيرًا ما كانوا يفسدون النساء يتوسطون بينهن وبين الرجال . وكان احسن المغنين منهم وقد تقدم خبر سليمان بن عبد الملك وما فعله بهم . وربما اشتهوا ما كان في القاهرة من « الخول » من عهد غير بعيد . ولما انتشر الفناء في المملكة الاسلامية انتشر الخنثون معه وتكاثروا في بغداد والشام ومصر والاندلس وسائر المغرب والاندلسيون اذا قالوا الخنايث قد يريدون المالك الصقالبة

وفي ما خلا ذلك فقد كان في المدن من طبقات العامة ما لا يحصىه عدُّ من اهل الاحتيال للمعاش بالسايلب الخداع والشعوذة او نحوها ولكل صنف من هذه الاصناف اسم خاص . وربما زاد عددها جميعًا على عشرين نوعًا كقولهم الخطراني والكاغاني والبانوان والقرسي والعواء والمشعبذ والفلور والاسطيل والمزيدي^(٢) وغيرهم

أخلاق العامة

فالعامة في المدن اخلاط من غوغاء ولفيف من ام شتى وصناعات شتى وهم جهال اتباع من سبق اليهم من غير تمييز بين الفاضل والمفضول . وسئل الامام علي عن العامة فقال « هم رعاى اتباع كل ناعق » . وقال الفضل بن يحيى « الناس اربع طبقات ملوك قدمهم الاستحقاق ووزراء فضلتهم الفطنة والرأي وعليّة انهمم اليسار واوساط ألحقهم بهم التأدب والناس بعدهم زبد جفاء وسيل غناء كع لكع وربيطة اتضاع هم احدهم طعامه ونومه » . وقال معاوية للاحنف صف لي الناس فقال « رؤوس رفهمم الحظ واكتاف عظمهم التدبير واعجاز اشهرهم المال وادباء ألحقهم بهم التأدب والناس بعدهم اشباه البهائم ان جاعوا ساموا وان شعبوا ناموا — هذو هي اراء خاصة تلك الايام في عامتهم ومع ذلك فطلاب السلطة كانوا يراعون جانبهم ويقرّبونهم بما يرضيهم ولا سيما الدين وهو جامعتهم الكبرى ولا غرو فانه اكبر اسباب سعادتهم ولهذا السبب رأيتهم شديدي التعلق بالخليفة اذا اظهر القوى لما في منصبه من الصبغة الدينية وهو رئيسهم وامامهم

(١) الهلال صفحة ٨٣ سنة ١٠ (٢) كتاب انجلاء ٣٧

فكانوا له عضداً قوياً ولولاهم لذهبت الخلافة العباسية من بغداد قبل الزمن الذي ذهبت فيه لانهم كانوا كثيراً ما ينهضون لنصرته على القواد والوزراء اذا ارادوا خلعه . واكثرهم مع ذلك لا يعرفون من الدين غير اسمه ولو سئل احدهم عن اعتقاده لما احسن الجواب فضلاً عن بساطتهم وسذاجة افكارهم وجهلهم سائر الامور

ذكروا من دهاء معاوية في مداراة الناس واجتذاب قلوب العامة ان رجلاً من اهل الكوفة دخل على بغير له الى دمشق في حال منصرفهم عن واقعة صفين فتعلق به رجل من اهل دمشق فقال هذه ناقتي اخذت مني في صفين فارتفع امرها الى معاوية واقام الدمشقي خمسين رجلاً بينة يشهدون انها ناقتة ففضى معاوية على الكوفي وامره بتسليم البعير اليه فقال الكوفي « اصلحك الله انه جبل وليس بناقة » فقال معاوية « هذا حكم قد أمضي » ودس الى الكوفي بعد تفرقهم فاحضره وسأله عن ثمن بعيره ودفع اليه ضعفيه وبره واحسن اليه وقال له « ابلغ علياً اني اقبله بمائة الف ما فيهم من يفرق بين الناقة والجمل »

وبلغ من امرهم في طاعته انه صلى بهم عند مسيرهم الى صفين الجمعة في يوم الاربعاء واعادوه رؤوسهم عند القتال وحملوه بها وركنوا الى قول عمرو بن العاص ان علياً هو الذي قتل عمار بن ياسر حين اخرجه لنصرته . ثم ارتقى بهم الامر في طاعته الى ان جعلوا لعن علي سنةً بنشأ عليها الصغير ويهلك عليها الكبير

وذكروا عن عامة بغداد في ابان الفتن الاسلامي ان رجلاً منهم رفع الى بعض الولاة وشاية برجل من علماء الكلام زعم انه يتزندق . فسأله الوالي عن مذهب الرجل فقال « انه مرجعي » قدرى اباضي رافضي يبغض معاوية بن الخطاب الذي قاتل علي بن العاص » فقال له الوالي « ما دري على اي شيء احسدك على علمك بالمقالات او على بصرك بالانساب » وكان جماعة من علماء ذلك العصر يجتمعون في بغداد للمناظرة في ابي بكر وعمر وعلي ومعاوية وكان بعض العامة يأتون فيستمعون فتصدى اكبرهم لحية ذات يوم لبعض المباحثين وقال له « كم تطنبون في علي ومعاوية وفلان وفلان »

فقال له الرجل « فما تقول انت في علي »

قال « اليس هو ابا فاطمة »

قال « ومن هي فاطمة »

قال « امرأة النبي عليه السلام بنت عائشة اخت معاوية »

قال « فما كانت قصة علي »

قال « قتل في غزاة حنين مع النبي وقد كان عبد الله بن علي حين خرج في طلب مروان الى الشام وكان من قصة مروان ومقتله ما قد ذكر ونزل عبد الله بن علي الشام ووجه الى ابي العباس السفاح اشياخاً من اهل الشام من ارباب النعم والرياسة فحلفوا لابني العباس السفاح انهم ما علموا لرسول الله قرابة ولا اهل بيت يرثونه غير بني امية حتى وليتم الخلافة » ^(١)

اولئك هم العامة في كل زمان ومكان وطلاب السلطة المطلقة لا يستغنون عنهم لانهم معظم الرعية وبهم تجبي الاموال ومنهم تتألف الجنود فمن استطاع كسب ثقتهم واجتذاب قلوبهم ملكوه ولا يجتذب قلوب العامة مثل الدين فاذا اجتمعت السياسة والدين تمت وسائل السلطة المطلقة وتولى امور الناس اكثرهم دهاءً واقدرهم على استرضاء العامة بالقوى



الاداب الاجتماعية

في المملكة الاسلامية

نريد بالآداب الاجتماعية ما يدور بين الناس من المعاملات الادبية والامور الاعتبارية في حياتهم الاجتماعية وما يتبادلونه من العلائق العائلية على ما تقتضيه عاداتهم واخلاقهم وطباع اقليمهم . واساس تلك الاداب في التمدن الاسلامي ما كان عند العرب قبل الاسلام من المناقب والعادات وحال المرأة عندهم فنقدم الكلام بتمهيد في هذا الشأن

مناقب العرب الجاهلية

تختلف مناقب الناس وآدابهم باختلاف ضروب معاشهم وأطوار تمدنهم وطباع اقليمهم فللبدو مناقب غير مناقب الحضرة ولاهل القرى آداب تختلف عما لاهل المدن واهل الاقاليم الحارة اداهم تحالف آداب اهل الاقاليم الباردة جرياً على ما يقتضيه ناموس الارثقاء من التناسب بين طباع القوم وطباع اقليمهم لئلا يتولاهم الضعف وبدرهم الفناء فاهل البادية يحتاجون الى الشجاعة مثلاً أكثر مما يحتاج اليها المتمدنون لتفرد البدوي عن المجتمع وتوحشه في الضواحي وبعده عن الحامية وانتباذه عن الاسوار ويقوم بالدفاع عن نفسه بيده فهو دائماً يحمل السلاح ويتفرد في القفر واثقاً بنفسه فصارت الشجاعة سجية له . بخلاف اهل المدن الذين القوا جنوبهم على مهاد الراحة وانغمسوا في الترف ووكلوا امرهم في المدافعة عن اعراضهم واموالهم وانفسهم الى واليهم والحامية التي تولت حراستهم واستنصموا الى الاسوار التي تحوطهم فهم آمنون قد القوا السلاح وتوات على ذلك منهم الاجيال وتنزلوا منزلة النساء والولدان الذين هم عيال على سوام فاصبح الجبن طبيعة فيهم . اعنبر ذلك بسائر ما يغلب في طباع اهل البدو كالعصبية والكرم والوفاء والانفة والتجدة وغيرها مما تستلزمه البداوة ولا نستقيم الا به على ما سنبينه :

هي اظهر طبائع البدو واعمها وقد فصلنا اسبابها وشروطها وسائر اطوارها في الجزء الرابع

٢ - الشجاعة

البدو يعيشون غالباً بالغزو وهم دائماً في قتال أو يتأهبون لقتال فالشجاعة شرط من شروط بقائهم وقد كانت غالبية فيهم يكرمون الشجاع ويتفاخرون بالشجمان واشتهر فيهم جماعة كبيرة من اهل البسالة في الجاهلية والاسلام كعمر بن معدي كرب وريعة بن المكدم ودريد بن الصمة وعروة بن الورد وعنزة العبسي وملاعب الاسنة وعامر بن الطفيل وعلي ابن ابي طالب وخالد بن الوليد والمقداد بن الاسود وسعد بن ابي وقاص وعبد الله بن الزبيز واخيه مصعب وغيرهم . واشتهرت نساؤهم بالشجاعة ايضاً كما سيجي في كلامنا عن المرأة

٣ - الكرم

وهو من مناقب اهل البادية اقتضته طبيعة اقليمهم لما قدمناه من مسير البدوي في اسفاره منفرداً وقد يتبعد عن مضره اياماً في بادية لا طعام فيها ولا ماء فاذا لم يجد من يقربه ويسقيه مات . فنشأ عن ذلك الضيافة وقرى الضيفان واصبح الكرم من افضل المناقب عندهم شأن سائر اجيال البدو غير العرب كالجرمان قبل تمدنهم . فكان البدو يتفاخرون بالضيافة ويتسابقون الى المغلاة فيها حتى اوقدوا ناراً بجانب مضاربهم يهتدي بها المارة ليلاً يسمونها نار القرى وبالغوا في احترام الكرماء ترغيباً للناس في هذه الفضيلة لانفقارهم اليها . فاصبح الاستخياء بياغون في ذلك ويكثر من النيران فاذا اشتد البرد او هبت الرياح فعمجوا عن ابقادها فرقوا الكلاب حول الحى وربطوها الى العمد لتستوحش فتنبج فيهتدي الاضياف على نباحها . ولذلك كان من اسماء الكلب عندهم « داعي الضمير و متم النعم ومشيد الذكر » وكانوا يتفاخرون بعظم جفانهم وارتفاعها ومن اكبر تلك الجفان جفنة عبد الله بن جدعان كان الرجل يستطيل في ظلها ^(١)

واشهر الكرماء في الجاهلية حاتم الطائي وبضرب المثل بكرمه فيقال للبالغة في مدح كرم « انه اكرم من حاتم طي » ومنهم كعب بن امامة الابادي وهرم بن سنان وخالد بن عبد الله وغيرهم . وكان جودهم قاصراً على الضروري من حاجات الاناس كالطعام والشراب واللباس لبساطة احوالهم وربما جادوا بالابل او الماشية . فلما ظهر الاسلام وكثرت اموالهم من الغنائم والعطايا صاروا يجودون بالنقود والجواهر والضياع والرفيق وغيرها كما ستري

٤ - الوفاء

لما كان الغدر سهلاً على البدوي لامكانه الفرار من القصاص والايغال في البادية حيث

لا يستطيع خصمه الوصول اليه وليس ثمة وازع يخيفه او جند يقبضون عليه ولا هناك دين يزجره مما يفضي الى ضياع الحقوق وفساد الاحوال جعلوا يرغبون الناس في الوفاء ويعظمون امره ويمتدحون اهله فرغب الناس فيه واصبح بتوالي الاجيال خلقاً لهم وصاروا بآنفون من اخلاف الوعد ويشهرون مرئكة وبيالغون في الثناء على آله

٥ - الاستقلال

لاشيء احب الى اهل البادية من الاستقلال ولا سيما الرجل فانهم طبعوا على الحرية وكروها التقيد بشيء حتى المكان فهم لا يتوطنون صقلاً بل يجمعون منازلهم على ظهورهم ينتقلون بها الى حيث يطيب لهم المقام . وهم لا يحملون ضماً ولا يصبرون على ظلم . وتمكنت الحرية من طباعهم حتى ظهرت في اقوالهم وافكارهم ونشأوا على الانفة وعزة النفس واباء الضيم . ألا ترى كيف ظهر ذلك منهم في صدر الاسلام اذ كانوا يخاطبون الخلفاء كما يخاطبون عامة الناس والخلفاء لا يرون بأساً بذلك لانه كان طبعاً ما لوقاً فيهم

٦ - النجدة

هي من طبائع البدو ولازمة لزوم الضيافة وبينهما تناسب من حيث اغاثة الضعيف فاذا استنجدت البدوي على امر انجذك ولو بذل نفسه في هذا السبيل . وتظهر نجدتهم على الخصوص في الجوار وحي الذمار وقد فصلنا ذلك في الجزء الرابع صفحة ٢٨

٧ - الاريجية

وقد وصفنا هذه المنقبة مختصراً في الجزء المذكور صفحة ٢٩ وهي من مناقب اهل النجدة والفروسية التي يعبر عنها الافرنج بقولهم Chevalerie ومرجعها الى الافنخار بحسن الاحدوثة ولما كان العرب اهل خيال وذوي نفوس حساسة كان للاريجية عندهم شأن كبير فالرجل منهم نقيصة كلمة ونقصه ور بما تجردوا للحرب نقمة على عبارة تطعن في شجاعتهم او كرمهم او وفائهم وكانوا يتأثرون على الخصوص من اقوال النساء مدحاً او طعناً فيبدلون ما في وسعهم التماساً لثنائهن وكثيراً ما كان ذلك سبباً في ابتعادهم عن الرذائل وربما تعرض بعضهم للقتل خوفاً من استخفافهن وفي اخبار الجاهلية شواهد كثيرة على ذلك

٨ - الثأر

وكما ينجذك البدوي اذا استنجدته فهو لا يصبر عن الاخذ بثأره اذا اسأت اليه واذا قتل رجل من قبيلة رجلاً من قبيلة اخرى نشأت العداوة بين القبيلتين فنقوم الموتورة منها الاخذ بثأرها ولا تنفك حتى تقتل كفوءاً لقتيلها او يتصالحوا على الدية . ومن اشهر حوادث

الاثر في الجاهلية الحرب التي أثارها المهمل بن ربيعة للاخذ بثار اخيه كليب فاصبح المهمل مثلاً في ذلك فيقولون « فلان اخذ للثار من المهمل » لأنه حلف منذ طلب الثار انه لا ينزع درعه ولا يشرب الخمر ولا يدهن رأسه بالطيب ولا يقرب للنساء الا بعد نيل مرامه
٩ - الشيخوخة

كان للشيخوخة عند العرب مقام رفيع ولفظ الشيخ يدل عندهم على الشيخوخة والرئاسة معاً. وكانوا اذا تساوت المناقب في من يرشحونه للإمارة فضلوا اكبرهم سناً كما فعلت قريش في حرب الفجار الثاني^(١) ولما جاء الاسلام وحدث ما أحدثه من المناقب الدينية كانت هذه المناقب في جملة ما فضله على السن فاذا تساوت كلها في المترشح للإمارة فضلوا اكبرهم سناً عملاً بالحديث النبوي بشأن الامامة وهذا نصه « يؤم القوم اقرأهم لكتاب الله تعالى فان كانوا في القراءة سواء فأعلمهم بالسنة فان كانوا في السنة سواء فقدمهم هجرة فان كانوا في الهجرة سواء فقدمهم سناً^(٢) »

المرأة في الجاهلية

اختلفت الآراء في حال المرأة العربية بالعصر الجاهلي ولا مشاحة انها كانت على الاجمال عظيمة الشأن عفيفة النفس وعفتها من ثمار حب الاستقلال والافتقار لان المرأة التي تشب على استقلال الفكر واباءة الضيم تترفع عن ارتكاب ما يهون على الناشئة في مهاد الذل المغلولة باغلال الحجاب . ويقال نحو ذلك في غير رجاءهم على العرض فانه من مستلزمات العفة والافتقار والاستقلال لان الرجل الانوف اذا تعود العفة من امرأته يعظم على طباعه احتمال مايمس عرضها من قول او فعل . وتزداد غيرته عليها اذا كانت وحيدة لم يجب سواها كما كان حال العرب في الجاهلية لقلة الجواري يومئذ ومشقة الحصول على النساء مع حاجة البدوي الى امرأته في تدبير شؤونونه واعانته في اسفاره واعماله
الوأة

وبلغ من غيره بعضهم في الجاهلية ان يقتلوا بناتهم او يئدوهن لثلاً يرتكن ما يجزئ عليهم العار ولم يكن الوأة عاماً في قبائل العرب ولا كان قديماً عندهم وانما حدث قبيل الاسلام وكان منحصراً في بعض بني تميم بن مر ظهر فيهم لسبب طراً عليهم — ذكروا انهم كانوا يؤدّون الاتاة (الجزية) الى النعمان ملك الحيرة فمنعوها سنة من السنين فجرد عليهم

النعمان كتابته وساق العامهم وسبى ذرارهم فعظم ذلك على التميميين فوفدوا عليه يطلبون
اهلهم واموالهم فأبى فقالوا « اعطنا النساء » فقال « انا نخيرهن في الذهاب او البقاء » واعلن
« ان كل امرأة اختارت اباه ردت اليه . وان اختارت صاحبها تركت عليه » فكلهن
اختارت اباهن الا ابنة قيس بن عاصم كانت قد احبت عمرو بن المشمرج فاخترت البقاء عنده
فغضب قيس ونذر لا تولد له ابنة الا قتلها ^(١) وربما اقتدى به بعض اهل اهل قبيلته .
وكان بعض الغيورين من العرب لا يزوج بناته غير عليلهن واشهرهم ذوالاصبع العدواني
فكانت له اربع بنات ممنوعة الزواج وهن يردنه في حديث طويل ذكره المبرد ^(٢) ولم يطل
زمن الواء عند العرب لانه مخالف لاحكام العقل ومبائن لعواطف الوالدين . فمابلث ان
ظهر صعصعة بن ناجية واخذ على نفسه فداء البنات الموزودات ^(٣) حتى بطل الواء

شبهات الجاهلية

وكان للمرأة في الجاهلية شأن وارادة وكانت صاحبة افقة ورأي وحزم فنبغ غير واحدة
منهن في السياسة والحرب والأدب والشعر والتجارة والصناعة ولا سيما في اوائل الاسلام
على اثر ما حصل من النهضة في النفوس والعقول فاشتهرت جماعة منهن بمناقب رفيعة تضرب
بها الامثال واكثرها في المدينة مقر الخلافة الاسلامية في ذلك العهد

فاللواتي اشتهرن في الجاهلية بالشجاعة وشدة البطش او كبر النفس منهن سلمي بنت
عمرو احدى نساء بني عدي بن النجار فانها كانت امرأة شريفة لا تزوج الرجال الا وامرها
بيدها اذا رأت من الرجل شيئاً تركته . على ان الغالب في نساء الجاهلية ان يخيرن قبيل
الزواج فلا يزوج الرجل ابنته الا بعد ان يشاورها ^(٤) واشتهرت التميميات من نساء
قريش في حظوتهن عند رجالهن وكبريائهن وقسوتهن عليهن ^(٥) ناهيك بن اشتهرت منهن
بالبسالة في اثناء الغزوات . ففي معركة أحد وقع لواء قريش في ساحة القتال فلم يزل
صريعاً حتى اخذته امرأة منهم اسمها عمرة بنت علقمة الحارثية فرفعته لهم فلاذوا بها ^(٦) .
وفعلت هند بنت عتبة امرأة ابي سفيان في تلك المعركة ما لم تفعله الرجال فجمعت اليها نسوة
اخذن في ايديهن الدفوف بضربن خلف الرجال وهي تنشد في تحريضهم على الثبات . ولما
انتهت الواقعة خرجت مع النسوة تمتازر جثث القتلى فوجدت بينها جثة حمزة عم النبي فبقرت

(١) الكامل للمبرد ٢٧٨ (٢) الكامل ٣١٦ (٣) الف باء ٢٠ ج ٢

(٤) الاغانى ١٤٩ ج ٩ و ٢٠٨ ج ١٨ (٥) الاغانى ٢٠٣ ج ١٨

(٦) الاغانى ١٧ ج ١٤

عن بطنه واخرجت كبده فلا كتبها من غيظها فلم تستطع ان تسيغها فلفظتها ثم علت صخرة
وانشدت اشعاراً تفخر بالفوز على المسلمين^(١)

ونساء الجاهلية كن يصحن الرجال الى ساحة القتال فيداوين الجرحى ويحملن قرب
الاء ومن اشتهرن بالشجاعة ام عمارة بنت كعب الانصارية وام حكيم بنت الحارث والخنساء
الشاعرة اخت صخر وغيرهن^(٢)

ونبع بالرأي والحزم غير واحدة اشهرهن خديجة بنت خويلد وكانت عاقلة حازمة لبية
ذات شرف ومال تنتمي من اشتهر من الرجال بالامانة والحزم فتستأجرهم بالمال وتضاربهم
اياهم بشيء تجعله لهم . ولما سمعت بشهرة النبي قبل الدعوة بالامانة وكرم الاخلاق بعثت اليه
ان يخرج في مالها تاجرآ الى الشام وتعطيه افضل ما كانت تعطي غيره من الرجال فلما افلح
في تجارته عرضت عليه ان يتزوج بها فأجابها . وهي اول من اسلم وقد نشطته للقيام بالدعوة
فكان لا يسمع شيئاً مما يكرهه من ردّ عليه او تكذيب له فيجزئه ويجبرها به الاّ تبثنه
وخففت عنه وهونت عليه وما زالت على ذلك حتى ماتت

الآداب الاجتماعية

في العصر الاسلامي العربي

بنقضي هذا العصر بانقضاء دولة الامويين في الشام سنة ١٣٢ هـ وقد علمت مما ذكرناه
عن سياسة هذا العصر في الجزء الرابع انها كانت عربية النزعة وقوادها عرب وعملها عرب
والسيادة فيها للعنصر العربي . وكذلك الآداب الاجتماعية فقد كانت لاتزال عربية بدوية
— او هو دور الانتقال من البداوة الى الحضارة حاول العرب فيه البقاء على ما القوه في
جاهليتهم من المناقب التي تقدم ذكرها كالوفاء والحوار والكرم والنجدة والشجاعة والعفة .
وكانت الحضارة وما تقتضيه من الترف والرخاء تغالب تلك المناقب حتى غلبت على معظمها
في اواسط العصر العباسي .

ويقسم العصر الاسلامي العربي الى ايام الراشدين وايام الامويين فنذكر الآداب
الاجتماعية في كل منهما على حدة

١ - الآداب الاجتماعية في عصر الراشدين

قلما اصاب المناقب البدوية تغيير في عصر الراشدين الا ما اقتضاه الدين من جمع كلمة العرب تحت لوائه فضعفت بذلك العصبية بين القبائل والبطون واجتمع العرب من فحطان وعدنان في ظل الاسلام . واصاب الكرم في ذلك العصر تغيير اقتضاه عدل الراشدين ولا سيما عمر بن الخطاب فانه كان من الصرامة وحب العدل حتى يطالب العامل بالدرهم والدانق واذا علم انه كسب مالا من غير راتبه شاطره اياه وكذلك كان علي بتدقيقه في محاسبة عماله وسائر رجاله . فكانوا لا يبذلون المال الا لمن استحقه من اهل العطاء فلم يكن لأصحاب الاستجداء عيش في ايامهم . وكان الصحابة يومئذ يقدلون الخلفاء في هذا التدقيق وهو مخالف للسواء والبذل حتى اتهمهم بالبخل وما هو بخل ولكنهم كانوا يرون اعطاء كل ذي حق حقه

اما ما بقي من مناقب العرب فظلت على نحو ما كانت عليه وبعضها زاد تمكناً في نفوسهم كالولف والنجدة والعفة والانفة لان الاسلام زادها رونقاً وقوة بالعدل والتقوى فكان الخليفة او اميره اذا وعد وفى واذا عاهد انجز لا يثنيه عن ذلك طمع او خوف . اعتبر ما كان من وفائهم لاهل الذمة اذ عاهدوهم على ان يخدموهم ما ادوا الجزية . فكانوا اذا شغلهم عن حمايتهم شاغل ردوا الجزية الى اصحابها واعتذروا^(١) ولو لم يردوها ما طالبهم بها احد وانما كانوا يفعلون ذلك من عند انفسهم . والشجاعة كانت سائدة في ذلك العصر لما كانوا فيه من الحاجة اليها في الفتح والجهاد . وقس على ذلك سائر المناقب ولا سيما الاستقلال والحرية فانهما زادا قوة في صدر الاسلام لما توخاه الراشدون من التسوية بين المسلمين على اختلاف طبقاتهم حتى اصبحوا يخاطبون الخليفة او الامير بمجساة وانفة كما يخاطبون بعض اقرانهم واذا رأوا فيه اعوجاجاً هددوه او عنفوه واصلحوه فاذا لم يطعهم قتلوه كما فعلوا بالخليفة عثمان وكثيراً ما كان المسلمون يحصبون اميرهم وهو يخطب فيهم اذا انكروا شيئاً من اقواله او اعماله

المرأة في عصر الراشدين

اما المرأة فاتجهت قواها في صدر الاسلام الى سداد الرأي ومزاولة الادب والشعر مع بقاء العفة والانفة فاشتهر منهن غير واحدة جرت بذكرهن الامثال : منهن عائشة ام المؤمنين فقد كان لها عقل راجح وفيها دهاء وقوة حتى رأست حزباً كبيراً من الصحابة واثارت حرباً عواناً وروت احاديث كثيرة هامة

وعائشة بنت طلحة بن عبيد الله الصحابي الشهير كانت مفردة الجمال تقيم في المدينة ولها عقل ورأي وعلم واسع باخبار العرب وأيامها وفي مطلع الكواكب وأحوالها . وكانت مع جلالها لا تستر وجهها عن الرجال لعظم قدرها وكبر نفسها . وكثيراً ما كانت تجلس في قصرها فيتناضل بين يديها الرماة ويتفاخرون بما ينالونه من عجائبها . وكانت اذا حجت يحيطها النساء الشواصر وغيرهن ويدخل الشعراء فتجيزهم الجوائز الكبيرة وكان لها موكب لم يسمع بمثله في عصرها مؤلف من عدة مواكب واحد لماشطها واخر لحازنتها وآخر لكل من كبار اتباعها . اما موكبها الخاص فهو كوكبة فيها ٣٠٠ راحلة عليها القباب والهواجر^(١)

وسكينة بنت الحسين بن علي وكانت معاصرة لعائشة بنت طلحة في المدينة وتسميان عقيلاتي قرين^(٢) وكانت عفيفة برزة تجالس الاجلة من قرين وتجتمع اليها الشعراء وتأذن للناس اذناً عاماً حتى تنص الدار بهم فتأمرهم بالاطعمة ثم تطرح على الشعراء الاسئلة في الشعر والادب وتنتقد اقوالهم وتحيزهم وخبرها في ذلك مشهور^(٣) واسماء بنت ابي بكر المعروفة بذات النطاقين وهي أم عبد الله بن الزبير وفي مراجعة قولها لانها هذا لما يش من الفوز وهو محصور بمكة وجاء يستقيها وتحريضها اياه على استقبال الموت بشرف دليل كاف على كبر نفسها وخزمها^(٤)

ونبع في ذلك العصر عدة نساء بالشعر كليلي الاخيلية والخنساء المتقدم ذكرها والفارعة المرية واشهر في البداية غير واحدة ممن كان يجتمع الرجال عندها للمناشدة او المذاكرة على غير ريبة فاذا توسمت في احدهم انحرافاً منعه واحتجبت عنه . كما اتفق لابي دهل الجمحي مع عمرة الجمحية وكانت امرأته جزلة يجتمع اليها الرجال لانشاد الشعر وكان ابو دهل من اشراف بني جح وكان لا يفارق مجلسها وكانت تحبه وتتقدم اليه في كتمان حبها فجاء نسوة كن يتحدثن اليها فذكرن لها شيئاً عن ابي دهل وانه يقول انها عاشقة له فرأفت مجلسها وتركت بحالمة الرجال ظاهرة وضربت حجاً بابنها وبينهم^(٥) ولما نضج التمدن الاسلامي اشتهر عدة نساء بالسياسة والصلاح والدهاء وغير ذلك مما ذكرناه في الاجزاء الماضية

(١) الاغانى ٦٠ ج ١٠ (٢) العقد الفريد ٢٥٤ ج ٢

(٣) الاغانى ١٧٣ ج ١٤ (٤) ابن الاثير ١٩١ ج ٤ (٥) الاغانى ١٦٥ ج ٦

٢ — الآداب الاجتماعية في عصر الامويين

اصاب المناقب العربية في الدولة الاموية تغير يختلف عما اصابها في عصر الراشدين باختلاف احوال الدولتين . فالامويون لما جعلوا همهم الرجوع الى ما كان لهم من السيادة في الجاهلية اغفلوا كل ما كانوا يخافون حيلولته بينهم وبين ذلك المرمى واستبقوا ما يتوسمون منه نفعاً لفرضهم — فالكرم رأوا فيه وسيلة لجمع الاحزاب فنشطوه وتسابقوا اليه فزادوا الاعطية وفرضوا الجوائز واقاموا بيوت الضيافة واكثروا من السخاء على رؤساء الاحزاب والشعراء ومن يخافون سطوتهم ولا يقولون على قتلهم على ما بيناه في باب السخاء والشجاعة لم يكن لهم بدٌ منها فقرّبوا اصحابها . والعصية كانت ملجأهم الاكبر في مناوأة اعدائهم من شيعة علي وغيرهم فبعد ان ضعفت في عصر الراشدين وقامت جامعة الدين مكانها اعادها الامويون الى نحو ما كانت عليه قبل الاسلام اما الوفاء فكان عثرة في طريق اغراضهم لما كانوا يعلمونه من حق مناظرهم في الخلافة وقوتهم فلجأوا الى الغدر والفتك . وكان معاوية زعيمهم ومؤسس دولتهم يفعل ذلك سرّاً ويموت غدره بالحلم والكرم والدهاء وحسن الاسلوب . فترج الخلفاء بعده من بني مروان الى الغدر جهاراً واول من فعل ذلك عبد الملك ^(١) وجرى عمالهم على هذه الخطة وافرطوا فيها فاشتهر بها منهم زياد بن ابيه وابنه عبيد الله بن زياد والحجاج بن يوسف وغيرهم

تقييد الافكار في ايام بني امية

اما الاستقلال وحرية القول لجاهد الامويون في مقاومتهم وقيّدوا اللسان بارادتهم تقييداً شديداً فكان ذلك عظيماً على الذين عاصروا الراشدين وتعدّوا الحق والحرية فعاقبهم الامويون جزاء حريتهم واستقلال افكارهم بالاعذاب الشديدة . ومن لم يستطيعوا مقاومتهم جهاراً قتلوه سرّاً — بدأوا بذلك من ايام عثمان قبل قبضهم على مقاليد الدولة في الشام وقد جبرأهم عليه ضعف هذا الخليفة ورغبته في ارضاء اهله ونصرته ولولا ذلك ما استطاع معاوية اضطهاد ابي ذر الغفاري ونفيه لانه جاهر باستبداد اهل الدولة باموال المسلمين ^(٢)

فلما افضت الخلافة الى معاوية لم يردّها من الضغط على افكار اهل الاستقلال والحرية واستعمل الشدة في ذلك فقتل حجر بن عدي وعمر بن الحق واصحابهما لانهم

قالوا بحرية ضمير ان علياً لا يجوز لعنه على المتأبر^(١) فاصبح الناس يخافون على ارواحهم وأخذوا يتمودون السكوت عن الحق ثم لجأوا الى التوقيه والرياء حتى في المشهور الثابت كما فعل ذلك الرجل لما نصب معاوية ابنه يزيد لولاية العهد فاطرى عمل معاوية حتى قال له « انك لو لم تول هذا امور المسلمين لاضعتها » ولكن الحرية كانت لا تزال حية في نفوس اهل الرئاسة ممن لم يكن يهمهم التزلف الى اهل الدولة وربما كانت الدولة احوج الى نصرتهم كالاخف بن قيس التميمي فانه كان يقول الحق ولا يبالي وكان ممن شهد الاحتفال بتولية يزيد وسمع ما قاله ذاك المنافق فاكتفى بالسكوت عن المدح . وادرك معاوية فكره فاستفهمه عن سبب سكوته فلم يبال ان قال « اخاف الله اذا كذبت واخافكم اذا صدقت »^(٢)

واقترى بمعاوية من عاصره من الامراء او جاء بعده من الخلفاء فنشأ جيل من العرب يهون عليهم السكوت عن الحق وكثر اهل الزلفى والرياء وذهبت حرية القول بتوالي الاعوام النجدة والاريجية في ايام بني امية

اما النجدة والاريجية فظلمتا في العصر الاسلامي العربي متأصلتين في نفوس العرب وان اضطر الامويون الى الاغضاء عنها في بعض الاحيان . اما على العموم فقد كانتا مرعيتين حتى عند اشد بني امية استبداداً وظلماً وفي اخباهم كثير من امثلة ذلك : منها انه جيء الى معاوية في يوم صفين باسرى من اهل العراق فقال معاوية « الحمد لله الذي امكنني منك » فقال الرجل « لا نقل ذلك يا معاوية »

قال « واي نعمة اعظم من ان يمكني الله من رجل قتل جماعة من اصحابي في ساعة واحدة ؟ اضرب عنه يا غلام »

فقال الاسير « اللهم اشهد ان معاوية لم يقتلني فيك وانك لا ترضى بقتلي وانما يقتلني في الغلبة على حطام الدنيا فان فعل فافعل به ما هو اهله وان لم يفعل فافعل به ما انت اهله » فقال له « ويحك لقد سببت فابلغت ودعوت فاحسنت . . . خليا عنه »

وكان معن بن زائدة قد امر بقتل جماعة من الاسرى فقام اصفر القوم فقال له « يامعن ائقتل الاسرى عطاشاً » فامر لهم بالماء فلما سقوا قال « يامعن ائقتل ضيفانك » فامر معن باطلاقهم

واتي الى الحجاج باسرى من الخوارج فامر بضرب اعناقهم فقدم فيهم شاب

فقال « والله يا حجاج لئن كنا اسأنا في الذنب فما احسنت بالعمو » فقال الحجاج « أف لهذه الجيف ما كان فيهم من يقول مثل هذا » وامسك عن القتل . وقس على ذلك ^(١) وكثيراً ما كانوا يعرضون انفسهم للقتل رغبة في حسن الاحدوثة ولا سيما عند النساء كما فعل عيسى بن مصعب بن الزبير وهو مع ابيه في مقاتلة محمد بن مروان بالعراق سنة ٧١ هـ اذ تحقق مصعب انه مقتول فاعز الى ابنه عيسى ان يطلب النجاة فقال « والله لا نتحدث نساء قريش افي خذلنك ورغبت في نفسي عنك » فقال « فاذهب انت ومن معك الى عمك في مكة فاخبره بما صنع اهل العراق ودعني فاني مقتول » قال « لا اخبر عنك قريشاً أبداً ولكن يا ابني الحق بالبصرة فانهم على الطاعة او الحق بامير المؤمنين » فقال مصعب « لا نتحدث قريش اني فررت » وحاربوا حتى قتلوا ^(٢)

وظلت الاريجية مرعية في اوائل الدولة العباسية فان الرشيد رفع القتل عن ربيعة بقصيدة رفعها اليه احدهم استنفض بها اريحيته في العفو عنهم ^(٣) ولما عزم المأمون على قتل ابراهيم بن المهدي وكان مصحماً على قتله فشاور فيه احمد بن ابى خالد الوزير فقال « يا امير المؤمنين ان قتلته فاك نظراه وان عفوت عنه فما لك نظير » ^(٤) فعفا عنه فلما ضعف العنصر العربي في الدولة العباسية بعد تسلط الاجناد الاتراك وتحولت الاغراض في اهل الدولة الى كسب الاموال بأية وسيلة كانت ذهبت الاريجية والنجدة على ان ذهابها بدأ من ايام ابى مسلم الخراساني ٠٠٠ فكم استجدوه واستحنوه ولم يفعل الا ما يوصله الى غرضه ؟

والشيخوخة ظلت مرعية ومحترمة الى عصر العباسيين وما بعده ولا تزال حتى الآن

المرأة في عصر الامويين

بدأت المرأة بتبديل طباعها من ايام الامويين لان العفة والغيرة اصابهما في ذلك العصر صدمة قوية بتكاثر الجوارى والغلمان وانغماس بعض الخلفاء في الترف والقصف وانتشار الفناء والمسكر فتجراً الشعراء على التشبيب والتغزل وتكاثر المختنون في المدن وتوسطوا بين الرجال والنساء بالباطل . فاخذ الفساد يفشو بين الناس وضعفت غيرة

(١) العقد الفريد ١٤٠ ج ١ وابن خلكان ١١٠ ج ٢ (٢) الاغانى ١٦٣ ج ١٧

وابن الاثير ١٥٩ ج ٤ (٣) الاغانى ٢٣ ج ١٢ (٤) ابن خلكان ٩ ج ١

الرجال وقلت عفة الناس • فقد رايت ان المرأة كانت في الجاهلية واوائل الاسلام تجالس الرجال وتخاطبهم وتذاكرهم والعرب لا يرون ذلك منكراً^(١) ولا تخامرهم فيه رية واذا توسم رجل من رجل نظرة الى امراته او اخته برية طلبه للتبارز او التجالد او المصارعة^(٢) (الدويلى) فيتصارعان حتى يصرع احدهما صاحبه • وربما انتشب القتال بين القبائل غيرة على نظرة كما حدث يوم الفجار الثاني^(٣) — حتى الشعراء فقد كانوا لا ينظمون النسيب او الغزل الا قليلاً • ويقال ان امرء القيس اول من شب بالنساء^(٤) ومهما يكن من ضعف هذا القول فهو يدل على بعد العرب الجاهلية عن الغزل لفرط غيبتهم على انهم قلما شبوا بعد ذلك الا بحبيب او خطيبة • وكانت مغازلة النساء نادرة فيهم فاذا اتفق لاحدهم شيء من ذلك اشتهر امره وذاع خبره كما اشتهر العشاق والمجانين في صدر الاسلام • وربما تعشق بعضهم رغبة في شجذ قرائحهم الشعرية • على ان تشبيهم في كل حال لم يكن عن رية او فاحشة^(٥)

وكانوا يتفاخرون بالعفة وامساك هوى النفس وقد يجتمع الحبيبان بعد طول البعد واحتدام الشوق فيجلسان ويتعاطبان ويتحدان ثم ينصرفان • واشهر الناس في ذلك بنو عذرة واكثر عشاق العرب منهم

التشبيب

فكان العرب الجاهلية قلما يشبون بغير خطيباتهم فاذا شب احدهم بفتاة قبل ان يخطبها منعه منها^(٦) وكان الخلفاء الراشدون حريصين على آداب القوم فجعلوا التشبيب ذنباً يستوجب القصاص وكان عمر بن الخطاب لا يسمع بشاعر شب بامرأة الا جلده^(٧) ونظراً لقلّة من يجسر على وصف النساء في شعره كان الشاعر اذا شب بامرأة اشتهرت فتزوج ولذلك كان بعض الاء يطلب من الشاعر ان يشب بيناته ليتزوجن

فالعرب على فطرتهم وطبيعة اقليمهم وطرق معاشهم اهل عفة والنساء يجتمعن بالرجال في المجالس والاندية على غير رية • حتى في الكعبة فكانوا يطوفون معاً لا يرون بذلك بأساً لان العفة كانت غالبية على طباعهم فلما جاءهم الترف واخذوا باطراف الحضارة وعمدوا الى

(١) الاغاني ١٨٣ ج ١ و ١٨٤ ج ٧ (٢) الاغاني ٢٦ ج ١٩ و ٥٤ ج ٦

(٣) الاغاني ٧٤ ج ١٩ (٤) الاغاني ٦٧ ج ٢ (٥) المسمودي ١٢٢ ج ٢

(٦) الاغاني ١٨١ ج ٢٠ (٧) الاغاني ٩٨ ج ٤

التسري والاستكثار من الجوارى تغيرت تلك الطباع . فلما كانت اماره خالد القسري على مكة في خلافة سليمان بن عبد الملك الاموي بلغه قول بعض الشعراء :

يا حبيذا الموسم من موقف وحبيذا الكعبة من مسجد

وحبيذا اللاتي يزارحننا عند استلام الحجر الاسود

فأمر بالتفريق بين الرجال والنساء في الطواف^(١)

وفي ايام بني امية تجرأ الشعراء على التشبيب بالنساء لاسيما في المدينة بعد انتشار الفناء فيها واقبال اهلها على القصص والاهو . ومما زاد غضبهم للتشبيب ان الشاعر اذا نظم ابياتاً تغني بها المغنون في مجالس الشرب . واول من تجرأ على التشبيب من الشعراء القرشيون واسبقهم الى ذلك ابن ابي عتيق ابن حفيد ابي بكر الهديق وكان من اهل الطهارة والعفاف وانما كان يتشبيب عن غير رية واقتدى به ابن ابي ربيعة وهو قرشي أيضاً وكان كثير النسيب والغزل ومن سمع كلامه ظنه من اجراء الناس على فاحشة وهو لم يحل ازاره على حرام^(٢) واقتدى به العرجي وهو من قريش ايضاً^(٣) ونبغ شعراء آخرون من غير قريش واخذوا يشيرون بالنساء رويداً رويداً

ولم يكن الخلفاء في اول الامر راضين عن ذلك لئلا يغلب البداوة على اخلاقهم فاخذوا بقاومون تيار الترف بكل قواهم ولكنهم كانوا يدارون الشعراء رغبة في اكتساب الاحزاب على ابدئهم فلا يمنعونهم من التشبيب الا اذا مس عرضهم ومع ذلك فالدعاة منهم كانوا يتلطفون في دفعهم . ومن لطيف ما يحكي من هذا القبيل ان عبد الرحمن بن حسان بن ثابت شبيب بابتة معاوية وهو خليفة في ابان مجده . وبلغ ذلك ابنه يزيد فغضب ودخل على ابيه وقال « يا امير المؤمنين اقتل عبد الرحمن بن حسان »

قال « ولم »

قال « شبيب باختي »

قال « وما قال »

قال « قال : ^(٤) »

طال لي لي وبنت كلحزون ومللت الثواء في جبرون

قال معاوية « يا بني وما علينا من طول ليله وحزنه ابعده الله » قال « انه يقول :

(١) المسعودي ١١٦ ج ٢ (٢) كتاب الحيوان للجاحظ ٢٨ ج ١

(٣) الاغانى ١٥٤ ج ١ (٤) الاغانى ١٤٩ ج ١٣

فلذلك اغتربت بالشام حتى ظن اهلي مرجحات الظنون
قال « يا بني وما علينا من ظن اهله » قال « انه يقول :
هي زهراء مثل لؤلؤة الغواص ميزت من جوهر مكنون
قال « صدق يا بني » قال « انه يقول :
واذا ما نسبته لم تجدها في سناء من المكارم دون
قال « صدق يا بني هي هكذا » قال « انه يقول :

ثم خاصرتها الى القبة الخضراء تشي في مرمر مستون

قال « ولا كل هذا يا بني » وما زال يزد يدكر له ما قاله فيها من التشبيب وهو يدافعه
ويظهر انه لا يرى فيه ما يستحق العقاب عليه . ثم كلفه بعض خاصته بشأنه واكبروا
جسارته وقالوا « لو جعلته نكالا » فقال « لا ولكن ادأويه بغير ذلك » وانتق ان عبد الرحمن
المذكور وفد على معاوية وكان يدخل في اخريات الناس . فاستقبله احسن استقبال واجلسه
على سريرته معه واقبل عليه بوجهه وحديثه ثم قال « ان ابني الاخرى عاتبة عليك » قال
« في اي شيء » قال « في مدحك اختها وتركك اباه » قال « فلها العني وكرامة انا
ذاكرها ومحمد » فلما فعل وبلغ ذلك الناس قالوا « قد كنا نرى ان تشبيب حسان بابنة
معاوية لشيء . فاذا هو على رأي معاوية وامره » وعلم من كان يعرف انه ليس له بنت اخرى
انه انما خدعه ليشبب بها ولا اصل لها فلم الناس انه كذب على الاولى لما ذكر الثانية .
وشبب ابو ذهل الجمحي ايضا بابنة معاوية فعامله باللين وقطع لسانه بالعطاء^(١)

فقس على ذلك سائر خلفاء بني امية وامرائهم مما يدل على غلبة طبائع البدو في
الامويين مع اخذهم باطراف المدنية واختلاطهم بالامم الاخرى وقربهم من اسباب القصف .
وكأن تلك الاسباب اخذت بمقول الشعراء فلم يكونوا يقعدون عن التشبيب مع تعرضهم
للخطر . فلما كان يجسر على ذلك غير القرشين واكثرهم جسارة عمر بن ابي ربيعة المتقدم
ذكره فانه كان يصطحب ابن سريج المغني فيركبان على نجيبين وبلقيان الحاج فيتعرضان للنساء
وينشدان الاشعار لا يباليان ان يكون فيهن بنت الخليفة او امراته

والظاهر انهم لم يكونوا يفعلون ذلك الا لما يرون من ارتياح النساء اليه لان المرأة
تفتخر بان يثني الشعراء على جمالها وان لم يرض اهله . فقد كان لعبد الملك بن مروان بنت
ارادت الحج تخاف ان يشبب بها ابن ابي ربيعة فاستكتب الحجاج اليه ان هو فعل ذلك

اصابه بكل مكروه . فلما قضت حجبها خرجت فمر بها رجل فقال له « من انت » فقال « من اهل مكة » قالت « عليك وعلى اهل بلدك لعنة الله » قال « ولم ذاك » قالت حجبت فدخلت مكة ومعني من الجواري ما لم تر الا عين مثلهن فلم يستطع الفاسق ابن ابي ربيعة ان يزودنا من شعره ابيانا نلهو بها في الطريق من سفونا » قال « اني لا اراه الا قد فعل » قالت « فأتنا بشيء ان كان قاله ولك بكل بيت عشرة دنانير » فضى اليه فاخبره فقال « لقد فعلت ولكن احب ان تكتم علي » وانشده قصيدة قالها فيها ^(١)

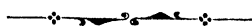
ومن اشتهر بتعرضه للنساء والتشبيب بهن في ذلك العصر الاخص كان يشب بنساء ذوات اخطار من اهل المدينة فشكوه الى سليمان بن عبد الملك فامر بالقبض عليه وجلبه ثم نفاه ^(٢) . ووضح اليمين كان يشب بام البنين امرأة الوليد بن عبد الملك وهم الوليد بقتله فدفعه ابنه عبد العزيز وقال « ان قتله فضحتني وحققت قوله وتوهم الناس ان بينه وبين امي ربية » فامسك عنه على غيظ وحنق حتى بلغه انه تعدى ام البنين الى اخته فاطمة بنت عبد الملك وكانت زوجة عمر بن عبد العزيز وقال فيها :

بنت الخليفة والخليفة جدُّها اخت الخليفة والخليفة بعلمها

فرحت فوابلها بها وتباشرت وكذلك كانوا في المسرة اهلها

فاحتنق واشتد غيظه وقال « اما لهذا الكلب مزدجر عن ذكر نساينا واخواننا ولا له عنا مذهب ؟ » ثم دعا به فاحضر وامر بيثر فحفرت ودفنه فيها حياً ^(٣)

فكانت ابام بني امية من حيث العفة والغيرة عصر انتقال من البداوة الى الحضارة . فلما انقضى عصر الامويين ذهب ما بقي من سذاجة البداوة في طبائع العرب واستسلم الناس للترف والرخاء وضعت الغيرة وايبح التشبب وشاع على السنة الشعراء حتى صاروا يضمدون به قصائد المدح والتفخر . وكان الخلفاء الاولون من بني العباس لا يزولون على مقربة من البداوة فانكروا ذلك ونهوا عنه . ومن اشد هم غيرة المهدي بن المنصور قلن بشاراً انشده مديحاً فيه تشبيب فنهاه عن التشبيب البتة فصار اذا مدحه بدأ بالمدح ^(٤) فظل التشبيب مستقبها حتى اباحه الرشيد والحر في نظمه ^(٥) قال ذلك طبعا الى ضعف الغيرة



(١) الاغاني ١٢٨ ج ٢ (٢) الاغاني ٤٨ ج ٤ (٣) الاغاني ٤٠ ج ٦

(٤) الاغاني ٤١ و ٥٨ ج ٣ (٥) الاغاني ١٦٠ ج ٣

الآداب الاجتماعية

في العصر العباسي

قد رأيت ما اصاب المناقب العربية الفطرية من التغيير بعد الاسلام بما طرأ عليها من عوامل الحضارة والانغماس في الرخاء والقصف والاختلاط باهل المدن فغلبت عليهم الضمة وركنوا الى بسطة العيش والتنعم بمطالب الحياة الحيوانية وزادهم العلم والفلسفة والطب تباعداً عن البداوة وخشونتها وسذاجتها وقضت سياسة العباسيين بمراعاة الفرس وغيرهم ممن نصروهم في قيام دولتهم وتشنيت شمل العرب فذهبت العصبية العربية . واستلزمت رغبتهم في بقاء دولتهم العدول الى الفتك والغدر على ما فصلناه في الجزء الرابع فذهبت مناقب العرب ولم يبق من الوفاء والشجاعة والاستقلال والافتة والعصبية والنجدة الا آثار ضعيفة

المرأة في العصر العباسي

وآل تكاثر الجوارى وشيوع التسري الى ذهاب الغيرة من قلوب الرجال حتى صاروا يتهادون الجوارى الروميات والتركيات والفارسيات وهن اجمل صورة واشرق وجهاً من نساء العرب . فبعد ان كان الرجل لا يعرف غير امرأته والمرأة لا تفكر في غير زوجها وهي واثقة بامانته فاذا هو قد تشننت عواطفه بين عدة نساء فقلت غيرته عليها . ولما رآته مشغولاً عنها قلت ثقتها به الا من عصمها عقلها وشرفها . فلم ينضج التمدن في العصر العباسي حتى توسيت المرأة العربية في المسدن وذهبت حريتها وغيبتها وصارت هي نفسها تهدي زوجها الجارية وتحب اليه القرب منها لا يهتمها ذلك ولا تغار منه^(١) وبعد ان كان العرب في الجاهلية وصدر الاسلام اذا علموا بحب رجل فتاة منعوه من زواجها صاروا يساعدونه في الحصول عليها^(٢)

فانفض ذلك الى انحطاط المرأة وذهاب عزة نفسها واستقلال فكرها فاحتقرها الرجل وساء الظن بها وصار يعدّها عدوة له ويوصي بعدم الاركان اليها فيعاشرها على غلّ وسوء رأي يقفل عليها الابواب والنوافذ ويسد في وجهها الطرق والمسالك ويمنعها من الخروج او الكلام وهو صاحب الذنب في انحطاطها . فاصبح الطعن في طباع المرأة وسوء سريرتها شائعاً على السنة الناس حتى القوا فيه الروايات والاقايص ونظفوا فيها الشعر وتفننوا في وضع

(١) الفرج بعد الشدة ١٨٣ ج ٢ (٢) تزيين الاسواق ١٢٢

الجل الحكيمية والعبارات البليغة في تحذير الناس من المرأة وعدم الوثوق بها . وهذه قصة الف ليلة وليلة تمثل حال المرأة في الاعصر الاسلامية الوسطى بعد شيوع التسري وانقاس المسلمين في الترف . واما الاشعار فاليك ما قاله ابو العلاء المعري :

اذا بلغ الوليد لدهك عشراً فلا بدخل على الحرم الوليد
وان خالفتني واضعت نصحي فانت وان رزقت حجا بليد
الا ان النساء حبال غيَّ بهنَّ يضيع الشرف التليد^(١)
واصبح الكاتب اذا أراد تعزية صديق على فقد بنت له قال ما قاله ابو بكر الخوارزمي اذ كتب الى رئيس بهراه يعزيه بينته وهو قوله :

« ولولا ما ذكرته من سترها . ووقفت عليه من غرائب امرها . لكنك الى التهينة اقرب من التعزية . فان ستر العورات من الحسنات . ودفن البنات من المكرمات . ونحن في زمان اذا قدم احدنا فيه الحرمه . فقد استكمل النعمة . واذا زف كريمة الى القبر . فقد بلغ امنيته من الصهر قال الشاعر

ولم ار نعمة شملت كريماً كنعمة عورة سترت بقبر

وقال آخر

تهوى حياتي واهوى موتها شفقاً والموت اكرم نزال على الحرم

وقال آخر

وددت بني في ووددت اني وضعت بني في لحد قبر

وقال آخر

ومن غاية المجد والمكرمات بقاء البنين وموت البنات

وقال آخر

سميتها اذ ولدت تموت والقبر صهر ضامن ويدت^(٢)

هذا مثال من اراء ادباء المسلمين وشعرائهم في المرأة بين القرنين الرابع والخامس للهجرة فلم يبق من المناقب العربية في العصر العباسي الا السخاء لانه كان لازماً لقوام الدولة وسلامتها وتأييدها بل هو كان من اهم قواعد الارتزاق في ذلك العصر

الارتزاق بالسخاء

ان الارتزاق في التمدن الحديث مبني على قواعد اقتصادية عمرانية تحفظ توازن القوى ونتائجها فينال الانسان من رزقه على مقدار كده وجده مع اعتبار درجة عقله وذكاؤه سواء كان ذلك بالتجارة او الزراعة او الصناعة او غيرها . وقد وضعوا لكل من ابواب الرزق قواعد في تقدير الارباح لا تنمداها الا في احوال خصوصية ترتفع فيها الاسعار فجأة كما حدث بمصر لهذا العهد . وفي كل حال فالصانع تقدر أجرته بقدر عمله والتاجر يقدر ربحه بنسبة رأس ماله

اما في التمدن الاسلامي فقد كان الارتزاق بقرب من ذلك في طبقة العامة من المزارعين والباعة واهل الصناعات . واما في الخاصة واتباعهم فكان على اسلوب آخر لا مثيل له بين التمدنين في هذا العصر ومداره « السخاء » المتسلسل من الخلفاء فالوزراء فما بعدهم ممن يعيشون حول البلاط ويرزقون من رجال الدولة . ومصدر هذه الارتزاق بيت المال وهو في قبضة الخليفة او من يقوم مقامه من الوزراء او القواد او الامراء على حسب اطوار النفوذ . والاموال تأتي بيت المال من جباية الخراج والجزية . وقد رأيت في الجزء الثاني من هذا الكتاب (صفحة ٦٤ و ٧٠) ان متوسط جباية الدولة في العصر العباسي الاول بلغ نحو ٣٦٠ مليون درهم في العام لا ينفق منها على مصالح الدولة اكثر من ٥٠ مليوناً فالباقي نحو ٣١٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم تبقى في بيت المال تحت تصرف الخليفة واكثرها من جباية الخراج وكان الخراج في العصر المذكور ثقيلاً لانهم كانوا يقاسمون الناس غلاتهم بالنصف او الثلث وذلك في نظر اهل هذا الزمان ظلم ولكن اهل ذلك العصر لم يشعروا بثقله بل كانوا يعدونه رفقاً لان العباسيين نقلوا الخراج من المساحة الى المقاسمة فبعد ان كان الحكم قبلهم يقضون خراج الارض زرعت ام لم تزرع حصروا الخراج في الارض المزروعة وجعلوه شطراً من غلتها ^(١)

سنة العرب في الارتزاق

والاموال التي تبقى في خزانة الدولة يعطى بعضها رواتب لموظفيها ويفرق سائرها في من بقي من الخاصة بين جوائز ورواتب فتتسع احوالهم بالجاء اكثر مما بالمال فيضطرون الى الاتفاق لحفظ مقامهم . فينفقون على من يتعلق بهم فينتقل المال على هذه الصورة من الخليفة

وزرائه وعماله الى حواشيهم واتباعهم ومن هؤلاء الى الباعة واهل الاسواق فيعود الى العامة كانه لم يؤخذ منهم . وهي سنة في الارتزاق تظهر لاول وهلة انها من خصائص التمدن الاسلامي ولكنها كانت على نحو ذلك في التمدن القديم . فاهل اثينا وهم خاصة اليونانيين كانوا لا يعملون عمالاً ولا يجترفون حرفة في سبيل الرزق وانما كانت ارزاقهم من خزينة الدولة يتناولونها رواتب في اوقات معينة او هبات في اوقات غير معينة على مقتضيات الاحوال او على ما يلحقهم من الغنائم ونحوها . ولم يكن لهم شغل غير سماع الخطب السياسية او العلمية والتمشي في حدائق المدينة وحضور الاحتفالات الرسمية ونحوها^(١) ولكن ذلك كان محصوراً في اثينا او غيرها من العواصم الكبرى . اما المسلمون فتوسعوا فيه حتى شمل كل مدينة وكل طبقة لتمكن السخاء في نفس العربي ولان هذه السنة كانت شائعة عند العرب من ايام الجاهلية . فامير القبيلة كان يغزو بقبيلته فاقبل له من مال وماشية فرقه في كبار رجاله وهؤلاء يفرقونه في اهلهم واتباعهم ولذلك ذكروا من سنن العرب في الارتزاق انهم « نهايون وهابون »^(٢) وكان العرب يكرهون اختزان الاموال وיעدون قبيحاً^(٣)

والسبب في بقاء هذه السنة مع ذهاب غيرها من المناقب انها لازمة لبقاء الدول في تلك العصور وخصراً في الاسلام منذ طمع بنو امية بالخلافة واستخدموا الاموال في ابتغاء الاحزاب واسترضاء كبار الرجال فعودوا الناس العطاء فلما قام العباسيون لم يستطيعوا الرجوع عنه بل تجاوزوه من بعض الوجوه فصار السخاء ضرورياً لقيام الدولة والا فسد عليها حمايتها وقرّدت اهلها

وكان الصحابة في عصر الراشدين لا يرون اختزان المال جرياً على سنة العرب أو عمالاً بحديث رواه قيس بن عاصم بهذا المعنى وهو قول النبي « نعم المال الاربعون والاكثر الستون وويل لاصحاب المئين »^(٤) ولذلك كان الخلفاء الراشدون لا يبقون في بيت المال شيئاً . على ان المسلمين في ايامهم كانوا مشغولين بما بين ايديهم من الغنائم وكانوا لا يزالون في دهشة النبوة والاخلاص في الجهاد والخروج في ايامهم معتدل فلم يكن بفيض منه شيء كثير فلما طمع الامويون بالملك اتخذوا كل وسيلة في جمع المال والاستنثار منه وزادوا اعطيات الجند ووهبوا واجازوا وضاعفوا رواتب ابناء الصحابة وغيرهم من القرشيين اصحاب النفوذ فكان

هوؤلاء يتوسعون في الاتفاق ببناء القصور واقتناء الخدم والجواري ومهبون الشعراء والندماء والحاشية والاتباع فيذهب ذلك المال كما أتى

كذلك كان يفعل عبيد الله بن عباس وعبد الله بن جعفر وسعيد بن العاص ^(١) فيفقد احدهم على معاوية أو يزيد فيؤدي له عطاءه وربما اهداه هدية سنوية فيعود الى بلده ويفرق المال جميعه في اهله واعوانه ^(٢) وكان الخلفاء يعرفون ذلك ويعدون عطاءهم لمؤلاء عطاء لاهل المدينة ^(٣) وليس ذلك خاصاً بنبئة منهم بل كان شاملاً الاكثرين حتى النساء من بنات الصحابة كسكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة وغيرها فكانت عائشة هذه تنفذ على الخليفة وربما كانت في ضيق فيشكو اليه فراغ يدها فيأمر لها بمئة الف درهم مثلاً فلما تعود الى الحجاز يأتيها الشاعر أو الفارس فتعطيهم الالف بعد الالف حتى تستنفد ما جاءت به ^(٤) — حتى الشعراء كانوا يبذلون بعض جوائزهم في من حولهم ولذلك كانوا مع كثرة ما يصل الى ايديهم من المال لا يزالون مديونين ويموت اكثرهم فقراء ^(٥)

ولما افضى الامر الى العباسيين ساروا على هذه السنة في الاعطيات والجوائز وزادوا مقاديرها لتوفر الثروة في ايامهم . وكان اصحابها يفرقونها في الناس . فموسى الكاظم كان يقيم في المدينة ويفد على بغداد فيرده المهدي مثقلاً بالاموال فلما يصل الى المدينة يجعلها صرراً يفرقها في اهله ^(٦) وكانوا يفعلون ذلك مع العمال والكتّاب والشعراء والمغنين وهوؤلاء ينفقون المال بالسخاء على تفاوت في درجاته وسائر احواله . وربما انفقوا بعضه في حاشية الخليفة او غلمانه ^(٧) ليسهلوا لهم الدخول عليه

استرضاء العامة بالطعام

فكان الخلفاء او الامراء يعدون السخاء على العامة والخاصة فرضاً يؤيدون به سلطتهم . اما العامة فكانوا يسترضونهم ببسط اساليب السخاء وهو الضيافة فكانوا يتصبون لهم الموائد بدعوتهم الى الطعام فيجتمع على مائدة الامير الواف من العامة يأكلون معاً صباحاً ومساءً — ذلك كان دأبهم من عصر الراشدين جروا به على سنة العرب ثم احتاجوا اليه بعد الاسلام في استرضاء القبائل المختلفة فبالغوا فيه حتى نصبوا الموائد

(١) العقد الفريد ٨٥ ج ١ (٢) المسعودي ١١١ ج ٢

(٣) العقد الفريد ١١٠ ج ١ (٤) الاغانى ٦١ ج ١٠

(٥) الاغانى ١٢٠ ج ٥ و ١٥٦ ج ١٧ (٦) ابن خلكان ١٣١ ج ٢

(٧) الاغانى ٨٤ ج ٥ و ٤٦ ج ٣ و ١١ ج ١٢

على الطرق واول من فعل ذلك عبيد الله بن عباس^(١) واشتهر في صدر الاسلام غير واحد من الاجواد ممن كان يقبضون الاعطية الكبيرة من خلفاء بني امية فينفقونها في البذل والسخاء وقد تقدم ذكرهم

وجرى الدهاء من عمال الامويين على هذه السنة فنصبوا الموائد على الطرق فكان الحجاج يضع في كل يوم من ايام رمضان الف خوان وفي سائر الايام خمسمائة خوان على كل خوان عشرة انفس وعشرة الوان وسمكة مشوية طرية وارزة بسكر وكان بدور هو بنفسه على الموائد بتفقدتها يحملونه اليها في محفة وينقلون به من خوان الى خوان فاذا رأى ارزة ليس عليها سكر امر الخباز ان يجيء بسكرها فاذا ابطأ حتى اكملت الارزة بلا سكر امر به فضرب ٢٠٠ سوط وكذلك كان يفعل عمال الحجاج في سائر المدن فكان بعضهم ينصب الموائد مرتين في اليوم للغداء والعشاء^(٢) وكان يوسف بن عمر عامل هشام بن عبد الملك ينصب خمسمائة خوان^(٣) وكان يزيد بن هبيرة يضع الف خوان بطعم الناس^(٤) وقس على ذلك سائر العمال وغيرهم كابن طولون بمصر فقد كانت له موائد يحضرها الخاص والعام^(٥) وربما فرقوا الطعام بلا موائد كما كان يفعل لؤلؤ الحجاب في ايام الفاطميين بمصر فانه كان يفرق ١٢,٠٠٠ رغيف مع قدر الطعام كل يوم واذا دخل رمضان اضعف ذلك ويقف هو بنفسه ليفرقه^(٦)

غير ما كانوا يبذلونه في استرضاء العامة من الاموال على سبيل الصدقة فكان لكل من الخلفاء والامراء والوزراء مال ينفقه صدقة كل يوم على ما قدمناه في الجزء الثاني من هذا الكتاب وربما فعل بعضهم ذلك لمجرد الرغبة في الاجر او عملاً بمقتضى الارباحية واطعام العامة على هذه الصورة لم يكن خاصاً بالمسلمين وانما هو ايضاً من سنن الاعصر الغابرة . فقد كان العامة في رومية يعيشون من اطعمة يفرقها فيهم اهل الدولة من الدقيق والقمح وكان بعض ملوك الفرس ينصب ٥٠٠ مائدة يجعل على كل واحدة نصف شاة وجام حلوى او عسل وعشرة ارغفة وآنية شراب او لبن وسمكة مصنوعة^(٧) والمسلمون جروا على هذا الترتيب اقتداءً بالفرس مثل اقتدائهم بهم في كثير من ادابهم الاجتماعية

(١) العقد الفريد ٨٣ ج ١ (٢) العقد الفريد ٦ ج ٣ وابن خلكان ٨٢ ج ١

(٣) العقد الفريد ٦ ج ٣ (٤) ابن خلكان ٢٧١ ج ٢

(٥) ابن خلكان ٥٥ ج ١ (٦) المقرئ ٨٥ ج ٢

(٧) ترتيب الدول ١٢٠

واما الخاصة او من جري مجرام من المقربين غير الموظفين فكان الخلفاء يهونهم الهبات او يعينون لهم الرواتب لتقييد ارادتهم^(١) كما تقدم ولذلك كان اهل الانفة يكرهون صلات الخلفاء ويبعدون عن جوائزهم رغبة في الاستقلال واكثر ما يقع ذلك لاهل البادية الذين لم تذلم الحضارة ولا سيما بعد نكبة البرامكة فقد طال حديث الناس يومئذ بامرهم وغلب على اعتقادهم ان من يثري من هبات الخلفاء تكون حياته في خطر — ذكروا ان بدويًا عبرته امرأته بفقره لبعده عن جوائز الخلفاء الى ان قالت « هذا فلان قد أخذ الاموال فخلى نساءه وبنى داره واشترى ضياعًا وانت ههنا كما ترى » وكانت امرأته باهلية فانشأ يقول :

تلوم على ترك الغنى باهلية ذوى الفقر عنها كل طرف وتالد
رأت حولها النسوان يرفلن في الثرى مقلدة اعناقها بالقلايد
أسرّك اني نلت ما نال جعفر من العيش او ما نال يحيى بن خالد
وان امير المؤمنين اغصني بغصهما بالمشرفات النوارد
رأيت رفيفات الامور مشوبة بمستودعات في بطون الاساود
دعيني تحييني منيتي مطمئنة ولم اتجشّم هول تلك المساورد^(٢)
الهبات والدين

على ان الفقهاء واهل التقوى كانوا في صدر الاسلام واوائل دولة بني امية يبعدون صلات الخلفاء رشوة وبترددون في قبولها فما لبثوا ان ذاقوا حلاوتها حتى صاروا يتفاخرون بنيلها قال ذو الرمة :

وما كان مالي من تراث ورثته ولا دية كانت ولا كسب مأثم
ولكن عطاء الله من كل رحلة الى كل محبوب السراقد خضرم^(٣)

ثم صاروا يتزلفون الى اصحاب الاموال ويستجدونهم رغبة في الارتزاق . فبعضهم ينال رزقه صلة او جائزة وآخرون يقبضونه راتبًا معينًا وهؤلاء على الغالب من اهل البأساء وياتهم وارااملهم^(٤) او زعاء القبائل ورؤساء الاحزاب على ما يوافق مصلحة الخليفة او الامير او يتوسم فيه الاجر والثواب . فكان بعضهم يفرض الفروض لاولاد الانصار والمهاجرين وغيره يعطي العلويين او الطالبيين وغيره يعطي قريشًا او اليمن وقس عليه . فكان علي بن عيسى وزير المقتدر يعطي الطالبيين والعباسيين وابناء الانصار^(٥) وكان ابن الفرات يعطي

(١) الاغانى ١٥٤ ج ١٧ (٢) الاغانى ٩ ج ١٢ (٣) العقد الفريد ٧٨ ج ١

(٤) ابن الاثير ١٥٤ ج ٦ (٥) تاريخ الوزراء ٣٢٣

الفقهاء والعلماء والفقراء واهل البيوتات اكثرهم مائة دينار في الشهر واقلمهم خمسة دراهم وما بين ذلك ^(١) وكان لكافور الاخشيدي بمصر مال خاص يجري منه الارتزاق على من يأتيه ناقةً على الخليفة ببغداد او غيره ^(٢)

ولهذه الاسباب كان الخلفاء يستحلون اجازة الشعراء وغيرهم من بيت المال لانهم يعدون ذلك في سبيل مصلحة الدولة وان لم يصرحوا به دفاعاً عن انفسهم بل كانوا اذا سمعوا الانتقاد عليهم من اهل النفوذ الديني سكتوا واسترضوهم ودافعوا عن انفسهم كما فعل الرشيد والمهدي بسفيان الثوري ^(٣)

ارتزاق الكبير من الصغير

ذلك ما يقال في ارتزاق الصغير من الكبير في التمدن الاسلامي اما ارتزاق الكبير من الصغير فقد كان بعضه بالسخاء ايضاً ولكن على سبيل الهدية فيعدون عطية الامير الى الصغير جائزة او صلة ويسمون ما يقدمه الا صاغر الى الامير او الوزير هدية . وكانت الهدايا شائعة على الخصوص في العصر العباسي فاذا تولى الامير على بلد فاول ما يدخلها يبعث اهلها اليه بالهدايا من الاموال والجواري والدواب والثياب ^(٤) وهو يبعث الى الوزير الذي ولاه او الخليفة بالاموال بسبيل الهدية ايضاً واذا طال مقامه اصحبت تلك الهدايا فرضاً واجباً يبعث بها كل سنة فاذا امسكها سنة عدوا امساكه تمرداً ^(٥)

فالسخاء كان سنة عامة في عهد ذلك التمدن لا يستثنى منه عصر او طائفة وان تفاوتت مقاديره واختلفت صورته واشكاله باختلاف العصور . فكانت العطايا في اول عهد الامويين الابل والخليل والماشية فيأمر الخليفة او الامير لمن يستجديه بلقحة وفحلها وراعيها أو جارية وفرس غير ما فرضوه من الاعطيات فانها كانت تعطى عيناً او ورقاً — ثم صارت في اواسط الدولة تحوت الثياب من الوشي ونحوه والوصائف فضلاً عن النقود وصارت في بني العباس البدر من الدنانير وعقود الجوهر وتحوت الديقي والقصور والضياع وغيرها

(١) ابن خلكان ٣٧٢ ج ١ (٢) الفرج بعد الشدة ١٤٢ ج ٢

(٣) سراج الملوك ٥٦ وراجع الجزء الثاني من هذا الكتاب صفحة ١٤١

(٤) ابن الاثير ٥١ ج ٦ (٥) ابن الاثير ١٢١ ج ٧

المجاملة في المعاملة

المجاملة من الطباع الراسخة في نفوس المسلمين وغيرهم من مولدي العرب اليوم . وذهب بعض الباحثين انها فطرية في اصل ارومتهم وما هي كذلك وانما تولدت فيهم بتوالي الاجيال وتقلب الاحوال . لان العرب كانوا مفتورين على استئلال الفكر وحرية القول كما رأيت وظلوا على ذلك الى انتضاء عصر الراشدين ثم اخذت افكارهم بالانحباس وعقولهم بالنقيد من عصر الامويين لما اقتضاه طمع بني امية في الملك من الشدة والحيلة فاضطر الناس للمداجاة والتقويه . وكان الخلفاء من الجهة الأخرى يداجون الناس ويحاولونهم رغبة في نصرتهم او قطع السنهم ويعدون ذلك « حيلًا »

واشهر الحيلاء واقدمهم معاوية بن ابي سفيان فقد ذكرنا في الجزء الرابع صفحة ٦٦ انه كان يسمع طعن اهل البيت وغيرهم من رؤساء الاحزاب فيه وفي دولته ويغضي وربما احسن الى الطاعنين . وتظاهر بالاستخفاف كما فعل بشعبة بن غريص وكان في الكعبة ومعاوية هناك فبعث اليه بدعوه فاتاه رسوله فقال « أجب امير المؤمنين » قال « اوليس قد مات امير المؤمنين » (يعني عليًا) فقال له « اجب معاوية » فأناه ولم يسلم عليه بالخلافة فقال له معاوية « ما فعلت ارضك التي بتياء » قال « يكسى منها العاري ويرد فضلها على الجار » قال « اتبعها » قال « نعم » قال « بكم » قال « بستين الف دينار ولولا خلة اصاب الحى لم ابعا » قال « لقد اغليت » قال « اما لو كانت لبعض اصحابك لاخذتها بستائة الف دينار ثم لم تبال » قال « أجل واذا بخلت بارضك فانشدني شعر ابيك يرثي نفسه »

فانشده تلك الايات فاعجب بها معاوية وقال « انا كنت بهذا الشعر اولى من ابيك » قال « كذبت ولؤمت » قال « اما كذبت فنعم واما لؤمت فلم » قال « لانك كنت ميت الحق في الجاهلية وميته في الاسلام اما في الجاهلية فقالت النبي صلى الله عليه وسلم والوحي حتى جعل الله كيدك المردود واما في الاسلام فمنعت ولد رسول الله الخلافة وما انت وهي وأنت طليق ابن طليق » فقال معاوية « قد خرف الشيخ فاقيموه » فاخذ بيده فاقيم وكان معاوية اذا اعجزه اصطناع الاحزاب بالعتاء او بالحلم او بالسيف جهاراً

عمد الى قتلهم غيلة وكان انصاره يعرفون ذلك فيه . وانه يصانهم ليغلب بهم فكانوا يصانونه طمعاً بالمال او منصب فكانت المصانعة والمداجاة اساس سياسة معاوية . وقد قواها واستثمرها بدوائه وحزمه ففاز وتحدث المسلمون بجلحه وسعة صدره وجعلوه قدوتهم والناس على دين ملوكهم . فكثير الميل الى المصانعة في ذلك العصر وهي على الغالب بين الدولة ورجالها — على ان الارباحية كانت تحول دون تمكثها

فلما قام الفرس لمناهضة الامويين ونصرة العباسيين اغضى ابو مسلم عن الوفاء والارباحية وقتل على التهمة فاصبح الناس يخافون على حياتهم وان لم يقترفوا ذنباً . فزادت حاجتهم الى المصانعة . ولما فاز ابو مسلم بحربه وسلم مقاليد الدولة الى العباسيين كانت فوزى بينهم وبين العلويين فلما تقلدها المنصور وطمع باستخلاصها للعباسيين فتك بابي مسلم ثم قتل من قتله من العلويين وغيرهم فضاغت القلوب بين العباسيين والفرس وبينهم وبين العلويين وهم لا يستغنون عن الفرس لنظام حكومتهم وحماية دولتهم فاستخدموهم على غلٍ ولجأوا في الاحتراس منهم واثقاء اذاهم الى الجاسوسية فبشوا الارصاد على وزرائهم وعالمهم يستطلعون اخبارهم ويبعثون بها اليهم سرّاً والارصاد نوعان الاول اصحاب البريد في الاطراف والعمال يعملون انهم رقباء على اعمالهم . والثاني العيون الخفية يتخذونهم من الجوّاري والغلمان مما يقدمه الخليفة هدية الى وزيره او عامله فيوليهم الوزير بعض شؤون منزله فيدخلون في جملة الندماء او المغنين او القيان او اصحاب الشراب ويكونون رقباء عليه ينقلون اخباره سرّاً الى الخليفة . وكان الوزراء يفعلون نحو ذلك بالخلفاء

فشيوخ الجاسوسية على هذه الصورة مع المضاجعة والتحاسد بعث على المصانعة والمجاملة وازداد ذلك على الخصوص بعد ذهاب الارباحية وزوال الانفة وعزة النفس من العرب على اثر تضعف العنصر العربي وتغلب العناصر الاعجمية مع تنافس اصحاب المطامع من هؤلاء في اواسط الدولة العباسية بابتزاز الاموال . واعتبر ما عقب ذلك من الاستبداد والظلم بعد ان فسدت الاحكام في الدول الاسلامية واستبد السلاطين والامراء غير العرب بمن اقام في ممالكهم من اهل اللسان العربي ويسمونهم عرباً وهم اخلاط من مولدي الامم الأخرى . فلجأ هؤلاء بطبيعة العمران الى المجاملة والمصانعة على نحو ما هو حالهم اليوم — الا الذين اتونا السيادة وتوفرت لهم السطوة ونفوذ الكلمة احياناً متوالية



العائلة في التمدن الاسلامي

كانت العائلة في اواسط التمدن الاسلامي نحو ما هي عليه اليوم وقوامها المرأة وقد تقدم الكلام عليها فلان طيل القول في ذلك الآن وانما نقول كلمة في بعض خصائص العائلة الاسلامية كالحجاب وتعدد الزوجات والطلاق

١ - الحجاب

اذا كان المراد بالحجاب ستر العورة كالتحار ونحوه فهو ليس من محدثات الاسلام بل هو قديم كان شائعاً قبل النصرانية ولم تغير النصرانية شيئاً منه وظلّ معروفاً في اوربا الى الاجيال الوسطى وما بعدها ولا تزال آثاره باقية في اوربا الى الآن
واذا اريد به حبس المرأة في بيتها ومنعها من مخالطة الناس فهو من ثمار التمدن الاسلامي لانه لم يكن شائعاً قبله . على انه لم يبلغ الحد الذي بلغ اليه من الشدة والدقة الا بعد فسخ المدينة وتمكن الحضارة من نفوس المسلمين واركبهم الى الترف والرخاء وقد رأيت في كلامنا عن المرأة البدوية انها كانت مساوية للرجل حتى نبغ من مضارب البادية نساءً اشتهرن بالشجاعة والاقدام والحزم والرأي والتجارة والادب والشعر وغيرها . فلما انتشر الاسلام وكثرت الجوارى وشاع التسري في المسلمين اختلفت الظنون بين الرجل والمرأة فقلت غيرته عليها وساء كل منهما الظن في صاحبه والرجل صاحب العصمة ورب العائلة فضيق على المرأة الدروب واقام عليها الارصاد والعيون من اوائل الدولة الاموية اذ اتخذوا الخصيان من العبيد ثم استقدموا الصقالبة البيض

فالحجاب الضيق على نحو ما شاع في العائلات الاسلامية بالشرق سببه سوء ظن الرجل واستبداده باهل بيته واستثثاره بالمذات لنفسه وليس هو من مقتضيات الاسلام كما يتبادر الى الاذهان . ولوراجعت ما جاء في القرآن من هذا القبيل لرأيت تفسيره اقرب الى ما يراد من رفع الحجاب . ولكن الناس تعودوا ان يفسروا الآيات الدينية بما يوافق عاداتهم او اغراضهم او اميالهم . اعتبر ذلك في كل دين تمدن اهله وعمدوا الى تفسير كتيبه — فكذب النصراني مثلاً ليس فيها نص صريح يمنع عامتهم من التزوج بامراتين فاكثروا ولكن الكنيسة رأت الاقتصار على امرأة اقرب الى سعادة العائلة ونظام الاجتماع فاستخرج رؤساء الدين ذلك من بعض القرائن بالتفسير والتأويل . والمسلمون لما استكثروا من الجوارى

وساءت الظنون بينهم وبين نسائهم ارادوا الحجر عليهن ولم يعدوا تفسيراً يساعدهم على ما ارادوا والخسوف وضيقوا عليها . واعتقدت هي بتوالي الاجيال انه يحل للرجل ما لا يحل لها فصبرت عليه وخافته ولكنها لم تحبه . تخافها وحبسها وجعل بينه وبينها حاجزاً وغادرها تتجالس الخدم والعبيد والجواري واصبح لا يؤاكلها ولا يجالسها ولا يحادثها الا نادراً واعلن ارتياحه من امانتها واصبح يفتخر بانها لا تخرج من منزلها الا الى القبر

على ان ظلم المرأة على هذه الصورة واحتقارها يخالف لتعاليم القرآن لانه يأمر بالمودة والرحمة بين الزوجين وهذا نص الآيه « ومن آياته ان خلق لكم من انفسكم ازواجاً لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودةً ورحمةً » وقوله « ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف » وقوله « وعاشروهن بالمعروف » ولكن الرجل ابى الى الاستبداد والاستئثار ولا سيما بعد انقضاء عصر العلم اذ اقتصر الفقهاء على النظر في الابحاث الدينية الجدلية وخيم الجهل على العقول كما اصاب النصرانية في الاجيال المظلمة فآخذوا يفسرون الآيات والاحاديث على ما يوافق اميالهم واهواءهم . وكانت الاحكام قد فسدت واستبد الحكم في الناس فعادت عاقبة ذلك على المرأة المسكينة

لان الرجل في طور الظلم يتحمل بطش الحاكم وعدفه ويكظم ما في نفسه حتى اذا جاء منزله عامل اهل . مثل معاملة الحاكم له انتقاماً لنفسه - تلك سنة من سنن العمران على اختلاف اطوار التمدن . فبالبلاد التي يتولاها حاكم ظالم يقتدي به ارباب العائلات بظلم نسائهم واولادهم واما في الحكم العادل فالمرأة تنال حقوقها والرجل يعدل في حكومته . فاليوت دولة صغيرة تمثل دولة الامة

وما زالت المرأة المسلمة في نحو ما تقدم الى اوائل هذه النهضة والمسلمون سكوت حتى تصدى بعض ارباب الافلام من المسلمين في اواسط القرن الماضي ونددوا بالحجاب وعواقبه وحرصوا اخوانهم على تركه . واقدم من فعل ذلك على ما نعلم المرحوم الشيخ احمد فارس الشدياق فكثرت الفصول الضافية في الجوائب بالاستانة ثم كتب غيره فصولاً لا تنفي غليلاً . حتى ظهر كتاب تحرير المرأة في آخر القرن المذكور لصاحبه قاسم بك امين فوفى الموضوع حقه ولم يترك مجالاً لسائل

٢ - تعدد الزوجات

ومن آفات العائلة الاسلامية تعدد الزوجات وهي ان يتخذ الرجل زوجتين الى اربع والشريعة الاسلامي يجيز له ذلك بشرط اذا روعي حق رعايته لم يتخذ الرجل الا زوجة

واحدة . لان الآية التي تجيز تعدد الزوجات تشترط ان يعدل الرجل بينهما فاذا خاف ان لا يعدل فيقتصر على واحدة وهذا نص الآية « فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فان خفتم ان لا تعدلوا فواحدة » وفي محل آخر « ولن تستطيعوا ان تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة » فاذا جمعت بين الاثنين رأيت نحوها اقرب الى النهي عن تعدد الزوجات مما الى الامر به . ولذلك رأيت الغالب في العقلاء واهل المروءة ان يكتفوا بزوج واحدة وكان ذلك سهلاً في عصر التسري اذ قد يأتي النسل من بعض الجواري فلا يجد الرجل ضرورة للاضرار برغبة في النسل . على ان تعدد الزوجات ظل متبعاً حتى في اهل الفضيلة والتعقل الى اليوم ولكن على قلة . واذا احصي المتزوجون بغير امرأة لا نظهم يزيدون على خمسة في المئة او عشرة من مجموع المتزوجين وهم في الغالب من العامة واذا كانوا من الخاصة فانما فعلوا ذلك لاسباب قهرية

ومن اجاز تعدد الزوجات ذهب الى تفسير « العدل » بالعدل في النفقة لا في المحبة على ان كثيرين من اهل الوجاهة والشرف في الاجيال الاسلامية الوسطى كانوا يجمعون بين التسري وتعدد الازواج والغالب ان تكون السيادة للمرأة الأولى وان اختلف ذلك باختلاف الاحوال — ولكن المرأة العاقلة النقية كانت تعد اهداء زوجها ما يرضاه من الجواري الحسان فضيلة كما فعلت ام جعفر بالرشيد لتشغله عن الجارية دنانير

وقد تساعد المرأة النقية زوجها في الزواج بامرأة أخرى لتوقع من مسعاها في ذلك ثواباً — روى الشيخ الجبرقي المؤرخ المصري عن احدى ازواج ابيه قال انها كانت من الصالحات المصونات وكانت بارة بزوجها ومطبعة له . ومن جملة برّها له انها كانت تشتري له من السرايري الحسان من مالها وتنظّمهن بالحلي والملايس وتقدمهن اليه وتعتقد حصول الاجر والثواب لها بذلك وكان يتزوج عليها كثيراً من الخرائر فلا يسوءها فعله ولا يحصل عندها ما يحصل عند النساء من الغيرة ^(١)

٣ — الطلاق

ويقال عن الطلاق ما يقال عن تعدد الزوجات فالعقلاء يذهبون الى كره الطلاق بناءً على بعض الآيات الواردة في هذا الشأن كقوله « وان خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من اهل وحقاً من اهلها ان يريدوا اصلاحاً يوفق الله بينهما » وقوله « فان كرهتموهن فعسى ان تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً » وفي الحديث « ابغض الحلال عند الله

الطلاق « ومع ذلك كان بعض كبار الصحابة يكثرون منه أكثرًا مدهشًا كما فعل الحسن ابن علي بن ابي طالب فانه تزوج ٢٥٠ امرأة وقيل ٣٠٠ وكانت ابوه يضجر من ذلك ويكرهه حياء من اهلين وكان يقول في خطبه « ان حسنًا مطلق فلا تزوجه » وبليه المغيرة بن شعبه فقد تزوج نحو هذا العدد ^(١) على ان الطلاق ما زال مكروهًا كما رأيت من كلام الامام علي . واهل الانفة والفضل لا يطلقون الا لعلة كبيرة او عذر شرعي . ولو احصيت حوادث الطلاق لرأيت اكثرها في طبقات العامة

ومما ساعد على تكثر حوادث الطلاق المبالغة في الحجاب فيتزوج الشاب الفتاة وهو لم ير وجهها فاذا لم توافقه هان عليه طلاقها لانه لم يرض الزواج على هذا الشرط الا لعله بسهولة التخلص من زوجته اذا لم تعجبه . وهذا التضيق ليس من الدين في شيء لورود عدة احاديث تجيز للرجل ان يرى خطيبته قبل الزواج واحاديث تأمر بربوبيتها صريحًا ^(٢) فلو عملوا بذلك لقلت البواغث على الطلاق . على ان للطلاق في بعض الاحوال فوائد اجتماعية حرمتها الطوائف التي لا طلاق عندها



المعيشة العائلية

١ - الطعام

كان طعام العرب قبل الاسلام قاصرًا على الابلان وما يستخرج منها كالسمن والزبدة والخبز ومن التمر والحبوب واللحم يأكلونها على ايسر ما يكون من احوالها كما يفعل اهل البادية اليوم واكثر البانهم ولحومهم من الابل . وقد يصنعون منها اطعمة تتركب على نسب معينة كالثرید فانه يصنع من اللحم واللبن والخبز . ومنها ما يصنع من اللبن والدقيق فقط كالرغيدة والرهيدة والعصيدة او يصنع من السمن والدقيق كالبلکة او من الدقيق والعسل والسمن كالوضيمة ولهم من امثال هذه الاطعمة نحو اربعين لونًا

ذلك هو طعام اهل اليسار منهم واصحاب الضيافة واما الفقراء فقلما ياكلون لحم الابل او الضان وانما كانوا يقتاتون بلحم الضب أو بالجراد او الخنافس او العقارب واذاجعوا اكلوا العليز وهو وبر الابل يهونه بالحجارة في الدم فيطبخونه وكان حال القرشيين قريبًا من ذلك ^(٣)

(١) الفباء ٣٤٨ ٢٤٩ ج ٣ (٢) مشكاة المصابيح ٢٦٩

(٣) ابن خلدون ١٧٠ ج ١

وربما أكلوا القرامطة ونخانة القرون والاذلافل والمناسب من برادتها او القره وهي الدقيق المختلط بالشعر وكانوا اذا عطشوا ولم يجدوا ماء شربوا الفظ وهو عصارة الفرت او المجدوح وهو مصل دم الابل^(١)

فلما جاء الاسلام وافتتحو العراق وفارس ومصر دهشوا لما شاهدوه من حضارة الروم والفرس ووقعوا على الوان من الاطعمة لم يعرفوها فاشكل عليهم امرها وظفر بعضهم بحراب فيه كافور فاحضره الى اصحابه فظنوه ملحاً فطبخوا طعاماً ووضعوه فيه فلم يجدوا له طعماً ولم يعلموا ما هو فراه رجل عرف ما فيه فاشتراه منهم بقميص خلق يساوي درهمين^(٢) ورأى بعضهم الخبز الرقاق فظنه رقاعاً يكتب عليها^(٣) وشاهدوا الارز فظنوه طعاماً مسموماً^(٤) ثم ما لبثوا ان اقاموا بين اولئك الاقوام حتى تعرفوا ما كلهم ولا سيما الفرس فاخذوها عنهم كما اخذوا اكثر مبادئ الحضارة وكثيراً من العادات والآداب وليس في الشرع الاسلامي ما يمنع تمتعهم بالطيبات من الاطعمة الا ما جاء النص بتحريمه

فاخذوا باطراف الحضارة من ايام بني امية واول من قلد الاعاجم باسباب الثرف معاوية فتتعم بما كله ومشربه^(٥) واقتدى به خلفاؤه وسائر الناس ولا سيما بعد ان كثرت الاموال بين ايديهم فاكلوا السكاج وهو نوع من المرق كانوا يصنعونه من مرق اللحم والخل ويضعون فيه اللحم المطبوخة كالدراج ونحوه وكانوا يسمونه سيد المرق والفالوزج وهو نوع من الحلوى وكذلك اللوز بنج يحشى باللوز والسكر والجوزاب والخشاف والجلاب وغيرها وتفننوا بمعالجة اللحم بالالبان والخضار والتوابل على اساليب شتى

٢ - اللباس

لباس العرب الجاهلية

ولباس العرب كان بسيطاً مثل طعامهم وسائر طرق معاشهم ولا يزال حتى الآن في عرب البادية نحو ما كان عليه قبل الاسلام وهو عبارة عن القميص والحلة والازار والشملة والعباءة والعمامة ولم يكن العرب في جاهليتهم يعرفون السراويل ولا الاقبية^(٦) وانما هي فارسية وكذلك النعال والحفاف ولكن بعض الخاصة كان يلبسها وكانوا يعلقون سيوفهم على

(١) كتاب الجلاء ١٨٣ (٢) الفخري ٧٤ (٣) ابن خلدون ١٤٤ ج ١

(٤) الهمذاني ١٨٨ (٥) الدميري ٥٥ ج ١ (٦) البيان والتبيين ٥٣ ج ٢

عوانتهم وثيابهم على الاجمال قصيرة الى اسفل الركب^(١)
وافضل مثال للباس العرب لباس النبي فقد ذكروا ان احب الالبسة اليه البرود
والبياض والخبرة وهي ضرب من البرود فيه حمرة وكان كمه قصيراً الى الرسغ يلبس احياناً
حلة حمراء وازاراً ورداء والازار قصير الى اسفل الركبة ولبس الخلف والنعل^(٢) وقد
نهى عن الثوب الطويل الذي يجرّ على الارض من الخيلاء ومن اقواله « فضل الازار في
النار »^(٣) ولم يكن العرب يعرفون من الانسجة غير القطن والصوف

على ان الذين كانوا يفدون على الشام او العراق من اغنيائهم لتجارة او زيارة كانوا
يقلدون اهلها بملابسهم الفاخرة فمن فعل ذلك اشتهر ذكره بين القبائل ولا سيما في اوائل الاسلام .
ومن المأثور عندهم ان اول من لبس الخنز الادكن من العرب عبد الله بن عامر واول من لبس
الدراريع السود المختار بن ابي عبيد واول من لبس الطيلسان في المدينة جبير بن مطعم^(٤)
وقس عليه سائر ما اتخذوه من البسة الاعاجم بعد الاسلام . والعادة ان يبدأ الامراء بذلك
ثم يقلدهم سائر الناس . واول من اقدم على تقليد الاعاجم باسباب البذخ معاوية وعمله .
فزياد بن ابيه امير العراق اول من قلد الفرس بلبس القباء الديباج^(٥) وهو اول من لبس
الخفاف الساذجة بالبصرة

ولما اتurf بنو أمية لبسوا الحرير على انواعه وتفننوا بانواع الانسجة واحبوا الوشي واكثروا
من لبسه فقلدهم الناس في ذلك فراجت المنسوجات الموشاة في ايامهم . واتخذوا كثيراً من
البسة الروم ولكنهم لرغبتهم في المحافظة على البداوة ظلوا يلبسون العمام ويعلقون السيوف على
العواتق وكان الاحنف يقول « لا تزال العرب عرباً ما لبست العمام ونقلت السيوف »^(٦)
اللباس في عصر الحضارة

فلما افضت الخلافة الى العباسيين واستسلموا للفرس وأخذوا نظامهم وادابهم قلدهم
بالالبسة وجعلوا ذلك بامر رسمي من اوائل دولتهم . فامر المنصور رجاله سنة ١٥٣ هـ ان
يلبسوا القلائس الفارسية الطويلة تدعم بعيدان من داخلها بدل العمام او يعمتوا فوقها بعمامة
صغيرة . وان يعلقوا السيوف في اوساطهم وان يكون اللباس الاسود عاماً فيهم وهو شعار
العباسيين كما كان البياض شعار الامويين . فلا بدّ للدّاخل على الخليفة العباسي من
لبس جبة سوداء يسمونها « السواد » تغطي سائر الثياب . والبيسهم المنصور دراريع كسب

(١) سراج الملوك ٧١ (٢) تهذيب الاسماء ٦٠ (٣) الكامل للبهر ٢٦

(٤) المعارف لابن قتيبة ١٨٧ (٥) الاغانى ١٠٤ ج ١٤ (٦) الكامل للبهر ١٠٠

على ظهورها « فيسكنكم الله وهو السميع العليم » ^(١) وبعث الى عماله في سائر الاقطار ان يأمرؤا رجالهم ببئذ ذلك ^(٢)

فاقبل العرب من ذلك الحين على تقليد الفرس بالملابس ولا سيما اهل الدولة ورجال الحكومة فلبسوا الاقبية والسراويلات والطيلاسة والخفاف والجوارب وغيرها مع بقاء البسة العرب عند عامتهم . ثم اختلفت كل طائفة او طبقة بلبس خاص يميزها عن سواها . فالفقهاء والعلماء كانوا يلبسون عمامة سوداء بشكل خاص ومبطنة وطيلسان اسود ^(٣) واول من غير لباس العلماء علي هذه الصورة ابو يوسف قاضي الرشيد ^(٤) واما لبس القضاة فهو القفلاس الطوال والطيلاسة الرقاق ويختلف ذلك باختلاف الدول والاعصر مما لا محل لاستيفائه اما عمامة الناس فتختلف اشكال البستهم باختلاف صنائعهم واحوالهم وطبقاتهم وباختلاف الاصقاع والاطوار مما لا يمكن حصره . وانما يقال بالاجمال ان لباس الرجال العمامة والدراعة والسراويل والقميص والقباء والحية والجوارب والنعال على نحو لباس المصريين والسوريين في اوائل القرن الماضي وهو ما يلبسه جماعة المشايخ الآن ثياب المنادمة والتطيب والحضاب

على ان رجال الدولة ومن جرى مجراه من الخاصة كانت لهم البسة لمجالس الانس والشرب يسمونها « ثياب المنادمة » وهي اثواب مصبغة بالالوان الزاهية الاحمر او الاصفر او الاخضر يصفقونها حتى تلمع وتشرق ويتضمخون بالخلوق ويتطيبون ولهم البسة يتخففون بها في منازلهم وأخرى يلبسونها في الاسفار وغير ذلك

اما التطيب فقد كان من دلائل الغنى والنبيل عندهم ومن امثالهم « ثلاثة يحكم لهم بالنبل حتى يدري من هم . رجل رأيتة راكباً او سمعته يعرب كلامه او شممت منه طيباً » والخضاب كان مستحسنًا عندهم واصله هندي اخذه الفرس عن الهنود ^(٥) ومنه انتقل الى بلاد العرب قبل الاسلام . ويقال ان اول من خضب بالسواد من اهل مكة عبد المطلب ^(٦) وقالوا بل المغيرة بن شعبة . ولما ظهر الاسلام وانتشر العرب في الارض تعلموا فنون الخضاب فصاروا يخضون بالحناء للحمرة وبالزعفران للصفرة فضلاً عن الخضاب الاسود وكانوا

(١) الاغانى ١٢١ ج ٩ وابن الاثير ٢٨٩ ج ٥ والعقد الفريد ٧٤ ج ١

(٢) طغر بردى ٤٣٧ والمقرئى ٣٠٧ ج ١ (٣) الاغانى ١٠٩ ج ٥ و ٦٩ ج ٦

وطبقات الاطباء ٤ ج ٢ (٤) ابن خلكان ٣٠٣ ج ٢

(٥) المسعودى ١١٥ ج ١ (٦) لطائف المعارف ٨

بيضون شعورهم بالكبريت^(١) وأول من خضب لحيته بالزعفران جرير الشاعر^(٢) وكان حسان بن ثابت يخضب لحيته على أسلوب خاص فيلون شاريه وعنفقه بالحناء دون سائر لحيته فيبدو لأول وهلة كأنه أسد والغ في الدم^(٣) وقس على ذلك تفننهم بالخضاب للرجال والنساء ولا يزال ذلك شائعاً في الشرق الى الآن والاكثر يخضبون بالسواد وبعضهم بالحناء ويندر الخضاب بالزعفران ولا نعرف احداً يبيض شعره بالكبريت

٣ - المأوى

مساكن العرب

كان العرب قبل الاسلام اهل خيام وانعام يحملون منازلهم على ظهورهم الا من اقام منهم في مكة او المدينة او الطائف او غيرها من مدن الجاهلية ولما نهضوا للفتح كانت البداوة من جملة اسباب تغلبهم . فلما فتحوا الامصار تحاشوا سكنى المدن ونصبوا مضاربهم في ضواحيها او بنوا بيوتاً من القصب معسكراً لهم لا يفصل بينها وبين مقر الخلافة (المدنية) ماءً كانهم مخلون الى اجل . وكانوا اذا فسد ما بنوه من القصب او احترق استأذنوا الخليفة عمر في بنائها بالحجارة مثل المدن التي فنحوها بمصر والشام والعراق ولكنه لم يكن يرى تحضرهم خوفاً عليهم من الترف والرخاء ولهذا السبب ايضاً منعهم من الزرع . ثم اذن لهم بالبناء ولكنه اشترط الاقتصاد به فلما استشاروه في بناء الكوفة بالحجارة قال لهم « افعلوا ولا يزيدن احد على ثلاثة ابيات ولا تطالوا في البنيان والزمو السنة تزمكم الدولة »^(٤) على ان ناموس العمران غلب على ما اراده عمر من بقاء المسلمين يقيمون في المعسكرات فما لبثوا ان تحضروا حتى تحولت تلك المعسكرات الى مدن عامرة ونزلوا المدن القديمة التي فنحوها وبنوا المنازل والقصور يقلدون بها ابنية الدول السالفة

اساليب البناء في الاسلام

وكانت اساليب البناء يومئذ تختلف باختلاف الامم ولكل منها نمط تولد عندها بتوالي الاجيال اما رأساً او اقتباساً . واهمها النمط البيزنطي في الشام ومصر والفارسي في فارس وخراسان والقوطي في الاندلس وما يليها . فلما تحضر العرب وعمدوا الى تشييد المباني

(١) الف باء ٣٤٤ ج ٢ (٢) المعارف لابن قتيبة ٩٩

(٣) الاغانى ٣ ج ٤ (٤) ابن خلدون ٢٩٩ ج ١

استخدموا في بنائها مهندسين من الروم والفرس فكانوا يخططونها على ما عرفوه من الاساليب التي ذكرناها . ثم اخذ العرب تلك الصناعة وادخلوا فيها تغييراً يوافق الذوق الشرقي وبلاط الاسلام . فتولد نمط اسلامي خاص يعرف بالنمط العربي او الشرقي يختلف باختلاف الاصقاع واختلاف العصور والدول وترجع تنوعاته الى ثلاثة اعصر كبرى :

اولاً ﴿ العصر العربي الرومي ﴾ هو اقدم اعصر البناء في الاسلام واساسه النمط البيزنطي وتنوع في اثناء التمدن الاسلامي وتفرع الى خمسة اشكال (١) النمط السوري ومثاله الجامع الاقصى في القدس والجامع الاموي في الشام (٢) النمط المصري ومثاله جامع عمرو بالنسطاط (٣) النمط الافريقي ومنه جامع القيروان (٤) النمط الصقلي في سيسيليا بايطاليا ومن امثله قلاع زيزا وكوبا وغيرها (٥) النمط الاندلسي ومنه جامع قرطبة وبعض الآثار العربية في طليطلة مما بني قبل انقضاء القرن العاشر للميلاد

ثانياً ﴿ العصر العربي المجت ﴾ وهو يشمل الاشكال التي تكيفت بين يدي العرب حتى بعدت عن الاصول التي نقلت عنها وهي قسمان (١) النمط المصري ومنه الابنية التي اقيمت في مصر بين القرن العاشر والخامس عشر وفي جملتها الجوامع التي بناها السلاطين المماليك كجامع الظاهر وجامع السلطان حسن (٢) النمط الاندلسي وهو ما بني في الاندلس بعد القرن العاشر ومن امثله ابنية اشبيلية وغرناطة ولا تزال آثارها باقية الى الآن

ثالثاً ﴿ العصر المختلط ﴾ ويدخل فيه (١) النمط الاسباني العربي ويراد به ما بناه المسيحيون بعد استيلائهم على الاندلس وخروج المسلمين منها (٢) النمط الاسرائيلي العربي ومن امثله الآثار الباقية لليهود في طليطلة من اقتاض الكنائس (٣) النمط الفارسي العربي كالجوامع التي بناها الفرس بعد الاسلام ولاسيا في اصبهان (٤) النمط الهندي العربي وهو خليط من النمطين الهندي والعربي كبرج كتاب وهيكل بندرابند وباب علاء الدين (٥) النمط المغولي العربي كالابنية التي اقيمت في الهند باثناء سلطة المغول واشهرها تاج محل وقصر الشاه وكثير من المساجد ونحوها (١)

فما كان الناس في عهد التمدن الاسلامي كانت تختلف شكلاً باختلاف البلاد والعصور وتتفاوت سعة وقدراً بتفاوت طبقات الناس من الاكواخ الحقيرة الى القصور الفخيمة وسناً في امثلة من القصور وسائر الابنية الاسلامية الفخيمة عند الكلام على الحضارة

حضارة المملكة الاسلامية

نريد بالحضارة ما تبلغ اليه الدولة من الثروة وبسطة العيش والتوسع باسباب الترف والرغد في ارقى درجات عمرائها . والدولة الاسلامية ادركت تلك الدرجات اولاً في العصر العباسي ببغداد من اواسط القرن الثاني للهجرة الى اواسط الرابع وفي العصر الاموي بالاندلس في القرن الرابع . وفي العصر الفاطمي بمصر من اواسط القرن الرابع الى اواسط السادس واسباب الحضارة في ما نحن فيه نقسم الى قسمين كبيرين : الاول العمارة اي انشاء المدن وبناء المصانع والقصور . والثاني الثروة وبها يتم ما يقتضيه الترف من الانغماس في النعيم والرخاء وبسطة العيش . فتكلم اولاً عن المدن فالمباني ثم نبين ما بلغت اليه الامة من الثروة واسباب الترف والرفاه

عمارة المدن

ان المدن التي سكنها المسلمون وحواها التمدن الاسلامي تعدُّ بالمئات وهي منتشرة في آسيا وافريقيا وأوروبا ومنها ما كان عامراً قبل الاسلام ومنها ما بناه المسلمون لانفسهم . وقد نشرنا في الجزء الثاني من هذا الكتاب صفحة ١٨٤ فصلاً في المدن الاسلامية وما بلغت اليه من الحضارة والثروة في عهد التمدن الاسلامي واقتصرنا على اعظم تلك المدن البصرة والكوفة والفسطاط وبغداد . واجلنا الكلام في ما بقي الى هذا الجزء فنقول :

القطر المصري

مساحة الارض الزراعية فيه

القطر المصري اليوم في نهضة مالية تضاعفت فيها الثروة الى حدٍّ استغربه الناس وخافوا رد الفعل ^(١) لانهم رأوا غلاء في الاسعار بغتياً لم يهدوا مثله وزادت مساحة الارض الزراعية ستة اضعافها في قرن واحد . فبعد ان كانت مساحتها في ايام المايك نحو مليون فدان وبعض المليون صارت ثمانية ملايين فدان . وبعد ان كان الفدان يباع ببضعة عشر جنيهاً بيع بمئة جنيه او مئة وخمسين جنيهاً او اكثر . فكيف لو علموا ان مساحة الارض

(١) فصلنا ذلك بمقالات في « النهضة المالية المصرية » في السنتين ١٩١٣ و ١٩١٤ من الهلال

الزراعية في ابان التمدن الاسلامي زادت على ٢٥,٠٠٠,٠٠٠ فدان ؟ وقد ذكرنا ذلك في الجزء الاول من هذا الكتاب صفحة ٨٢ نقلاً عن ثقات مؤرخي العرب فاستغربه بعض الفضلاء وعدوه من قبيل الخرافة او الاكذوبة على عادتهم في الاستخفاف باقوال مؤرخي المسلمين . ولا نرى باعاً على هذا الاستخفاف والمسلمون او العرب من اكثر الامم تحقيقاً في حوادث التاريخ لما تعودوه من التحقيق في المسائل الدينية بالاسناد ونحوه

على اننا لا نلومهم اذا استغربوا تلك الرواية لان الناس يقيسون الاشياء بما علموه من اشباهها . فثروة القطر المصري اذا قيست بما ألفناه من احوال عمرانها في القرنين الماضيين لا نرى مايسهل علينا تصديق قول العرب بمساحتها الزراعية الى ثلاثة اضعاف مابلغت اليه اليوم . ولكن لو قيل لاهل هذا الجبل ان مساحة الارض الزراعية بمصر ستبلغ بعد عشر سنين عشرة ملايين او ١٢ مليون فدان لمان عليهم التصديق لانهم شاهدوا تزايد هذه المساحة من مليون فدان الى ثمانية ملايين . اما لو قيل ذلك لاهل اواسط القرن الماضي لعدوه مستحيلاً . لان مساحة ارض مصر التي تقبل الزراعة لم تكن تقدر يومئذ باكثر من ٧,٠٠٠,٠٠٠ فدان وهاك تقدير الدكتور كلوت بك لسنة ١٨٤٠^(١) باعتبار الفدان

الجملة	غير مزروعة	ارض مزروعة	
٣,٨٠٠,٠٠٠	١,٥٥١,٠٠٠	٢,٢٤٩,٠٠٠	مصر السفلى
١,٦٢٠,٠٠٠	٧٦٣,١٧٤	٨٥٦,٨٢٦	» الوسطى
١,٥٩٤,٠٠٠	٨٤٣,٦٠٠	٧٥٠,٤٠٠	» العليا
٧,٠١٤,٠٠٠	٣,١٥٧,٧٧٤	٣,٨٥٦,٢٢٦	

فتكون مساحة الارض التي يمكن زرعها بمصر ٧,٠١٤,٠٠٠ فدان . فمن كان هذا اعتقاده في اطيان مصر لا يصدق اذا قيل له ان مساحة هذه الاطيان ستزيد على عشرة ملايين فدان أو ١٢ مليوناً بعد بضع عشرة سنة
عدد السكان

و يقال نحو ذلك في عدد السكان فلو قيل في اواسط القرن الماضي ان القطر المصري سيبلغ عدد سكانه الى عشرة ملايين أو ١٢ مليوناً لعدوا قولنا من الخرافات أو كما قال الدكتور كلوت بك « من عادات الشرقيين في المبالغة » لان عددهم في أيامه لم يكن يزيد

على ٣,٠٠٠,٠٠٠ نفس فكيف يصدق زيادته الى اربعة اضعافه — لا نقول ذلك تحكماً او افتراضاً ولكننا ننقل للقارئ قول الدكتور كلوت بك مؤرخ ذلك العصر في هذا الشأن — فقد بحث في كتابه عن سكان القطر المصري سنة ١٨٤٠ فبلغ عددهم ثلاثة ملايين نفس فصدّر بحثه بمقدمة عن احصائهم في الزمن القديم قال فيها ما معناه « يؤخذ من احصاء مؤرخي اليونان ان سكان هذا القطر بلغ عددهم في زمن سيزوستريس والبطالسة نحو سبعة ملايين نفس الى ثمانية واما مؤرخو العرب فزعموا ان عددهم في زمن عمرو بن العاص بلغ عشرين مليوناً وهو قول يدل على عادة الشرقيين في المبالغة بكتاباتهم . . . لاننا لو قسنا مصر بما نعلمه في سواها من نسبة عدد الناس الى مساحة ما بتوطنونه من الارض لوصلنا الى نتيجة تنفي كل شك . فمصر مساحتها سدس مساحة فرنسا ومهما قلنا في خصب وادي النيل وما يمكن الوصول اليه من امتداد الزراعة وزيادة العارة ولو سلمنا بإمكان استثمار البقاع الرملية — فمع كل هذه الوسائل لا يرجح زيادة عدد السكان على ثلث الاحصاء الذي ذكره العرب » (اي نحو ٦,٣٣٣,٠٠٠ نفس) — هذا هو رأيه وانت ترى ان سكان مصر زاد عددهم اليوم على عشرة ملايين ولا يمضي بضع سنين حتى يناهز ١٥ مليوناً او ضعفي ما ظنه الدكتور كلوت بك غاية ما يمكن الوصول اليه

وقياساً على ما تقدم لا نرى مانعاً من بلوغ سكان القطر المصري الى ٢٠,٠٠٠,٠٠٠ نفس . فلا غرابة اذا بلغوا هذا العدد في ابان التمدن الاسلامي — وانما انكر ابنه هذا الجيل ذلك استخفافاً برواية العرب مع انها مبنية على احصاءات رسمية واقعية في ازمة معينة لاجل تعديل الجزية او الخراج ولمست من قبيل الحدس او الرجم بالغيب — الاحصاء الأول وقع في زمن الفتح على ايام عمر . ذكر المقرئ انهم احصوا الرجال الذين تؤخذ عليهم الجزية فبلغ عددهم ٨,٠٠٠,٠٠٠ نفس فاذا اعتبرناهم ثلث الامة كان مجموعها ٢٤,٠٠٠,٠٠٠ نفس . والاحصاء الثاني في ولاية الوليد بن رفاعه سنة ١١٠ هـ ذكروا انه خرج ليحصى اهلها وينظر في تعديل الخراج فاقام في ذلك ستة اشهر بالصعيد حتى بلغ اسوان ومعه جماعة من الكتاب والاعوان بكفونه ذلك بجِدٍ وتشمير . وثلاثة اشهر في الوجه البحري فاحصوا من القرى عشرة آلاف قرية في اصغر قرية منها ٥٠٠ جمجمة من الرجال الذين تفرض عليهم الجزية فتكون جملة ذلك على الاقل ٥,٠٠٠,٠٠٠ رجل وعلى متوسط ما يلحق ذلك من النساء والاطفال والشيوخ يكون المجموع نحو ٢٠,٠٠٠,٠٠٠ نفس

مساحة الارض الزراعية

ويقال نحو ذلك في الارض الزراعية فانهم استخرجوا مساحتها بالاحصاء الرسمية لاجل تعديل الخراج . منها احصاء لعبيد الله بن الحبيب سنة ١٠٧ هـ فبلغت مساحة الارض الزراعية مما يركبه النيل ٣٠,٠٠٠,٠٠٠ فدان اي نحو اربعة اضعاف ما بلغت اليه مساحتها اليوم مع اجتهد حكومتنا في تعميم وسائل الري ببناء الجسور والخزانات وما لدينا من آلات الحرث والزرع . فاذا سبق الى اذهاننا الاستخفاف برواية العرب حكمنا لأول وهلة وبلا تردد انها مكذوبة اما اذا نظرنا فيها نظر الناقد المحقق فلا نعدم الوصول الى الحقيقة فالمقريزي وغيره من رواة هذا الاحصاء لم يقولوه عرضاً ولا تركوا في قولهم التباساً . وذكرنا في امكنة اخرى ان الارض الزراعية نقصت في ايام ابن المديبراي بعد قرن ونصف القرن الى ٣٤,٠٠٠,٠٠٠ فدان ولم يكتفوا بذلك المساحة ولكنهم ذكروا عدد العمال الذين كانوا يشتغلون بالحرث والزرع واشتروا عدداً معلوماً منهم فاذا نقصت غلة الارض^(١) ولا يخفى لنا وجه الصواب الا بعد معرفة البقاع التي كانت عامرة في ذلك العصر . فلو كانت حدود مصر الزراعية يومئذ مثل حدودها الان اي يحدها من الشرق والغرب الجبلان والصحرى الشرقية والبحيرة لحكمنا بان تخالة زعمهم . لان مساحة مصر الجغرافية اليوم وفيها الواحات والبادية الواقعة بين النيل والبحر الاحمر والعريش نحو ٤٠٠,٠٠٠ ميل مربع معظمها صحراء قاحلة . اما الارض الزراعية فمساحتها ١٧,٧٢٦ ميلاً مربعاً يخرج منها ٤,٧٥٠ ميلاً مسطحات النيل والترع والمستنقعات والبحيرات ونحوها فالباقى ١٢,٩٧٦ ميلاً مربعاً اي نحو ٨,٠٠٠,٠٠٠ فدان وهي الارض المزروعة الان فلا سبيل الى المزيد ولكن يؤخذ مما نقله العرب عن احوال مصر في ابان تمدنهم ومما جاء من اخبارها القديمة ان حدودها الزراعية كانت اوسع من ذلك كثيراً — ذكروا انها كانت تمتد من الغرب وراء صحراء الاسكندرية الى بركة^(٢) وتصل من الشرق بمحدود السويس الى العريش . ومعظم المسافة هناك اليوم رمال قاحلة ولكنها كانت تزرع قديماً الزعفران والعصفور وقصب السكر وكانت مأوها غزيراً . ولا تزال آثار العمارة باقية في تلك البقاع فان تحت الرمال تربة سوداء زراعية يعرفها من اخضر الارض بالمسبار وكان الصعيد عامراً ويمتد من جهة الشرقية الى البحر الاحمر واراضي البحيرة^(٣) وكانت طيان الفيوم ممتدة الى ما وراء العمارة المعروفة مسافة بعيدة . فاذا اعتبرنا ما ذكره من

(١) المقريزي ١٠٠ ج ١ (٢) المقريزي ١٨٢ ج ١ (٣) المقريزي ١٨٩ ج ١

هذا القليل وان النيل كان أكثر فروعاً واغزر ماءً واوسع فيضاً مما هو عليه اليوم هان علينا قبول اقوالهم وان كنا لانزال نستغربها لبعدها عن ما لوفنا . ولعلنا متى رأينا الشركات تعمل على احياء الصحاري المحيطة بوادي النيل شرقاً وغرباً بنزع ما يغطيها من الرمال وارائها بالترع المتصلة اليها من النيل او بالآبار الارتوازية نرى اقوالهم معقولة . ولا نظن ذلك بعيداً ورجال الاعمال يدرسون امثال هذه المشروعات

مدينة القاهرة

واشهر مدن القطر المصري في الاسلام الفسطاط والقاهرة وقد ذكرنا عمارة الفسطاط في الجزء الثاني . واما القاهرة فقد بناها القائد جوهر في اواسط القرن الرابع للهجرة معقلاً لمولاه المعز لدين الله الفاطمي وجنده . فضلت في اثناء دولة الفاطميين لم تتسع عمارتها وانما كانت العمارة للفسطاط والقطائع . وذكر المقرئ ان كان في هاتين المدينتين غير القاهرة ١٠٠,٠٠٠ بيت في بعضها مئة انسان ومئتان اذ يكون البيت مؤلفاً من خمس طبقات اوست اوسع^(١) ومع ذلك فهي في تقديره لا تزيد على ثلث بغداد فكيف تكون عمارة هذه . ولما افضت الدولة الى السلطان صلاح الدين اذن للناس بسكنى القاهرة فاتصلت بمدينة الفسطاط وكانت الفسطاط تسمى « مصر » فلما صارتا مدينة واحدة اطلقوا عليهما اسم « مصر والقاهرة » ثم قالوا « مصر القاهرة » ولما خربت الفسطاط ظل هذا الاسم للقاهرة وحدها كما هو مشهور

الاندلس

لما فتح المسلمون الاندلس كانت عامرة آهلة فاقاموا في مدنها وزادوها عمراناً واشهر تلك المدن قرطبة وقد زادها المسلمون عظمة بما بنوه في ضواحيها من القصور الكبيرة اشباه المدن الضخمة مما سنذكره

قرطبة

هي من اعمال اندلوسيا واقعة على الوادي الكبير تسقي ماءها منه وكانت عامرة قبل الاسلام ويظن انها من بناء القرطجنيين ودخلت في حوزة الرومانيين سنة ١٥٢ قبل الميلاد وتوالت عليها احوال شتى حتي فتح المسلمون الاندلس فنزلوا طليطلة ثم جعلوا مقر الامارة في قرطبة وزاد الامويون عمارتها بما انشأوه فيها من القصور والمساجد والجسور وغيرها

فاتسعت مساحتها وكان محيط المدينة الاصلية ٣٣,٠٠٠ ذراع عليها سبعة ابواب فنشأ حولها ٢١ ربضاً في كل ربض من المساجد والاسواق والحمامات ما يقوم باهله ٠ فصار طولها ٢٤ ميلاً وعرضها ستة اميال او ١٤٤ ميلاً مربعاً (ومساحة لندن ١١٧ ميلاً) وكل ذلك ديار وقصور ومساجد وبساتين على طول ضفة الوادي المذكور وقد احصوا مباني هذه المدينة وارباضها في ابان عمرائها احصاءات مختلفة خلاصتها ان عدد الابنية فيها كما يأتي :

عدد	
١١٣,٠٠٠	دور الرعايا
٤٣٠	» القصر الكبير
٦,٣٠٠	» اهل الدولة
٣,٨٧٣	المساجد
٩٠٠	الحمامات
١٢٤,٥٠٣	

وذكروا ان عدد الابنية بلغ في ابام ابن ابي عامر ٢٠٠,٠٠٠ دار للرعية و ٦٠,٣٠٠ دار لاهل الدولة و ٨٠,٤٥٥ حانوتاً غير الحمامات والخانات ^(١) ولا يخلو هذا التقدر من مبالغة والاول اقرب الى الصواب ٠ واذا اعتبرنا ما يلحقه من الحوانيت والخانات زاد المجموع على ضعفي عدد ابنية القاهرة اليوم

على انك ترى في هذا التقسيم تمييزاً بين الخاصة والعامة في المساكن ٠ وان دور الخاصة نحو ٦ في المئة من دور العامة — على حين ان دور الاشراف في رومية لم يزد عددها في ابان عمرائها على ٢,٠٠٠ دار ^(٢) فعمارة قرطبة بهذا الاعتبار فائقة الحد واما سكانها فكانوا يباهزون المليونين وسياً تي الكلام على قصورها

❖ غرناطة ❖ واما غرناطة فكانوا يسمونها دمشق الاندلس لكثرة اثارها واعنائها وفاكتها وتمتاز عن سائر مدائن الاندلس بنهر يتوزع على دورها واسواقها وحماماتها وارجائها الداخلة والخارجة وبساتينها كما يتوزع نهر بردى في دمشق ٠ وبلغت غرناطة قمة مجدها في الدولة النصرية واشهر ملوكها ابن الاحمر في اواسط القرن الثامن للهجرة وهو الذي بنى قصر الحمراء فيها كما بنى عبد الرحمن الناصر قصر الزهراء في قرطبة وننقدم الى ذكر القصور والمباني

القصور والمباني

قال ابن خلدون « ان المباني والمصانع في الملة الاسلامية قليلة بالنسبة الى قدرتها وبالقياس على من كان من الدول قبلها » ولكننا اذا اعتبرنا ما انتاب المدائن الاسلامية من اسباب الخراب بما توالى عليها من الاحن والفن ونظرنا الى ما بقي من ابنتها في مصر والشام والعراق وفارس والهند والاندلس رأيناها اكثر مما خيل لمؤرخنا الفيلسوف . ولعل الذي بعثه على هذا القول ابن كثير من هذه المباني شيد بعد عصره على عهد السلاطين المالك في مصر وبعضها لم يتصل علمه بها ما في بلاد فارس والهند وغيرها . فقد كان للخلفاء والامراء على اختلاف الدول والممالك عناية في بناء المساجد والمصانع والقصور بتأفقهم في هندامها وانقاذها فضلاً عن المتنزهات والحدائق مما ينفقون فيه الاموال الطائلة فيجلبون اليه الاغراس من اطراف المعمور ويتنننون في تزوين مجالسهم بالاشعار والتساوير المموهة بالذهب وبينها رسوم الحيوانات والادمين والازهار وغيرها مما ستره

١ — مباني الامويين في الشام

لم يصلنا من اخبار مباني الامويين في الشام ما يستحق الذكر الا الجامع الاموي الذي جدد بناءه الوليد بن عبد الملك بدمشق وكان قبل الاسلام كنيسة على اسم القديس يوحنا فلما فتح المسلمون دمشق صالحوا اهلها على ان تقسم الكنيسة مناصفة للمسيحيين يصلون في نصفها الغربي والمسلمون في النصف الشرقي . فلما افضت الخلافة الى الوليد بن عبد الملك اخذ النصفين جميعاً وجدد بناء الجامع فاستقدم نحو ١٢,٠٠٠ صانع من بلاد الروم تأفقوا في بنائه فانزلوا جدرانها كلها بفصوص من الفسيفساء خلطت بانواع الاصبغة الغريبة فثلث اشجاراً وفرعت اغصاناً منظومة بالفصوص ببدايع الصنعة الانيقة . فانفق في ذلك نحو ٢٠٠,٠٠٠ و ١١,٢٠٠ دينار . وكان طول الجامع من الشرق الى الغرب ٣٠٠ ذراع وعرضه ٢٠٠ ذراع قائم على ٦٨ عموداً . واعظم ما فيه قبة مصنوعة من الرصاص متصلة بالحراب عظيمة الاسنادرة والارتفاع . وقد زاره ابن جببر الرحالة الاندلسي في القرن السادس للهجرة ووصفه وصفاً مطولاً وذكر تاريخه الى ايامه مما يضييق عنه المقام^(١) ولا يزال هذا الجامع قائماً الى الآن ويمد من الفخر ابنية المسلمين

وبني الحجاج بن يوسف قبة الاسلام في واسط وكانت من انغم الابنية وفيها يقول الشاعر
بني قبة الاسلام حتى كأنما اتى الناس من بعد الضلال رسول^(١)

٢ — مباني العباسيين

اول من شاد الابنية منهم المنصور فبني القبة الخضراء ليحول اذهان الناس عن الكعبة اليها وبنى الجامع والحصون والقصور في بغداد كقصر الخلد وقصر باب الذهب وغيرها واخذ الخلفاء بعده في تشييد المصانع واقتدى بهم وزراءهم وامراءهم فاقاموا قصوراً فخيمة تعرف غالباً باسماء بانيها كقصور البرامكة في الشامسية وقصر ابن الخطيب وقصر ام حبيب بالجانب الشرقي من بغداد وقصر بني خلف بالبصرة وقصر عيسى بن علي وهو اول قصر بناه الهاشميون في ايام المنصور وقصر وضاح بنه رجل اسمه وضاح للمهدي العباسي وقصر الرشيد وقصر الامين وقصر ابن الفرات وقصر ابن مقلة غير ما اطلقوا عليه لفظ الدار كدار الشجرة الا اني ذكرها ودار القرار وهي قصر زبيدة زوج الرشيد وغير ذلك . واخذت رغبتهم في بناء القصور لتزايد كلما تقدموا في المدنية واغرقوا بالترف والرخاء . على ان بعض خلفائهم كانوا يحبون العمارة وينشطونها واولهم المعتصم بالله فقد كان كفياً بالبناء فبنى سامراً لا تراكه واقطعهم فيها القطائع . والمتوكل على الله كان مغرمًا بالعمارة يبذل فيها الاموال الطائلة فأحدث اساليب من الابنية لم تكن معروفة قبله منها النمط الحيري والكمين ذات الاروقة . وبني ثلاثة ابنية تعرف بالهاروني والجوسقي والجعفرى بذل في بنائها جميعاً أكثر من ١٠٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم^(٢) انفق منها على القصر الجعفري اكثر من ٢,٠٠٠,٠٠٠ دينار^(٣) او نحو ٤,٠٠٠,٠٠٠ درهم ثم صار تشييد المباني عادة جرى عليها الخلفاء فضلاً عن المتنزهات فبنى اسماعيل بن علي متنزهاً انفق فيه ٥٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم^(٤)

قصر التاج وقصر الدنيا

وكان المعتضد بالله محباً للعمارة ايضاً فبنى قصرًا في الجانب الشرقي من بغداد سماه « قصر التاج » لم يتم في ايامه فاتممه ابنه المكتفي . وكان في مكانه قصر بناه جعفر البرمكي ثم سكنه الحسن بن سهل فسمي القصر الحسيني . فلما تولى المعتضد سنة ٢٧٩ هـ اضاف اليه ما جاوره

(١) الكامل للمبرد ٢٨٧ (٢) المسعودي ٢٧٩ ج ٢

(٣) ابن الاثير ٣٣ ج ٧ (٤) ابن الاثير ٢٨ ج ٦

فوسعه وكبره وادار عليه سوراً واتخذ حوله منازل كثيرة ودوراً واقتطع من البرية قطعة عملها ميداناً . واخذ في بناء قصر التاج فاتفق خروجه الى آمد فلما عاد رأى الدخان يرتفع الى الدار فكرهه وابتنى على ميلين منه قصراً سماه « قصر الثريا » طوله ثلاثة فراسخ انفق فيه ٤٠٠٠٠٠ دينار^(١) وصله بالقصر الحسيني وابتنى بين القصرين على مسافة ميلين سرداباً تمشي فيه جواريه وحرمه وسراريه وما زال باقياً الى الغرق الاول الذي صار ببغداد . وفي قصر الثريا يقول ابن المعتز :

سلمت امير المؤمنين على الدهر	فلا زلت فينا باقياً واسع العمر
حلات الثريا خير دار ومنزل	فلا زال معموراً وبورك من قصر
جنان واشجار تلاقى غصونها	وأورقن بالاثار والورق الخضر
ترى الطائر في اغصانها هوانفاً	تنقل من وكر لهن الى وكر
وبنيان قصر قد علت شرفاته	مكمل نساء قد تربعن في ازر
وامهار ماء كالسلاسل فجرت	انرضع أولاد الراحين والزهر
عطابا الله منعم كان عالماً	بأنك أوفى الناس فيهن بالشكر

ولما توفي المعتضد قام ابنه المكتفي سنة ٢٨٩ هـ فاتم بناء قصر التاج وكان وجهه مبنياً على خمسة عقود كل عقد على عشرة اساطين في خمسة اذرع^(٢)

دار الشجرة

وبني المقندر بالله في اول القرن الرابع دار افسیحة ذات بساتين موقفة عرفت بدار الشجرة لشجرة كانت فيها مصنوعة من الذهب والفضة في وسط بركة كبيرة امام ايوانها وبين شجر بساتينها لها ثمانية عشر غصناً من الذهب والفضة لكل غصن منها فروع كثيرة مكمله بانواع الجوهر على شكل الثمار . وعلى اغصانها انواع الطيور من الذهب والفضة اذا مر الهوا عليها ابانت عن عجائب من ضروب الصنوبر والمهدير . وفي جانب الدار من يمين البركة تماثيل خمسة عشر فارساً على خمسة عشر فرساً . ومثله عن يسار البركة قد البسوا انواع الحرير المدبج مقلدين بالسبوف وفي ايديهم المطارد يتحركون على خط واحد فيظن الناظر اليهم ان كل واحد منهم يقصد صاحبه^(٣)

وفي دولة آل بويه بني معز الدولة قصره المعروف بالدار المعزية انفق في بنائه

(١) المسعودي ٣٢٨ ج ٢ (٢) معجم ياقوت ٨٠٦ و ٩٢٤ ج ١

(٣) معجم ياقوت ٥٢٠ ج ٣

١٠٠٠ و ١٠٠٠ دينار وموّه سقفه بالذهب — ذكروا انهم لما أرادوا هدمه بذلوا في حك الذهب من سقفه ٨٠٠٠ دينار^(١) ولم يبق لهذه القصور او الدور أثر الآن

٣ — مباني الامويين بالاندلس

اما الاندلس فقد بنى بها آل مروان قصوراً سارت بذكرها الركبان ولا يزال بعض آثارها باقياً الى اليوم واكثرها في قرطبة وغرناطة — فمهما في قرطبة :

القصر الكبير

وهو آية من آيات الزمان شرع ببنائه عبد الرحمن الداخل في اواسط القرن الثاني للهجرة واتمه من جاء بعده وبنوا القصور في داخله . وقد رأيت عند ذكر ابنية قرطبة ان القصر المذكور مؤلف من ٤٣٠ داراً بينها قصور نفيسة لكل منها اسم خاص كالكمال والمجدد والحائر والروضة والمعشوق والمبارك والرسوق وقصر السرور والبديع . وقد غالوا في زخرفها وانقائها وانشأوا فيها البرك والبحيرات والصحاريح والاحواض وجلبوا اليها الماء في قنوات الرصاص على المسافات البعيدة من الجبال حتى أوصلوه اليها ووزعوه فيها وفي ساحاتها ونواحيها في تلك القنوات تؤذيها الى المصانع صوراً مختلفة الاشكال من الذهب الابريز والفضة الخالصة والنحاس المموه الى البحيرات الهائلة والبرك البديعة والصحاريح الغريبة في أحواض الرخام الرومية المنقوشة ينصب فيها الماء من انابيب من الذهب او الفضة بصور الحيوانات المكسرة او الطيور الجميلة على اشكال بديعة^(٢)

مسجد قرطبة

ومن عجائب قرطبة مسجدها الشهير ذكروا انه لم يكن في بلاد الاسلام اعظم منه ولا اعجب بناء وكان في مكانه كنيسة للناصري شاطرهم عليها المسلمون عند الفتح كما فعلوا بالجامع الاموي في دمشق ثم اخذوا في توسيعه والزيادة فيه بانقاض الكنائس على توالي الاجيال . واعجب ما فيه صومعته او الماذنة قالوا لم يكن في مساجد المسلمين صومعة تعدلها بنيت بضخام الحجارة فبلغ طولها الى مكان موقف المؤذن ٥٤ ذراعاً والى اعلى الرمانة الاخيرة ٧٣ ذراعاً وعرضها في كل تريع ١٨ ذراعاً

وتدرج الجامع بالاتساع بتوالي التجديد فيه حتى بلغت مساحته في ايام الخليفة الناصر

(١) ابن الاثير ١٥١ ج ٩ (٢) تنح الطيب ٢١٩ ج ١

٢٢٥ ذراعاً في ٢٠٥ اذرع وزاد الحكم في طوله مئة ذراع وخمسة اذرع فصار طوله ٣٣٠ ذراعاً وزاد ابن ابي عامر في عرضه ثمانين ذراعاً فصار ٢٨٥ وارضه مرصفة باحدى عشرة بلاطة الوسطى عرضها ١٦ ذراعاً وعرض كل واحدة من اللتين تليانها غرباً واللتين تليانها شرقاً ١٤ ذراعاً وعرض كل واحدة من الست الباقية ١١ ذراعاً وزاد بن ابي عامر ثمانين بلاطات عرض كل واحدة عشرة اذرع • وكان سقفه قائماً على ٢٩٣ سارية من ارخام وعدد ثرياته ٢٨٠ ثريا • منها ثريات المقصورة من الفضة الخالصة • وكان في وسط الجامع تنور نحاس يحمل الف مصباح

وكان للجامع تسعة ابواب مصفحة بالنحاس الاصفر الا باب المقصورة فانه من الذهب وكذلك جدار الحراب وما يليه وقد أجري فيه الذهب على الفسيفساء • وفي رأس الصومعة ثلاثة تماثيل دور كل تماثلة اشبار ونصف اثنتان من الذهب الابريز وواحدة من الفضة • وتحت كل تماثلة وفوقها سوسنة قد هندست بايدع صنعة ورومانه ذهب صغيرة على رأس الزج • وكان في بيت المنبر مصحف الخليفة عثمان وعليه حليمة الذهب بكلالة بالدر والياقوت فوقه اغشية الديباج • وهو موضوع على كرسي من العود الرطب بمسامير الذهب • وقد افاض صاحب نفح الطيب في وصف هذا الجامع وما كان ينفق فيه من الزيت والشمع فليراجع هناك^(١) ونحوه الجامع المذكور بعد دخول قرطبة في حوزة الافرنج الى كنيسة ولا يزال على بناءه الاسلامي وعليه النقوش الشرقية والكتابة العربية قصر الزهراء

ومن قصورهم في قرطبة « الزهراء » بدأ بانشاؤها الخليفة الناصر سنة ٣٢٥ هـ على اربعة اميال من المدينة واتمها ابنه الحكم فاستغرق البناء اربعين سنة • وهي عبارة عن بلد كبير طوله من الشرق الى الغرب ٢,٧٠٠ ذراع وعرضه ١,٥٠٠ وعدد اعمدته او سواريه ٤,٣٠٠ سارية بعضها حمل الى قرطبة من رومية وافريقية وتونس وبعضها اهداء صاحب القسطنطينية وفيها الرخام الابيض والاخضر والوردي والمجزع • وكان في الزهراء مسجد نخم وعدة قصور وحدائق على نحو ما تقدم في وصف القصر الكبير • وفيها البحيرات تسبح فيها الاسماك بالوانها وانواعها واحواض الرخام المنقوش على اشكال شتى بين مذهب وغير مذهب في جملتها حوض منقوش بتمثيل الانسان جيء به من القسطنطينية ونصبه الناصر في بيت المنام بالمجلس الشرقي المعروف بالمؤنس وجعل عليه ١٢ تمثالاً من الذهب

الاحمر مزسعة بالدر النفيس الغالي مما صنع بدار الصناعة في قرطبة بصورة اسد بجانبه
غزال الى جانبه تمساح يقابله ثعبان وعقاب وفيل • وفي المجنبتين حمامة وشاهين وطاووس
وإدجاجة وديك وحدادة ونسر وكها من ذهب رصع بالجواهر يجري الماء من افواهها^(١)
ووكل الناصر النظر في بناء هذه القصور الى ابنه الحكم بمده • وذكروا ان الناصر كان
ينفق عليها ثلث جباية الدولة وكانت ٦,٠٠٠,٠٠٠ دينار فينفق منها ٢,٠٠٠,٠٠٠ دينار
كل سنة على ذلك البناء • وقد تقدم انهم واصلوا العمل فيه ٤٠ سنة فلو فرضنا انهم كانوا
ينفقون هذا القدر في نصف هذه المدة فقط لبلغ مجموع ما انفق على الزهراء اكثر من
٥٠,٠٠٠,٠٠٠ دينار ولكن يظهر ان الانفاق السنوي لم يكن يبلغ ثلث جباية المملكة
الا في بضع سنين واما في سائر مدة البناء فكانت النفقة اقل من ذلك كثيراً

وقد ورد في مكان آخر ان الناصر كان ينفق على بنائها في ايامه ٣٠٠,٠٠٠ دينار
في السنة فاذا حسبنا ما انفق ابنه الحكم في ما بقي من الاربعين سنة على هذه النسبة مع
ما انفق هو غير المقدار السنوي المذكور — كان مجموع ما دخل في بناء هذا القصر الفخيم
نحو ٢٠,٠٠٠,٠٠٠ دينار على الاقل • ولا غرابة في ذلك لانا اذا اعدنا النظر في تفاصيله
رأينا فيه ما يفوق الحصن من المرصعات والمذهبات وقد ادخلوا فيه شيئاً كثيراً من الذهب
حتى جعلوا بعض قزميده منه • وقد كان يتصرف في بنائه من الخدم والفعلة عشرة آلاف
رجل و ١,٥٠٠ دابة • واغرب من كل ذلك ان الناصر انما عمد الى بناء الزهراء مرضاة
لحظية له كان اسمها « زهراء » طلبت اليه ان يبني مدينة باسمها وتكون خاصة بها^(٢)
الزاهرة

واقضى بالخليفة الناصر المنصور بن ابي عامر فابتنى سنة ٣٦٨ هـ قصر اقامته سماه
« الزاهرة » ليكون معقلاً له يحمي من اعدائه فاقامه في طرف البلد على نهر قرطبة الاعظم
وحشد له الصناع والفعلة وبالع في رفع اسواره وجعل فيه ابنية كثيرة من جملتها أهراء
ودواوين واقطع ما حولها لوزرائه وكتابه وقواده فابتنوا الدور والقصور وغرسوا
الحدائق فقامت الاسواق وتنافس الناس بالنزول في اكثافها تقريباً من صاحب الدولة
حتى اتصلت ارباضها بارباض قرطبة واتصلت بهما الزهراء من الجهة الأخرى فاصبح
الناس يمشون بين هذه المدن عشرة اميال على ضوء السرج

(١) نفح الطيب ٢٤٨ و ٢٦٧ ج ١ وابن حلكان ٢٩ ج ٢ (٢) نفح الطيب ٢٤٨ ج ١

قنطرة قرطبة

ويجدر بنا في هذا المقام الاشارة الى القنطرة الفخيمة التي اقامها المسلمون على نهر قرطبة وكانت مبنية قبل الاسلام ثم سقطت فاعاد المسلمون بناءها على يد عبد الرحمن الغافقي وطولها ٨٠٠ ذراع وعرضها عشرون ذراعاً وارتفاعها ٦٠ ذراعاً وعدد حناياها ١٨ حنية وارباعها ١٩ برجاً^(١)

قصر الحمراء وامثاله

الحمراء قصر شهير في غرناطة لا يزال شكله محفوظاً الى الآن بقصده السياح من كل مكان بناه ابن الاحمر في اواسط القرن الثامن للهجرة كما تقدم في ارض مساحتها ٣٥ فداناً على مرتفع فيسيح . ويقال انها سميت « الحمراء » نسبة الى لون قرميدها . وفي هذا القصر كانت بركة السباع وفي وسطها تماثيل أسود نقذف المياه من افواهها على شكل جميل وبنى المنصور بن الاعلى قصراً فخماً في بجاية انشأ فيه بركة على حافتها اسود يجري الماء من افواهها وعلى البركة اشجار من ذهب وفضة ترمي فروعها في الماء وعلى اغصانها اطياف من اشكال شتى بالوان بدیعة وصنع عجيب على مثال الشجرة التي ذكرنا انها نصبت في قصر المقتدر العباسي عند كلامنا عن ابنة العباسيين . وقد نظم ابن حمدیس الشاعر الاندلسي قصيدة يصف بها بركة هذا القصر وخروج الماء من افواه الاسود قال منها :

وضراغم سكنت عرين رياسة تركت خرير الماء فيه زئيرا
فكأنما غشى النضار جسومها واذا ب في افواهها البلورا
أسد كان سكونها متحرك في النفس لو وجدت هناك مثيرا
وتذكرت فتكاتها فكأنما افقت على ادبارها لتثورا
وتخالها والشمس تجلو لونها نارا وألسنها اللواحس نورا
فكأنما سلت سيوف جداول ذابت بلا نار فعدن غديرا
وكأنما نسج النسيم لمائه درعا فقدر سردها نقديرا^(٢)

وقس على ذلك قصر المأمون بن ذي النون الاندلسي فانه اتفق في بنائه بيوت الاموال وكان من عجائبه انه صنع فيه بركة ماء كلنها بحيرة وبنى في وسطها قبة وساق الماء تحت الارض حتى علا فوق رأس القبة بتدبير احكمه المهندسون فكان الماء ينزل من اعلى القبة وحواليها محيطاً بها متصلاً بعضه ببعض فكانت القبة في غلالة من ماء سكناً لا يفتر والمأمون قاعد فيها^(٣)

(١) نفح الطيب ٢٢٦ ج ١ (٢) نفح الطيب ٢٣٣ ج ١ (٣) سراج الملوك ٥٠

٤ - مباني مصر

مباني آل طولون

أشأ بنو طولون في مصر ابنية فخيمة اشهرها الجامع الذي بناه احمد بن طولون لا تزال آثاره الى الآن بالقاهرة . والقصر الذي بناه في القطائع وجعل له ميداناً كبيراً ولما توفي احمد زاد فيه ابنه خمارويه وجعل الميدان كله بستاناً زرع فيه انواع الرباحين واصناف الشجر ونقل اليه الودي اللطيف الذي ينال ثمره القائم ومنه ما يتناوله الجالس من اصناف خيار النخل . وحمل اليه كل صنف من الشجر المطعم العجيب وانواع الورد وزرع فيه الزعفران وكسا اجسام النخل نحاساً مذهباً حسن الصنعة وجعل بين النحاس وأجساد النخل مزاريب الرصاص وأجرى فيها الماء المدبر فكان يخرج من تضاعيف قائم النخل عيون الماء فتتجدر الى فساق معمولة ويفيض منها الماء الى مجاري تسقي سائر البستان . وغرس فيه من الریحان المزروع على نقوش معمولة وكتابات مكتوبة بتعدها البستاني بالمقراض حتى لا تزيد ورقة على ورقة . وزرع فيه النيلوفر الاحمر والازرق والاصفر والجنوي العجيب . وأهدي اليه من خراسان وغيرها كل اصل عجيب وطعموا له شجر المشمش باللوز واشباه ذلك من كل ما يستظرف ويستحسن . وبني فيه برجاً من خشب الساج المنقوش بالنقر النافذ ليقوم مقام الاقفاص وزوّقه باصناف الاصباغ وبلط ارضه وجعل في تضاعيفه انهاراً لطافاً جداولها يجري فيها الماء مدبراً من السواقي التي تدور على الآبار العذبة ويسقي منها الاشجار وغيرها . وسرح في هذا البرج من اصناف القماري والديبسي والنونيات وكل طائر جميل الشكل حسن الصوت فكانت الطيور تشرب وتغسل من تلك الانهار الجارية في البرج وجعل فيه اوكاراً في قواديس لطيفة ممكنة في جوف الحيطان لتفرخ الطيور فيها وعارض لها فيه عيّدانا ممكنة في جوانبه لتقف عليها اذا تطايرت حتى يجابو بعضها بعضاً بالصياح . وسرح في البستان من الطير العجيب كالطواويس ودجاج الحبش ونحوها شيئاً كثيراً وعمل في داره مجلساً برواقه سماه بيت الذهب طلي حيطانه كلها بالذهب المجاول باللازورد المعمول في احسن نقش واطرف تفصيل وجعل فيه على مقدار قامة ونصف صوراً في حيطانه بارزة من خشب معمول على صورته وصور حظايا والمغنيات اللاتي تغنيهنه باحسن تصوير واهج تزويق وجعل على رؤوسهن الاكلیل من الذهب الخالص الابرز الرزين . والكودان المرصعة باصناف الجواهر وفي آذانها الاجراس النقال الوزن المحكمة الصنعة وهي مسمرة في الحيطان ولونت اجسامها اشباه الثياب من الاصباغ العجيبة فكان

هذا البيت من اعجب مباني الدنيا

وجعل بين يدي هذا البناء فسقية ملاءها زنبقاً . وذلك انه شكا الى طبيبه كثرة السهر فأشار عليه بالتغميز فأنف من ذلك وقال « لا اقدر على وضع يد احد علي » فقال له « تأمر بعمل بركة من زنبق » فعمل بركة يقال انها خمسون ذراعاً طولاً في خمسين ذراعاً عرضاً وملاءها من الزنبق فانفق في ذلك اموالاً عظيمة . وجعل في اركان البركة سكة من الفضة الخالصة وجعل في السكة زنانير من حرير محكمة الصنعة في حلق من الفضة وعمل فرشاً من ادم يحشى بالريح حتى ينتفخ فيحكم حينئذ شده ويلقى على تلك البركة وتشد زنانير الحرير التي في حلقة الفضة بسكة الفضة وينام على هذا الفرش فلا يزال النرش يرتج ويتحرك بحركة الزنبق ما دام عليه . وكانت هذه البركة من اعظم ما سمع به من المهن المملوكية يرى لها في الليالي المقمرة منظر بهيج اذا تألف نور القمر بنور الزنبق ^(١)
مباني الفاطميين

ولما افضى الامر الى الفاطميين بنوا في القاهرة الجامع الازهر وهو عامر الى اليوم وقصوراً اشهرها القصران الشرقي والغربي وانفقوا على الاخير منها ٢,٠٠٠,٠٠٠ دينار ^(٢) فقس على ذلك عليه ما انفقوه في سائر القصور والدور كدار الفطرة ودار الديباج وغيرها . ولما استبجر عمرانهم تفننوا في بناء المقاصير والمناظر على ضفة الخليج وشاطئ النيل كمنظرة الجامع الازهر ومنظرة اللؤلؤة على الخليج ومنظرة الغزالة بجانبها ومنظرة السكره ومنظرة الدكة ومنظرة المقس ومنظرة التاج ومنظرة باب الفتوح ومنظرة البعل ومنظرة دار الملك غير المتنزهاة العظيمة والقصور الفخيمة في الجزيرة والروضة كالقصر الذي بناه الامر باحكام الله لمحبوبته البدوية وسماه الهودج

وكانوا يتألقون في زخرفة تلك المناظر والقصور تألقاً عظيماً يدل على مبلغ حضارتهم وتفننهم . فمنظرة بركة الحبش كانت مصنوعة من خشب مدهون صور فيها الشعراء كل شاعر وبلده وعند رأس الشاعر ابيات نظمها في ذكر المنظرة وبجانب كل صورة رف لطيف مذهب فاذا دخل الخليفة وقرأ الاشعار امر ان يحط على كل رف صرة مخنومة فيها خمسون ديناراً فيدخل الشاعر ويأخذ صرته ^(٣)

مباني الايوبيين والمماليك

ولما انتقلت الدولة الى الاكراد كان اعظم آثارهم البنائية قلعة القاهرة بناها السلطان

(١) المقريري ٣١٦ ج ١ (٢) المقريري ٤٥٧ ج ١ (٣) المقريري ٤٨٦ ج ١

صلاح الدين ليعتصم بها من الشيعة ولا تزال قائمة الى اليوم ومعظم ما في مصر الآن من الآثار البنائية انما هو من اعمال السلاطين المالك ولا سيما المساجد كجامع السلطان حسن وجامع المؤبد وقايتباي وفلاوون وغيرهم . ومن آثارهم قبور الخلفاء خارج القاهرة فانها لهم وان نسبت الى الخلفاء بالاسم . غير ما اندثر من قصورهم وكانوا يقلدون الفاطميين في زخرفها كالرفرف الذي بناه الاشرف خليل بن فلاوون عالياً يشرف على الجزيرة كلها وصور فيه امراء الدولة وخواصها وعقد عليه قبة على عمد وزخرفها وكان السلطان يجلس فيه . وقصر يلبغا بناه الملك الناصر محمد بن فلاوون سنة ٥٧٣٨ هـ لسكنى الامير يلبغا حيث مدرسة السلطان حسن تجاه القلعة وغيرها

الثروة والرخاء

واشتغال الخلفاء والامراء بانشاء المدن وبناء القصور والمنتهزات انما هو من ثمار الثروة وتكاثر النقود في بيوت الاموال فتنتقل الى رجال الدولة وغيرهم على ما بيناه في نظام الاجتماع ولذلك كان الخليفة اكثر الناس مالاً لانه قابض على بيت المال يليه الوزراء والكتاب والعمال فبنو هاشم فالاتباع والتجار وغيرهم واليك امثلة من ذلك

ثروة الخلفاء واهلهم

لما كان الخلفاء يتولون شؤون الدولة بايديهم كانوا اكثر الناس ثروة فلما عهدوا بها الى الوزراء تحولت الثروة اليهم واصبح الخلفاء احياناً مثل سائر الفقراء^(١) والاصل في ثروة بيت المال ان تكون للدولة تنفق في مصالحها وللخليفة بيت مال خاص به ولكن الخلفاء تصرفوا باموال الدولة اولاً لاعتبارهم انفاقها مساعدآ على تأييدها ثم انفقوها في الجوائز والهدايا لمثل هذه الغاية وتدرجوا الى بذلها في ملذاتهم وسائر اسباب تنعمهم . وكان يبق مع ذلك في بيوت الاموال شيء كثير . وقد بينا في الجزء الثاني من هذا الكتاب مقدار ما بقي منها في خزائن الخلفاء الاولين من بني العباس المنصور والمهدي والمعتصم والمستعين والمكتفي وغيرهم (صفحة ١٢١) وما صار اليهم من الضياع الكثيرة (صفحة ١٣٢) وذكرنا ما بلغت اليه ثروة امهات الخلفاء ولا سيما الخيزران ام الرشيد وقبيصة ام المعتز وغيرها (صفحة ١٣٤) فلا حاجة الى التكرار . وانما نأتي ببعض التفصيل على سبيل المثال - ذكرنا ان المكتفي خلف

١٠٠,٠٠٠,٠٠٠ دينار هذا تفصيلها ^(١)

دينار

من العين والورق والأواني المعمولة	٢٠,٠٠٠,٠٠٠
» الفرش	٢٠,٠٠٠,٠٠٠
» الكراع والسلاح والعتل	٢٠,٠٠٠,٠٠٠
» الضياع والعقار والأماكن	٢٠,٠٠٠,٠٠٠
» الجوهر والطيب وما يجري معها	٢٠,٠٠٠,٠٠٠

ثروة رجال الدولة وغيرهم

وذكرنا في الجزء الثاني أيضاً صفحة ١٦٧ سبب ثروة الوزراء ومقادير الاموال التي حصلها الحسن بن الفرات والمارداني وابن كلس والافضل وابن شهيد واليك امثلة أخرى :
اول من اثنى من الوزراء البرامكة في عهد الرشيد فكثرت ضياعهم « الابعديات والنفالك » حتى بلغت غلة يميني وابنه جعفر فقط ٢٠,٠٠٠,٠٠٠ دينار في السنة . ولما نكبوا وقبضت اموالهم بالغ مقدار ما قبض منها ٣٠,٦٧٦,٠٠٠ دينار غير الضياع والدور والرياش ^(٢) ويشبه الوزراء ببغداد الكتاب بمصر وقد اثنى منهم جماعة كبيرة كآل المارداني في اواسط القرن الثالث للهجرة فملك احدهم محمد بن علي المارداني ما قيمته ٣,٠٠٠,٠٠٠ دينار من الضياع بالشام ومصر والامتنعة مع كثرة ما كانوا ينفقونه على الناس من الرواتب . وكانت غلته ٤٠٠,٠٠٠ دينار في السنة ^(٣) وهو مع ذلك لا يعد شيئاً بالنظر الى البرامكة . ومثلهم آل المغربي وآل الكتامي بمصر أيضاً

اما العمال والامراء فقد كانوا يحشدون الاموال الكثيرة ولا سيما المفوضين منهم ويسهل ذلك عليهم لاطلاق ايديهم في مصادر الجباية فيجمعون ما شاؤوا وكيف شاؤوا . وقد اثنوا وكثرت اموالهم من ايام بني امية قبل زمن الوزراء خلف عمرو بن العاص سبعين بهراً من الدنانير والبهار اردبان بالمصري ذهباً ^(٤) وبلغت غلة خالد القسري ١٣,٠٠٠,٠٠٠ درهم ^(٥) وصاروا في عهد بني العباس اوفر ثروة ولا سيما بعد ان طمعوا بالاستقلال خلف يعقوب

(١) لطائف المعارف ٧٢ (٢) العقد الفريد ٢٢ ج ٣

(٣) المقرئ ١٥٥ ج ٢ (٤) المقرئ ٣٠١ ج ١

(٥) ابن الاثير ١٠٣ ج ٥

ابن الليث الصفار في بيت ماله ٥٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم و ٤,٠٠٠,٠٠٠ دينار^(١) وقس على ذلك اموال السلاطين المماليك بمصر ورجالهم . وكانت مخلفاتهم من الجواهر والحلي تقدر بالارطال والقناطير والصناديق — مثال ذلك ما خلفه الامير سيف الدين تنكز التستري منها ١٩ رطلاً من الزمرد والياقوت وستة صناديق جواهر وفصوص الماس و ١,٢٥٠ حبة لؤلؤ كبير مدورة مما زنته درهم الى مثقال و ٢٤٠,٠٠٠ مثقال ذهب و ١,٠٠٠,٠٠٠ درهم فضة واربعة قناطير مصرية من المصاغ والعقود ونحوها كالخاق والاساور وستة قناطير فضيات و ١,٢٠٠,٠٠٠ دينار . قس عليه ثروة الخلفاء الفاطميين والسلاطين المماليك وغيرهم من سلاطين المسلمين وملوكهم.

غير ثروة الحواشي والاتباع ممن أثرى بالصناعة والادب او التجارة فقد ذكرنا ثروة بعض التجار في ما تقدم فاعتبر ذلك في سواهم من الاطباء والمغنين والشعراء فان ابراهيم الموصلي مغني الرشيد توفي عن ٢٤,٠٠٠,٠٠٠ درهم^(٢) وذكرنا في باب الرواتب من الجزء الثاني صفحة ١٥١ ما كان يقبضه جبرائيل بن بجيتشوع طبيبته

نتائج التروة

من قواعد العمران اذا تكاثرت الاموال في ايدي الناس ان يتوسعوا بالاتفاق ويتعموا بمعيشتهم فيتأنقون بالطعام والشراب والسماع وغيرها من الملذات الجسدية ويتعمون باللبسة الثمينة والرياش الفاخر . ثم يطلبون الملذات المعنوية من التفاخر بافتناء المجوهرات والعقارات وبلتسمون سعة الشهرة فيقربون من يضمن لهم ذلك كالشعراء ورواة الاخبار في ذلك العهد كما يفعل بعض اغنياء زماننا بالتقرب من ارباب الصحافة . ونقسم الكلام في هذا الباب الى فصول :

١ — التأنق في الطعام

قد رأيت في كلامنا عن اطعمة العرب انها كانت ساذجة قليلة ثم تعددت بعد الاختلاط بالاعاجم ولا سيما الفرس . والعرب قلدوا الفرس في اكثر اسباب الحضارة فضلاً عن نظام الحكومة . فكانوا اذا احوجهم الاحتفال بعيد او عرس او ختان سألوا عما يفعله

(١) المسعودي ٣١٤ ج ٢ وابن خلكان ٣١٩ ج ٢ (٢) سير الملوك ١١٣

الفرس في مثله وقلدهم فيه — هموا بذلك من عهد الامويين وكان الصحابة قبلهم يتحاشون التمتع اقتداءً بخلفائهم الراشدين مع غلبة البداوة على طباعهم . فابوموسى الاشعري كان يتبافى عن اكل الدجاج لانه لم يعهدها للعرب . وكانوا يتجنبون الاكثار من اكل اللحوم ويعتقدون اضرارها نحو ما يعتقد النبايون اليوم بقتلها بما قاله عمر بن الخطاب « مدمن اللحم كمدمن الخمر » . فلما حكم الامويون ومالوا الى التمتع كان الفرس احسن مثال لهم . واراد غير واحد من امراء العراق ثقيلهم في ذلك ولكن البداوة كانت تغلب عليهم فيرجعون . ذكروا ان الحجاج بن يوسف اولم لختان احد اولاده فاستحضر بعض الدهاقين ليسأله عن ولائم الفرس وقال « اخبرني باعظم صنيع شهدته » فقال « شهدت ايها الامير بعض مرازمة كسرى وقد صنع لاهل فارس صنيعاً احضر فيه صحاف الذهب على اخونة الفضة اربعا على كل واحد وتحمله اربع وصائف ويجلس عليه اربعة من الناس فاذا اطعموا اتبعوا اربعتهم المائدة بصحافها ووصائفها » فلما سمع الحجاج ذلك اكبره وغلبت عليه البداوة فقال « يا غلام انحر الجزر واطعم الناس »^(١)

على انهم ما لبثوا ان رضخوا لتيار الترف حتى تكييفوا لموافقة البيئة التي تحف بهم فبعد ان كانوا يحسبون الكافور ملحاً والرز طعاماً مسموماً والخبز المرقق كاذباً وبعد ان اكلوا العليز والخنافس والعقارب وعجنوا الخنطة بنخالها^(٢) فاقوا الفرس والروم في التأني والتمتع فنفقوا في معالجة اللحوم واصطناع التوالى المنبهة لشهوة الطعام التماساً للزبد من اللذة . فكان الخلفاء والملوك من بني هاشم اذا جلسوا الى الطعام يقف الاطباء بين ايديهم ومعهم البراني بالجوارشنات الهاضمة المسخنة الطابخة المقوية للحرارة الغريزية في الشتاء على اصطلاحهم في ذلك العصر . ويقفون في الصيف ومعهم الاشربة الباردة والجوارشنات الموافقة لذلك الفصل^(٣) واقتدى بهم سائر الامراء واهل الدولة فكانوا يستشيرون الاطباء ويستعينون بهم في حفظ صحتهم حتى في اثناء الطعام وهم على المائدة وكان سيف الدولة اذا حضر الطعام جلس معه على المائدة ٢٤ طبيباً اراقهم جارية

وغالى الخلفاء في استحضار ما اشتهر بطيبه من الوان اللحوم والطيور والفاكهة ولو بعد مكانه فيحملونه على البريد ينفقون في ذلك الاموال الكثيرة^(٤) وكانوا يربون الطيور الداجنة على اطعمة مغذية يتوهمون انها تزيد في لذة طعمها او نفعها او تسهل هضمها . فكانوا

(١) ابن خلدون ١٤٥ ج ١ (٢) ابن خلدون ١٧٠ ج ١

(٣) طبقات الاطباء ١٧٥ ج ١ (٤) لطائف المعارف ٩٥ وابن بطوطة ٣ ج ٢

بعلفون الفراريج الجوز المقشر ويسقونها اللبن الحليب^(١) وتفنن الطهارة في اصطناع الاطعمة التي يظنون فيها الغذاء الكثير او النفع الصحي وربما فعل بعضهم ذلك مغالاة بالاحتفاء كما فعل ابراهيم بن المهدي في زيارة زاره فيها الرشيد فاصطنع له اطعمة بينها جام سمك مقطع فاستصغر قطعه فساءله الرشيد عن ذلك فقال «يا امير المؤمنين هذه السنة السمك» وقد رت نفقة ما في ذلك الجام بالف درهم^(٢) وفسن عليه تفننهم في اصطناع الفالودج بدهن الفستق والنخ المعقود بالسكر والطبرز والعسل

فاتسعت مطابخ الخلفاء والامراء لتعدد الوان الاطعمة والتوسع في النفقة عليها حتى صار لكل صنف منها خدم عليهم رئيس . فكان عندهم لتربية الطيور ادارة قائمة بذاتها عليها رئيس وبلغت علوفة البط وحدها على ايام المقتدر العباسي ٣٠ قفيزاً من الشعير كل شهر^(٣) فاعتبر كم يحتاج اليه اخدم اذا اراد نقل مطبخه من الدواب لحمله . ذكروا ان عمرو بن الليث الصفار كان مطبخه يحمل على ٦٠٠ جبل^(٤) وكان للخليفة المقتني العباسي ثمانون جلاًّ تحمل الماء من دجله لشرب عياله^(٥) واما مقدار المطبوخ من كل طعام فلا قياس له على انهم كانوا يجعلونه اضعاف ما يحتاجون اليه مخافة ان يطرقهم اضياف فكانت الاطعمة تفيض بمقادير كبيرة يحملها الخدم وبيعونها ويرتفقون باثمانها^(٦)

فنتج من الانفاس في الاكل والتفنن في التشويق اليه كثير من علل القناة الهضمية توالى على اهل الترف في ذلك العهد كالقولنج وتلبك المعدة والدوزنطاريا وغيرها من عواقب النهم في اللحوم كالنقرس والروماتزم ونحوها . وتساهلت السويداء على امرجتهم وتولتهم حدة المزاج فجرّم الغضب الى سرعة الفتك والقتل من تغلب السويداء كما يتضح من مراجعة اخبارهم . وعلة ذلك في الغالب فساد الهضم . واشتهر من الخلفاء والامراء غير واحد من الاكلة منهم في ايام بني أمية معاوية بن ابي سفيان وعبيد الله بن زياد والحجاج ابن يوسف وسليمان بن عبد الملك واشتهر من بني العباس محمد الأمين^(٧)

(١) طبقات الاطباء ١٤٠ ج ١ (٢) المسعودي ١٩٩ ج ٢

(٣) تاريخ الوزراء ٣٥١ (٤) الفخري ٢٣٢ (٥) الفخري ٢٧٦

(٦) المقرئ ٣١٨ ج ١

(٧) المسعودي ٢٦٧ ج ٢ والفرج بعد الشدة ١٠٢ ج ٢

٢ - البذخ في الالبسة

كان المسلمون في صدر الاسلام يتوخون الخشونة في العيش والتعفف بالمطعم والملبس فكان الخليفة من الراشدين يمشي في الاسواق وعليه القميص الخلق المرفوع الى نصف ساقه او ثوب من كرباس غليظ وفي رجله نعلان من ليف وحمايل سيفه من ليف وفي يده درة يستوفي الحد بها ^(١) . وكان عيالهم في مثل حالهم اذا وفد احدهم على الخليفة لبس جبة صوف وتعمم بعمامة دكناء واحنذي خفين مطارقين ودخل عليه ^(٢) واول من اتخذ زي الملوك من أمراء المسلمين معاوية منذ كان اميراً في الشام . وقدم عليه عمر بن الخطاب في اثناء ذلك فلما رآه في ابهة الملك انكرها عليه وقال له « أكسروية يا معاوية ؟ » ^(٣) ثم تحضروا وكثرت الاموال بين ايديهم وخالطوا اهل الترف من الاعاجم فاضطروا بطبيعة المدنية الى التبسط في العيش والتعم باللباس . واحب الامويون الوشي كما تقدم واكثرهم رغبة في لبسه هشام بن عبد الملك فاجتمع عنده ١٢,٠٠٠ قميص وشي و ١٠,٠٠٠ نكة حرير . وكانت كسوته اذا حج تحمل على ٧٠٠ جمل ^(٤) وفي ابامهم تسابق الصناع الى اجادة الوشي . وزاد المسلمون بذخاً في ابام بني العباس ورغب اهل التجارة في حمل اصناف المنسوجات الحريرية والصوفية بين موشى ومطرز ومحك بالذهب او الفضة والمرصع بالحجارة الكريمة على اختلاف البلاد التي يصنع فيها على نحو ما يتناه في كلامنا عما يحمل من اصناف التجارة الى بغداد

ومن اهم المنسوجات الثمينة الخرز وهو نسيج ناعم يصنع من الحرير ومن وبر الخرز وهو ذكر الارانب ^(٥) . والابرسم حرير خالص والديباج نسيج حريري موشى بالقصب باشكال الحيوانات ونحوها . والبز نسيج قطني ثمين وغير ذلك من اصناف الحرير والكتان والاداري والملمح والمعلم والتمير ومنسوجات الشعر والوبر او الصوف وما يلحق ذلك من انواع السمور والقائم وغيره — يصنعون منها الاقبية والدراريع والطياسة والجلب والعائم والابراد والغلائل والملاحف والآزر والسراويلات والشاشيات والتكك وغيرها وكان الصناع يتبارون في اتقان هذه الصنائع ويغالون في ترفيعها لما يلاقونه من البذل

(١) الفخري ٢٥ و ٦٦ (٢) العقد الفريد ٦ ج ١ (٣) ابن خلدون ١٦٩ ج ١

(٤) المستطرف ٤٠ ج ٢ والعقد الفريد ٢٦٦ ج ٢ (٥) الف باء ١٨٧ ج ٢

في ابتياعها لتوفر الثروة بين ايدي الناس ولا سيما الخليفة واهل دولته فكان هؤلاء يتنافسون على اقتناء الالبسة لا يبالون كم يكون ثمنها حتى بلغت قيمة العمامة من الديبقي خمسمائة دينار وهم مع ذلك يكثرون من اقتنائها . وربما لبس الواحد ٩ اقبية كل قباء بلون خاص للمفاخرة في البذخ . وقد تزيد على اضعاف حاجتهم اليها فيجتمع عند احداهم عشرات او مئات او ألوف من القطعة الواحدة ولا سيما الخلفاء — مثاله ما خلفه المكتفي بالله من الالبسة وهو :

عدد

من الثياب المقصورة سوى الخمامات	٤,٠٠٠,٠٠٠
» الاثواب الخراسانية المروية	٦٣,٠٠٠
» الملاءات	٨,٠٠٠
» العائم المروية	١٣,٠٠٠
» الحلل الموشاة البمانية وغيرها منسوجة بالذهب	١,٨٠٠
» البطائن التي تحمل من كمران في انايب القصب	١٨,٠٠٠
» الابسة الارمنية	١٨,٠٠٠

وتوفي ذو اليمينين وفي خزانته ١٣٠٠ سراويل لم يستعملها ووجدوا في كسوة بختيشوع الطبيب ٤٠٠ سراويل ديبقي ولما قتل برجوان خادم الوزير بمصر وجدوا في تركته الف سراويل ديبقي بالف تكة حرير

وغالوا في البذخ حتى كسوا دوابهم المنسوجات الحريرة الموشاة وكان الفاطميون يلبسون الفيلة اجلة من الخسرواني الاحمر المذهب . وكان في القاهرة دار يصنع فيها الديباج ونحوه . وكان عند الفاطميين خزانة للثياب يسمونها دار الكسوة يصطنعون فيها جميع انواع الثياب والبرز ويكسبون بها الناس على اختلاف اصنافهم كسوة الشتاء وكسوة الصيف . وقد فصل المقرئ في ما تحويه تلك الدار من الالوان والاشكال ^(١) ولما جهز خمارويه ابنته قطر الندى الى الخليفة المعتضد العباسي كان من جملة الجهاز الف تكة ثمن الواحدة عشرة دنانير ^(٢) وقس عليه سائر الملابس

٣ - الاثاث والرياش والمجوهرات

كان الخلفاء الراشدون يجلسون على الارض مثل سائر الناس وكذلك عاملهم فكان عمرو بن العاص بمصر يجلس في قصره على الارض مع العرب وبأتيه المقوقس ومعه سرير الذهب محمول على الابدني لجلوسه شأن الملوكة بومئذ فيجلس عليه وهو على ما تقدم وفاء له بما اعتقد معهم من الذمة اطراحاً لابهة الملك . فما لبث المسلمون ان تحضروا واثروا حتى اتخذوا الاسرة الذهب والعاج وفاقوا الاكسرة والقيصرية قبلهم . واول من اتخذ السرير في الاسلام معاوية بن ابي سفيان ويريدون بالسرير المقعد او الكرسي الكبير . ولم يقدم معاوية على ذلك الا بعد استئذان المسلمين واعتذر بثقل جسمه فزعم انه بدن فأذنوا له فاتخذوه واقتدى به من جاء بعده من الخلفاء ^(١)

الاثاث والرياش عند الفرس

لما خرج المسلمون للفتح في زمن الراشدين كان اكثر ما لقوه من الفرش الفاخر والمجوهرات الثمينة في فارس عند فتح المدائن فدهشوا منه ولم يعرفوا قيمته . ذكروا بدويّاً ظفر يوم المدائن بحجر من الياقوت كبير يساوي مبلغاً عظيماً فلم يدر قيمته فاشتراه منه بعضهم بألف درهم ثم علم انه كان يساوي اضعاف ذلك المبلغ فلامه أصحابه على تقريطه به فقال « لو عرفت عددًا أكثر من الالف لاطلعت » ^(٢)

وكان في جملة ما عثروا عليه في المدائن كثير من الآنية والحلية الذهب المرصعة بالجواهر وفيها تاج كسرى نفسه والبسة من الديباج المنسوج بالذهب المنظوم بالجواهر . وظفر آخرون بسفطين في احدهما فرس من ذهب بسرج من فضة وعلى ثغره ولباته الياقوت والزمرد المنظوم على الفضة وفارس من فضة مكمل بالجواهر . وفي الآخرة ناقة من فضة عليها شاييل من ذهب مكمل بالجواهر . ووقع لهم بساط يسمونه القطيف طوله ٦٠ ذراعاً في ٦٠ مطرز بالصورة وعليه فصوص كالانهار ارضها مذهبة وخلال ذلك فصوص كالدر وفي حافات كالارض المزروعة والارض المبجلة بالنبات في الربيع والورق من الحرير على قضبان الذهب وزهره الذهب والفضة وثمره الجواهر . وحمل هذا البساط الى عمر في المدينة فقطعه وفرقه في اصحابه مثل سائر الغنائم ^(٣)

(١) ابن خلدون ٢١٧ ج ١ (٢) الفغري ٧٤ (٤) ابن الاثير ٢٥٥ ج ٢

وكان عمر اذا جاءته الغنائم من العراق وفيها الجوهر بكي لما كان يخافه من مصير المسلمين الى الترف الايل للسقوط . وكذلك ابو بكر وله سبق في نصرة الاسلام والفضل في تأييده فلما حضرته الوفاة وبَّخ المهاجرين وخوفهم وقال « والله لتتخذن نضائد الديباج وستور الحرير » والنبي قبلها نهى عن لبس الحرير واتخاذ آنية الذهب ^(١) فلم ينفعهم ذلك كله فما كادوا ياخذون باطراف الحضارة حتى انفسحوا باسباب التنعم بالفرش الوثير والرياش الفاخر بدأ بذلك الامويون لما تقدم من رغبتهم في الدنيا وتحولهم الخلافة الى الملك فاكثروا خلناؤهم المسرفون ولا سيما الوليد بن يزيد من العقود الجوهر يغيرها في كل يوم كما تنير الثياب وكان يجمعه من كل وجه ويغالي فيه حتى اغلاه ^(٢) على انهم اقتصروا من اسباب الحضارة على مثل ذلك لرغبتهم في البقاء على البداوة . الا ما اتخذوه من الستائر المطرزة التي كانت تصنع لهم في مصر كما تصنع للروم من قبل عليها طراز باليونانية مفاده البسمة عند النصارى ^(٣) فابدها عبد الملك بالطراز العربي بصورة التوحيد . غير ما استعملوه من الوسائد المزركشة

الاثاث والرياش عند العباسيين

لما انتقلت الخلافة الى العباسيين اشتغل السفاح والمنصور بتأسيس الدولة وتأبيدها فلما تأبىد سلطانهم مالوا الى الترفه فاخذوا بتقليد الدول السابقة لهم عملاً بناموس العمران فاقننوا الاسرة الذهب المرصعة بالجواهر او الابنوس المنزل بالعاج واتخذوا المقاعد والنارق والكراسي ونصبوا منائر الذهب اوقدوا فيها الشعوع من العنبر وعلقوا الستور المطرزة والموشاة وافتروشوا البسط والطنافس المزركشة والحصر المنسوجة بالذهب المكحلة بالدر والياقوت ^(٤) وغالوا في اقتناء آنية الذهب والنضة بأتون من كل بلد باحسن مصنوعاته واثمنها . فحملوا الستور المعلمة من فسا والبسط والمصليات من تستر وبخارا والحصر من عبادان والمقاعد من دشت - علي ان احسن اصناف الفرش المذهبة بطراز الذهب كانت تأتيمهم من ارمينية . والطاقم الارمني وهو عشرة مصليات بمخادها ومساندھا ومطارحھا وبساطھا يساوي خمسة آلاف دينار ^(٥) وكانت أطباق الخشب لآنية الطعام تأتيمهم من طبرستان والزجاج والخزف من البصرة واكثره وارد في الاصل من بلاد الصين علي ما فصلناه في كلامنا عن التجارة من هذا الجزء . ولكن الزجاج الرقيق كان يحمل اليهم من الشام وكان يضرب به المثل بالركة والصفاء فيقال ارق

(١) الف باء ١٨٧ ج ٢ (٢) الاغانى ١٢٩ ج ٦ (٣) الديميري ٥٨ ج ١

(٤) ابن خلدون ١٤٥ ج ١ (٥) الفرج بعد الشدة ١٠٣ ج ١

من زجاج الشام واصفى من زجاج الشام^(١) — اتخذوا ما تقدم من اذنية والمفروشات تقليداً للفرس راروم على ما كانت عليه عندهم ثم عربوها فجعلوها ما ينقش عليها من الكتابة باللغة العربية بن امثال وأشعار وحكم ينقشونها على الستور ويعلقونها بمسامير الذهب والنفضة^(٢) وبزر كشون البسط والطنافس فيرسمون في اواسطها اشكالا وصوراً مما في السبر والبحر ويطرزون حواشيها بالذهب او القصب اياتاً من الشعر وربما طرزوا دور البساط بقصيدة^(٣) وغالوا في الزخرفة حتى نقشوا الاشعار على آنية البلور واطبق الطعام وعلى جدران القاعات وفوق ابوابها — يتفاوت ذلك شكلاً ومقداراً بتفاوت طبقات الناس من المطرز بالحري الى المزركش بالقصب فالحلى بالذهب فللمرصع بالجوهر — كالسباط الذي كان لام المستعين وعليه صورة كل حيوان من جميع الاجناس وصورة كل طائر من ذهب واعينها يواقيت وجواهر انفتت في صنعه ١٣٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم^(٤)

واحدث العباسيون في عهد الرشيد اشكالا من الفرس وفونه لم يسبقهم اليها احد منها ما ينسبون اختراعه الى زوجته زبيدة فقد ذكروا انها اول من اتخذ القباب من النفضة والابنوس والصندل وكلاهما من الذهب والنفضة مابسة بالوشي والسمور والديباج وانواع الحرير الاحمر والاصفر والاخضر والازرق^(٥) .

واخترع العباسيون المذاب وهي نوع من المراوح لم تكن معروفة قبلهم^(٦) وفتنوا في تزيينها وكتابة الاشعار عليها مما يناسب المراد بها او يشار به الى غرض . كما فعل ابو العتاهية في طلب الجارية عنة من الرشيد وكان يخاف ان يرده فاهدى اليه ثلاث مراوح كتب على كل منها بيتاً هذا مجموعها :

ولقد تنسمت الرياح لحاجتي فاذا لها من راحتيه شميم
اعلمت نفسي من رجئك ماله عنق يحث اليك بي ورسيم
ولربما استاسيت ثم اقول لا ان الذي ضمن التيجاج كربم^(٧)
على ان كتابة الاشعار على المراوح كانت معروفة في ايام بني امية^(٨)

(١) لطائف المعارف ٩٥ (٢) الاثنيدي ٩١ (٣) الاغنى ٤١ ج ١٥

(٤) المستطرف ١٣٤ ج ١ (٥) المسعودي ٣٦٦ ج ١

(٦) الاغنى ٨١ ج ١٢ (٧) المسعودي ١٩٦ ج ٢

(٨) العقد الفريد ١٠٨٤ ج ٣

المجوهرات عند العباسيين

تعالى الخلفاء العباسيون في اقتناء المجوهرات ولا سيما الدر وهو اللؤلؤ الكبير . وياقوت الاحمر القاني ويسمى البهرماني . وبتلوه الاحمر المشرق الرماني ثم الازرق الغميق ونشوب زرقته حمرة . ويسمى الاسمانجوني . وبعده الاصفر وهو الفاقع اللون وبعده الذهبي . ولكل من هذه الاشكال قيمة تختلف باختلاف الصفاء والحجم . ومنها الزمرد واحسنه يعرف بالذباني لقرب لونه من لون الذباب الكبير المائل الى الخضرة . والماس كانوا يفضلون منه ما يشوب لونه حمرة يسيرة - هذا هم ما كانوا يتفاخرون باقتنائه من الحجارة الكريمة واما الفيروز والمرجان والعقيق والجزع فقلما كان الملوك يقتنونه لكثرتهم

واكثر ما تناقله المسلمون من الحجارة الكريمة في اوائل دولتهم مأخوذ من غنائم الفرس لانهم غنموا ما يفوق الحصر من الجواهر التي قضى الفرس اجيالاً وهم يجمعونها ويتوارثونها فقبضها العرب صفقة واحدة ولم يعرفوا قيمتها كما بيناه آنفاً . واصابوا نحو ذلك لما حاربوا الاكراد فانهم غنموا سफطاً فيه جوهر حملوه الى عمر في جملة الغنائم فامر ببيعه وقسمه ثمنه في المسلمين فباعه وقسمه وكان الفص يباع بخمسة دراهم وقيمته عشرون ألفاً^(١)

ولما تحضروا صاروا يشترون الجواهر بالاثمان الغالية فاشتري الرشيد فص ياقوت احمر باربعين الف دينار وكان قديماً ويعرف بالجلبل والملوك تصونه فنقش عليه الرشيد اسمه^(٢) واشتري فصاً آخر بمائة وعشرين الف درهم^(٣) وعرض احد تجار المصوغات ببغداد على يحيى ابن خالد سفت جوهر فساومه على ثمنه بسبعة ملاين درهم^(٤)

وكثيراً ما كانوا يستخدمون الجواهر بدلاً من المبالغ الكبيرة فاذا عزم احدهم على سفر طويل يستغرق نفقة عشرة آلاف دينار مثلاً فبدلاً من ان يحمل ذلك المال ذهباً او فضة استبدله بمجوهره او عدة جواهر يسهل حملها في الجيب . فاذا وصل الى البلد المقصود باع الجواهر وانفق من ثمنها كما يفعل الناس اليوم بتحاويل المصارف المالية او البنك نوط

وكان الامويون يرغبون في المجوهرات ايضاً وقد رصعوا بها الحلي وبعض الآنية واصطنعوا منها العقود للبسه ولبس نساءهم وجواربهم . اما العباسيون فبالغوا في ذلك حتى نظموا في عصائب نساءهم كما فعلت اخت الرشيد^(٥) ورصعوا بها خفافين كما فعلت ام جعفر

(١) ابن الاثير ٢٤ ج ٣ (٢) المسعودي ٣٠٠ ج ٢

(٣) الاتليدي ١٤١ (٤) الطبري ١٨٩ ج ٢ (٥) الاغانى ٨٣ ج ٩

زوجته^(١)

فكان الخلفاء العباسيون يقننون من الآنية والفرش والمجوهرات والثياب ما لا يعلم مقداره إلا الله بذلك على ذلك ما قدمناه مما خلفه المكتفي وغيره وما اخرجوه من خزائهم في فتنه البساسيري في اواسط القرن الخامس من حملته ٧٥,٠٠٠ قطعة ديباج و ١١,٠٠٠ كراغند و ٣٠,٠٠٠ سيف وهو بعض ما كان في دار الخليفة ومع ذلك فهو لا يقاس بما كان عند الفاطميين كما سترى

وقد انكر ابن خلدون ترف بني العباس في ملابسهم وزينتهم وسائر متناولاتهم لما كانوا عليه من خشونة البداهة^(٢) واستشهد بالمسعودي والطبري . ولا ينطبق رأيه في ذلك على ما ذكره هذان ولا على ما قاله هو نفسه . لان المسعودي هو الذي اخبرنا بنظم الجوهر في خفاف ام جعفر وهي من اقرب الناس للنقوى . والطبري اورد اخباراً كثيرة تدل على ترف العباسيين في عصر الرشيد . غير ما ذكره غيرها من ثقات التاريخ والادب المتقدمين كاصحاب الانافي والعقد الفريد والمبرد والمعارف ولطائف المعارف وغيرهم . ونقل المؤرخون عنهم ذلك ولم يكبروه ولا اعترضوا عليه — حتى ابن خلدون نفسه فقد ذكر في مقدمة تاريخه « ان المأمون اعطى بوران في مهرها ليلة زفافها الف حصاة من الياقوت وقد اوقد الشموع الغبير في كل واحدة مائة من وثلثان وبسط لها فرشاً كان الحصور منها منسوجاً بالذهب مككلاً بالدر والياقوت^(٣) ويلوح لنا ان ما كانوا يتجافون عنه في صدر الدولة العباسية انما هو الركوب بحلمة الذهب واول من ركب فيها منهم المعتز بالله^(٤) فوثرنا الفيلسوف شديد الرغبة في تنزيه العباسيين عن الترف وهم من اعرق الخلفاء فيه

بذخ الفاطميين

كان العباسيون قدوة لمن قام بعدهم من الدول الاسلامية في مصر والشام والمغرب والاندلس . فالفاطميون بمصر كانوا يناظرون العباسيين في كل شيء حتى في اسباب الحضارة وكان التمدن الاسلامي قد نضج والدولة العباسية اخذت بالتقهقر ففاقوهم في كثير من اسباب البذخ والترف ولا سيما من حيث الاثاث والرياش والثياب فقد رأيت ان العباسيين رصعوا عصابات نسائهم وخفافهن بالجواهر ولكن الفاطميين رصعوا بها آنية المطبخ واخذوا كوز الزير من البلور رصعاً بالجوهر وكللوا المزينة بحب اللؤلؤ النفيس وتأفقوا في المصوغات

(١) المسعودي ٣٦٦ ج ٢ (٢) ابن خلدون ١٥ ج ١

(٣) ابن خلدون ١٤٥ ج ١ (٤) المسعودي ٣٠٥ ج ٢

حتى اتخذوا منها التماثيل المرصعة للزينة في مجالسهم • فإذا جلس الخليفة في إحدى المناظر للراحة أو تبديل الثياب وضعوا بين يديه الصواني الذهب عليها أشكال الصور الآدمية والوحشية من الفيلة والزرافات ونحوها معمولة من الذهب والفضة والعنبر والمرسين المشدود والمظفور عليها المكمل باللؤلؤ والياقوت والزبرجد ومن الصور الوحشية ما يشبه الفيلة بينها عنبر معجون تحلقة الفيل وناباه فضة وعيناه جوهرتان كبيرتان في كل منهما مسمار ذهب مجرى سواده وعنق الفيل سرير منجور من عود بمسكات فضة وذهب وعليه عدة من الرجال ركبان عليهم اللبوس تشبه الزرديات وعلى رؤوسهم الخود وبأيديهم السيوف المجردة والدرق وجميع ذلك فضة • ثم صور السباغ منجورة من عود وعينا السبع ياقوتتان حراوان وهو على فريسته وأشكال من سائر الوحوش • واصناف تشد من المرسين المكمل باللؤلؤ شبه الفاكهة ^(١)

وكان للفاطميين في القاهرة دور يختزنون بها أدوات الترف والبذخ يسمونها خزائن بعضها للنشر والبعض الآخر للجوهر وآخر للطيب وآخر للبندود وآخر للسلاح وآخر للسروج أو الدرق أو الكسوات أو الأدم أو الشراب أو التوابل أو الخليم • وكان الخليفة يذهب الى مجالس خاصة له في تلك الخزائن • والمجلس عبارة عن دكة عليها طراحة ولها فراش يخدمها وينظفها ليجلس الخليفة عليها إذا زار تلك الخزانة • وقد توسع المقريني في وصف هذه الدور وما حوتها من الآلة والرياش والثياب والجواهر والأطياب بما يضيق عنه هذا المقام فليراجع في مكانه ^(٢) ونأتي بشيء من ذلك على سبيل المثال :

الحلى والجواهر عند الفاطميين

فما أخرجوه من خزانة الجوهر في أيام الشدة على عهد المستنصر بالله (توفي سنة ٤٨٧ هـ) صندوق فيه سبعة أمداد زمرد سألوا الصياغ عن قيمتها فقالوا إنما نعرف قيمة الشيء إذا كان مثله موجوداً • واستخرجوا خريطة فيها وية جوهر قال الصياغ إن لا قيمة له وأصل ثمنه ٧٠٠,٠٠٠ دينار يبيع يومئذ بعشرين ألف دينار • ووجدوا ما لا يحصى من أقداح البلور المنقوش والمجروح وصحوناً من الميناء منها ما يساوي مئات من الدنانير وفي مكان آخر ١٨,٠٠٠ قطعة من بلور تتراوح أثمانها بين عشرة دنانير والف دينار كل قطعة • وصوان من الذهب الجرة بالميناء وغير الجرة المنقوشة بأنواع النقوش و ١٧,٠٠٠ غلاف خيار مبطن بالحرير محلاة بالذهب • ونحو مئة كأس بادزهر وأشباهها

(١) المقريني ٤٧٢ ج ١ (٢) المقريني ٤٠٩ — ٤٢٥ ج ١

على اكثرها اسم هرون الرشيد

غير ما وجدوه هناك من الصناديق المملوءة بالسكاكين المذهبة والمفضضة وانصابها من الجواهر المختلفة وصناديق مملوءة دوى (جمع دواة) على اختلاف الاشكال من الذهب والفضة والصندل والعود والابنوس والعاج محلاة بالجواهر مما يساوي الف دينار الى بضعة آلاف كل دواة . وعدة ازيار مملوءة كافوراً وعدة حجاجم عنبر ونوافج المسك التيبقي وشجر العود وغيره

ومما خلفته رشيدة بنت المعز وحفظ هناك ما قيمته ١,٧٠٠,٠٠٠ دينار من جماتها ١٢,٠٠٠ من الثياب المصمت الواناً و ١٠٠ قاطر ميز مملوءة كافوراً قيصورياً ومعجمات بجواهر من ايام المعز . ويبت هرون الرشيد الخضر الاسود الذي مات فيه بطوس . ومثل ذلك مما تركته عبدة بنت المعز ايضاً ويطول شرحه . وخزائن مملوءة بانواع الصبغ تساوي القطعة منها الف دينار وحصير من الذهب وزنه عشرة ارطال يظن انه الحصير الذي حملت عليه بوران بنت الحسن بن سهل لما زفت الى المأمون كما تقدم وصوائ من الذهب كان ملك الروم اهداها الى العزيز بالله

ووجدوا انواعاً من الشطرنج والتزد مصنوعة من الجواهر والذهب والفضة او العاج او الابنوس وعدد كبير من الزهريات ونحوها . ومن تماثيل العنبر ٢٢,٠٠٠ قطعة اقل تمثال منها وزنه ١٢ مثناً ومن تماثيل الخليفة ما لا يحصى . والكلوثة المرصعة بالجواهر قيمتها ١٣٠,٠٠٠ دينار فيها من الجواهر ١٧ رطلاً . وطاووس من ذهب مرصع بنفيس الجواهر عينا من ياقوت احمر وریشه من الزجاج المينا المجري بالذهب على الوان ريش الطاووس . وغزال مرصع بنفيس الدر والجواهر بطنه ابيض قد نظم من در رائق . ومائدة من الجوز يقعد عليها جماعة قوائها مخروطة . ومخلة ذهب مكحلة بالجواهر وبديع الدر في اجانة من ذهب تجمع الطلع والبلع والرطب بشكله ولونه وعلى صفته وهيأته من الجواهر لاقيمة لها . وكوز زير بلور مرصع يحمل عشرة ارطال ومزيرة مكحلة بحب لؤلؤ نفيس وقس على ذلك عشرات من امثاله

الفرش والاثاث عند الفاطميين

ووجدوا في خزائن الفرش من اصناف الاثاث والرياش ما يعده بالالوف . من ذلك ١٠٠,٠٠٠ قطعة خسرواني اكثرها مذهب ومراتب خسرواني وقلوني ثمن الواحدة ٣,٥٠٠ دينار واجلة معمولة للقبيلة من الخسرواني الاحمر المذهب و ٣,٠٠٠ قطعة خسرواني احمر

مطرز بابيض من هدهبا لم يفصل من كساء البيوت كاملة بجميع آلاتها ومقاطعها وكل يت
يشتمل على مسانده ومخاضه ومساوره ومراتبه وبسطه ومقاطعته وستوره وكل ما يحتاج اليه .
ومثل ذلك من المخمل والديباج والخز وسائر انواع الحرير وعليها اشكال الصور من كل
شيء . ونحو الف من الستور الحرير المنسوجة بالذهب على اختلاف ألوانها واطوالها فيها
صور الدول وملوكها ومشاهيرها وعلى صورة كل واحد اسمه ومدة ايامه وشرح حاله .
و ٤٠٠٠ رزمة خسرواني مذهب في كل رزمة فرش مجلس يبسطه وتعاليقه وسائر آلاته
منسوجة في خيط واحد . ومن جملتها مقطع من الحرير الازرق التستري غريب الصنعة
منسوج بالذهب وسائر ألوان الحرير كان المعز لدين الله امر بعمله وفيه صورة اقاليم الارض
وجبالها وبحارها ومدنها وانهارها ومساكنها شبه الخارطة الجغرافية . وفيه صورة مكة
والمدينة ومكتوب على كل مدينة وجبل وبلد ونهر وبحر وطريق اسمه بالذهب والفضة او
الحرير وقد كتب في آخره « مما امر بعمله المعز لدين الله شوقاً الى حرم الله واشهاراً لمعالم
رسول الله في سنة ٣٥٣ هـ »

فاعتبر ما تدل عليه هذه الآثار من رقي المدنية والحضارة وكما تكون قيمتها لو وجدت
الآن وكما يدفع المتمولون من المبالغ في الحصول عليها

وقس عليه ما كان في سائر الخزائن من التحف في خزانة السلاح سيف الحسين بن علي
ودرقة حمزة بن عبيد المطلب وسيف جعفر الصادق ومئات الألوف من الدروع والسيوف
والقسي والرماح وغيرها . وفي خزانة السروج ألوف من السروج الثينة ومنها ما يساوي الف
دينار الى سبعة آلاف دينار . وفي خزانة الخيم انواع الفساطيط والمضارب والمسطحات
والحصون والقصور والشراعات والمشارع العمومية من الديبقي والمخمل والخسرواني والديباج
المكي والارمني والبهنساوي والكردواني وغير ذلك على اختلاف الالوان والنقوش من الفيل
والسبع والخيل والمطوس والمطير وغيرها من اشكال السباع والطيور والآدميين مما ينصب على
اعمدة ملبسة بالفضة . ومن هذه الفساطيط ما يبلغ طوله ٦٥ ذراعاً كبيراً يحمله مع
ملحقانه مئة حمل . وفي خزانة البنود كثير من الرايات والاعلام السادة والمطرزة وغيرها
ومن ادلة الترف والاسراف في هذه الدولة ان السيدة الشريفة ست الملك اخت
الحاكم بامر الله اهدت اخاها هذا هدايا من جملتها ثلاثون فرساً وبراً كبتها ذهباً منها مركب
واحد مرصع ومركب من حجر البلور وتاج مرصع بنفيس الجوهر وبستان من الفضة مزروع
من انواع الشجر

وقد يتبادر الى الذهن ان ما تقدم ذكره لا يخلو من مبالغة او هو من قبيل الاحاديث الخرافية . ولكن مصر اشتهرت في الاعصر الاسلامي الوسطى بالثروة مثل شهرة بغداد في ابان حضارتها واشتهر المصريون بالترف والغنى حين كان الناس يشكون الضيق ^(١) ولذلك قالوا « من دخل مصر ولم يستغن فلا اغناه الله » وقد تواتر ذكر هذه التحف وامثالها في كتب الثقات وبعضهم شهد الامر بنفسه ورأى هذه التحف رأي العين ومنهم ابن الاثير المؤرخ الشهير فقد ذكر في حوادث سنة ٥٦٧ هـ التي اقام فيها السلطان صلاح الدين الخطبة بمصر للدولة العباسية واستولى على ما كان باقياً في قصور الخلافة من التحف والجواهر بعد ما اصابها من النهب في فتنة المستنصر وغيره — قال « وحمل الجميع الى صلاح الدين وكان من كثرته يخرج عن الاحصاء وفيه من الاعلاق النفيسة والاشياء الغريبة ما تخلو الدنيا من مثله ومن الجواهر التي لم توجد عند غيرهم فمنه الجبل الياقوت وزنه سبعة عشر درهماً او ١٧ مثقالاً انا لا اشك لاني رأيتُه ووزنتُه واللؤلؤ الذي لم يوجد مثله ومنه النصاب الزمرد الذي طوله اربع اصابع في عرض عقد كبير » ^(٢)

بذخ الاندلسيين

واقندى بالعباسيين في الترف والبذخ الاندلسيون ولكنهم لم يبلغوا مبلغ المصريين فيهما . على ان بعضهم تفغن بذلك على شكل لم يسبقه احد الى مثله فالمنصور بن ابي عامر في اواخر القرن الرابع قدم عليه رسول ملك الروم وهو اعظم ملوك النصارى في ذلك الزمان ليطلع على احوال المسلمين وقوتهم . فاراد المنصور ان يبعثه بها يطلعه عليه من عز الدولة وثروة المملكة فأمر ان يغرس في بركة عظيمة ذات اميال نيلوفر ثم امر باربعة قناطير من الذهب واربعة قناطير من الفضة فسبكت قطعاً صغاراً قدر ما تسع النيلوفرة وملاً بها جميع النيلوفر وبعث الى الرسول فحضر عنده قبل الفجر في مجلسه بالزاهرة فاجلسه بحيث يشرف على موضع البركة . فلما قرب طلوع الشمس جاء الف من الصقالبة عليهم الاقبيصة والمناطق من الذهب والفضة ويبد ٥٠٠ منهم اطباق من ذهب ويبد ٥٠٠ اطباق من فضة فتعجب الرسول من جمالهم ولم يدر الغرض من مجيئهم . فحين اشرفت الشمس ظهر النيلوفر في البركة وبادروا لاختذ الذهب والفضة منه وكانوا يجعلون الذهب في اطباق الفضة والفضة في اطباق الذهب حتى النقطوا جميع ما فيها وجاؤا به فعرضوه بين يدي المنصور حتى صار كوماً فتعجب الرسول من ذلك واعظمه وطلب المهادنة . واصطنع المنصور هذا قصرًا من فضة لصبح ام

هشام وحمله اليها على رؤوس الرجال استجلاً لحبها^(١)
 واغرب منه ما فعله المعتمد الاندلسي لأُم اولاده الريمكية الملقبة اعتماد وقد رأت ذات
 يوم نساء البادية باشبيلية يبعن اللبن في القرب وهن رافعات عن سوقهن في الطين فقالت
 « يا سيدي اشتهي ان افعل انا وجواري» مثل هؤلاء النساء « فأمر المعتمد بالعنبر والمسك
 والكافور وماء الورد وصير الجميع طيناً في القصر وجعل لها قرباً وحبالاً من الابريسم وخرجت
 هي وجواريتها تخوض في ذلك الطين^(٢)

وقس على ذلك سائر ملوك الاسلام في عصر الترف فقد كان عند سنجر بن ملكشاه
 ١٠٣٠ رطلاً من الجوهر ولم يسمع بمثله عند الملوك . وكانوا يقيسون الاسراف احياناً بما
 ينفقونه من الشمع في الاضواء فذكروا ان وظيفة كل من ابن بقية وعز الدولة الف من
 شمع في الشهر^(٣) واشتهر محمد الامين بكبر شمع . ولم يكن ذلك الترف قاصراً على الخلفاء
 والملوك والامراء ولكنه كان يتناول سائر رجال الدولة ومن يرتزق منهم واما العامة فربما
 كانوا في اشد الضيق — راجع الجزء الثاني من هذا الكتاب ١٨٣

٤ — التسري

هو اقتناء الجواري للتمتع بهن او استيلا دهن . وقد علمت ما كان من تكاثرهن
 والاتجار بهن وتربيتهم وتهاديهن في ذلك العصر . وتكلم هنا عما بعث عليه الترف من
 تسريهن . وكثيراً ما يعقب التسري الزوج فاذا ولدت الجارية لاحدهم تزوجها . وكان
 العرب يكرهون الزوج بالجواري فمع كثرتهم في صدر الاسلام لم يتزوج الراشدون
 جارية^(٤) ولكن المسلمين كانوا يتسرونهن للفراش . فتوفي الامام علي عن ٤ نسوة
 و ١٧ سرية^(٥) وكانت تلد الجارية لاحدهم فيبيعها كما يبيع سائر الجواري فنهى عمر
 عن بيع امات الاولاد^(٦) وكانت العرب في كل حال تحتقر ابناء الجواري حتى نبغ
 منهم ثلاثة من كرام الرجال امهاتهم من بنات يزدجرد^(٧) فرغب الناس في التسري

(١) نفع الطيب ٧٣١ و ٧٣٢ ج ٢ (٢) نفع الطيب ٢٠٨ ج ١

(٣) ابن خلكان ٨٧ ج ١ و ٦٣ ج ٢

(٤) ابن الاثير ٢٦ و ٩٢ ج ٣ (٥) الف باء ٣٤٧ ج ٢

(٦) ابن الاثير ٢٩ ج ٣ (٧) ابن خلكان ٣٢٠ ج ١

وايس المسلمون اول من اُقتنى السراري فالتسري كان شائعاً عند الرومانيين والسرية عندهم اخط منزلة من الزوجة ولكن علاقتها مع الرجل كانت شرعية • وكانوا في اول امرهم كالعرب يكرهون التسري حتى تقدمهم فيه اثنان من كبار امراءهم فمكفوا عليه^(١) وزادت رغبة المسلمين في التسري في ابان الحضارة حتى اصبح اكثر ابناء الخلفاء من اولاد الجواري^(٢) واكثر نساء اهل الدولة منهن واقتدى بهم سائر الوجهاء والاعنياء • فعمدوا الى اقتناء السراري ومن ولدت له زوجها او اعتمها • فبلغ عددهن عند بعض الخلفاء عدة آلاف ذكروا انه كان للمتوكل العباسي ٤,٠٠٠ جارية وطعن جميعاً^(٣) وعلم الامراء برغبته فيهن فتقربوا اليه بالهدايا منهن فاهداه عبدالله بن طاهر ٤٠٠ وصيفة •^(٤) وكان لنصر الدولة صاحب ميافرقين ٣٦٠ سرية على عدد ايام السنة^(٥) غير ما كانوا يقتنونه من الجواري للغناء فقد كان عند الرشيد ٢,٠٠٠ جارية^(٦) منهن ٣٠٠ قبيلة للغناء والضرب على آلات الطرب^(٧)

واصبح الاستكثار من الجواري عادة مألوفة حتى صار النساء يقتنينهن للزينة • فكان عند ام جعفر البرمكي ٤٠٠ وصيفة يخدمها^(٨) وقد رايت ما اتخذته زبيدة من الجواري المقدر دات وكيف البسهن ملابس الغلمان فقلدتها الوجهات من اهل اليسار فاتخذن الجواري المطبوعات او الغلاميات ثم تبارى الخلفاء وسائر الكبراء في ذلك حتى الف القاهرة بالله العباسي جوقاً من الجواري بهت واحد البسهن القراطق والاقبية والطرار والاقبية والمناطق من الذهب او الفضة كأنهن الغلمان^(٩)

وقس على ذلك سائر دول المسلمين في المشرق والمغرب وقد فاق الفاطميون سواهم في الاكثار من الجواري ايضاً فكان في قصر الحاكم بامر الله ١٠,٠٠٠ جارية وخادم^(١٠) وكان عند اخوته السيدة الشريفة ست الملك ٨,٠٠٠ جارية منها ١,٥٠٠ من البنات الابكار^(١١)

(١) Gibbon II, 205 (٢) الجزء الرابع ١٥٣

(٣) المسعودي ٢٧٩ ج ٢ (٤) الاغانى ١٣٣ ج ١٩

(٥) ابن خلكان ٥٧ ج ١ (٦) الاغانى ١٨ ج ٩

(٧) الانليدي ٦٧ (٨) المسعودي ٢٠٨ ج ٢

(٩) المسعودي ٣٦٦ ج ٢ (١٠) المقريري ٣٦ ج ١

(١١) المقريري ٤٨٥ ج ٢

ولما قبض صلاح الدين على قصورهم وجد في القصر الكبير ١٢,٠٠٠ نسمة ليس فيهم
 خل الا الخليفة واهله واولاده غير الخدم والعلماء والامعة والتحف واطلق صلاح الدين
 البيع فيهم فاستمروا يبيعون عشرين^(١) ويقال نحو ذلك في السلاطين الممالك بمصر
 وبني امية في الاندلس مما يطول شرحه ولا يزال مثاله عند بعض امراء الشرق وملوكه
 الى اليوم

اثمان الجواري

والاستكثار من الجواري في اوائل الاسلام لم يكن يحتاج الى نفقة كبيرة لكثرة السبايا
 فلما نضج التمدن صاروا يبتاعونها ويقالون في رفع اثمانهن وكانت اسعارهن تنضاعف اذا
 جمع بين الجمال ورخامة الصوت وصناعة الغناء . ويختلف ثمن الجارية من بضع مئات الى
 بضعة آلاف او مئة الف دينار . واول من بذل في هذا السبيل الى هذا المقدار سعيد اخو
 سليمان بن عبد الملك فابتاع الزلفاء الجارية الشهيرة بمليون درهم^(٢) (نحو ٧٠,٠٠٠ دينار)
 وابتاع الرشيد جارية بمئة الف دينار^(٣) وجارية اخرى اشتراها من ابراهيم الموحي
 بمبلغ ٣٦,٠٠٠ دينار فباتت عنده ليلة ثم ارسلها الى الفضل . وطلب محمد الامين الى جعفر
 ابن الهادي ان يبيعه جارية له اسمها بذل فابى فامر فاقروا قاريه ذهباً فبلغت قيمة ذلك
 ٢٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم^(٤) اي اكثر من مليون دينار — وهذا اذا صح كان اعظم ما بلغ
 اليه بذلهم في اثمان الجواري

واما ما خلا ذلك فقد اشترى يزيد بن عبد الملك الاموي سلامة المغنية بعشرين
 الف دينار وبيعت الجارية ضياء بخمسين الف دينار واشترى جعفر البرمكي جارية
 باربعين الف دينار وابتاع الواثق بالله جارية مولدة للغناء اسمها الصالحية بعشرة آلاف
 دينار . وقس عليه ما دون ذلك وما فوقه واعتبر مقدار ما كانوا ينفقونه من الاموال
 في افنائهن

(١) المقرئ ٤٩٧ ج ١ (٢) العقد الفريد ٢٠٣ ج ٣ والمستطرف ١٣٢ ج ٢

(٣) الطبري ١٣٣٢ ج ٢ (٤) العقد الفريد ٤٣ ج ٣ والاغانى ١٤٥ ج ١٥

٥ — السخاء

علمت مما تقدم انطباع العرب على السخاء من ايام جاهليتهم وانهم اضطروا للحفاظ على عليه بعد الاسلام حتى اصبح من قواعد الارتزاق في من يحومون حول الخليفة واهل الدولة فلما توفرت الاموال في ايدي هؤلاء وتمتعوا بالحاجيات والكاليات من المالاذ الجسدية تطلبوا المالاذ المعنوية بحسن الاحدوثة وهم اهل اريحية يستفهم الاطراء والاستنجاد فوجدوا في السخاء باباً واسعاً لتلك المالاذ فبدلوا الاموال على الشعراء والندماء والمغنين والمستجدين من سائر الطبقات لما في ذلك من لذة الفخر او توفع الأجر

مبلغ السخاء على العموم

وقد ذكرنا في كلامنا عن الارتزاق بالسخاء ما الذي بعث على بقاء هذه المنقبة الجاهلية حتى صارت سنة مرعية . وتدرج المسلمون فيها بتدرجهم في الحضارة والمدنية وزادت جوائزهم بزيادة الثروة واتساع الارزاق فكان الامويون يعطون بالالف درهم او بضعة آلاف يلحقونها ببعض الماشية او الكسوة او الخيل واذا توسموا في العطاء مصلحة جعلوا الصلة عشرة آلاف او عشرات الالوف او مئة الف او مئات الالوف كما فعل معاوية في استرضاء الناس واكتساب بني هاشم الى حزبه فانه جعل صلات ابناء الصحابة ملايين يبذلها رواتب كل عام . وهو أول من فعل ذلك من المسلمين غير ما كان يصلهم به من الهدايا لسبب او لغير سبب كما فعل لما ولد لعبد الله بن جعفر غلام فبذل له ١٠٠,٠٠٠ درهم على ان يسميه معاوية فرضي ولكنه اعطى تلك الصلة للذي بشره بالغلام^(١)

واقتردى معاوية من خلفه من الامويين وامرائهم واشتهر من هؤلاء آل المهلب بالسخاء في الدولة الاموية كما اشتهر البرامكة في الدولة العباسية^(٢) ومن استخياء عالمهم خالد القسري والحجاج بن يوسف اذا مست الحاجة الى السخاء . فالحجاج اعطى للذي توسط في زواجه بهند بنت اسماء ثلاثين غلاماً مع كل غلام عشرة آلاف درهم وثلاثين جارية مع كل جارية تحت من ثياب وغير ذلك^(٣) وكان سعيد بن العاص لا يرسل الى أحد هدية مع عبد الأ كان العبد في جملةتها^(٤)

اما العباسيون فكانت الثروة في ايامهم اوفر فبلغت اعطياتهم عشرات الملايين من

(١) الاغانى ٧١ ح ١١ (٢) ابن خلكان ٢٦٦ ج ٢

(٣) الاغانى ١٣٠ ج ١ (٤) الفرج بعد الشدة ٣٣ ج ٢

الدرهم واول من اعطى هذا القدر منهم المنصور^(١) ثم صاروا يهبون الضياع وخراج البلاد او يوقرون الزوارق ذهباً او فضة او يهدون الغلمان يحملون بدر المال او يرسلون الجائزة على مئات من الدواب او يولون الولايات والاعمال وتزداد جوائزهم اذا استخفهم الطرب واستفزهم الاطراء فقد ولي السفاح رجلاً الاهواز بقصيدة^(٢) والغالب ان يكون سخاؤهم لغرض سياسي يعود نفعه على الدولة كما فعل المنصور اذ اعطى في يوم واحد عشرة ملاهين درهم فرقها في اعمامه ووجوه قواده ليقطع السنتهم عن مقاومته ولما تولى ابنه المهدي استكتب اسماء اولاد المهاجرين والانصار وجلس مجلساً عاماً فرق فيه ٣,٠٠٠,٠٠٠ درهم وقرر لكل واحد من اهل بيته ٦,٠٠٠ درهم كل سنة^(٣) واعطى المغيرة بن حبيب الف فريضة يضعها حيث شاء^(٤) وفرق الرشيد في يوم واحد ١,٣٥٠,٠٠٠ دينار^(٥) وطرب يوماً فنثر على الناس ٦,٠٠٠,٠٠٠ درهم^(٦) واعطى الهادي لعبد الملك بن مالك صاحب شرطة ابيه مالا ارسله اليه على ٤٠٠ بغل موقرة دراهم^(٧) واعطى الامين الى سليمان بن ابي جعفر مليون درهم^(٨) واخص الامين من اساليب السخاء بانه كان يأمر بايقار زورق الطالب ذهباً او فضة وكان قصره على شاطئ دجلة فاذا جاءه شاعر او طالب في زورق واخذته الاريجية او استخفه الطرب قال «أوقروا زورق هذا ذهباً او فضة» وقلما كانوا يفعلون ذلك والغالب ان يعوضوا عنه بمبلغ من المال كما فعلوا بابي محمد التيمي فانه مدح الامين بقصيدة اطرته فامر الفضل بن الربيع ان يوقر زورقه مالا فقال «نعم يا سيدي» فلما طالبه التيمي بذلك قال له الفضل «انت مجنون من اين لنا ما يملأ زورقك؟» ثم صالحه على ١٠٠,٠٠٠ درهم^(٩) واجاز المأمون طبيبه بمليون درهم والفرق حفظه^(١٠) وفرق المأمون في ساعة ٢٦,٠٠٠,٠٠٠ درهم ومدحه اعرابي فاجازه بثلاثين الف دينار^(١١) وكان المتوكل يهب القطائع جوائز على المدح^(١٢) وقس على ذلك هدايا سائر الخلفاء وانما ذكرنا اعطائها لبيان

(١) لطائف المعارف ١٦ (٢) فوات الوفيات ٢٠ ج ١

(٣) سير الملوك ٦٥ و ٦٦ (٤) الاغانى ٩٨ ج ١٨

(٥) المستطرف ١٣٥ ج ١ (٦) الاغانى ٨٨ ج ٩ و ١٢٤ ج ١٧

(٧) ابن الاثير ٤٢ ج ٦ (٨) المستطرف ١٣٣ ج ١

(٩) الاغانى ١١٨ ج ١٨ (١٠) طبقات الاطباء ١٢٨ ج ١

(١١) فوات الوفيات ٢٤٠ ج ١ (١٢) الاغانى ٣ ج ١١

مبلغ ذلك في اباان التمدن

فلما افقر الخلفاء العباسيون في اواسط الدولة صاروا يهبون الرتب الاسمية والقاب الشرف يسترضون الناس بها . وهذه ابيات يقولون ان ابا بكر الخوارزمي نظمها بهذا المعنى :
 مالي رأيت بني العباس قد فتحو من الكنى ومن الالقاب ابوابا
 ولقبوا رجلاً لو عاش اولهم ما كان يرضى به للعش ابوابا
 قل الدرام في كفي خليفتنا هذا فانفق في الاقوام القابا

سجاء البرامكة

على ان العصر العباسي الاول انما زها بالبرامكة وهم الذين رغبوا الخلفاء بالسجاء واولهم خالد بن برمك وزير المنصور والثروة لم تنضج في ايامه ومع ذلك فالوافدون على الخلفاء للاستجداء كانوا يسمونهم السؤال فقال خالد « هذا والله اسم استقله لطلاب الخير وارفح قدر الكريم عن ان يسمى به امثال هؤلاء المؤمنين لان فيهم الاشراف والاحرار وابناء النعيم ومن اهله خير ممن يقصد وافضل ادباً ولكننا نسيمهم الزوار » وكان ممن شهد مجلسه وسمع قوله بشار بن برد فقال :

حذا خالد في فعله حذو برمك فعبده له مستطرف واصيل
 وكان ذوو الآمال يدعون قبله بلفظ على الاعداء فيه دليل
 يسمون بالسؤال في كل موطن وان كان فيهم نابه وجليل
 فسماهم الزوار ستراً عليهم فاستاره في المهتدين سدول

فاعطاه خالد عن كل بيت الف درهم^(١)

وكان ابنه يحيى بن خالد اذا ركب اعطى كل من تعرض له ٢٠٠ درهم^(٢) ويروون من اخبار سجائه ما هو اشبه بالخرافات منه بالحقائق نذكر حادثة تواتر ذكرها في كتب التاريخ والادب وهي تمثل سجاء يحيى احسن تمثيل . وذلك ان البرامكة لداً نكبوا منع الرشيد الناس من ذكرهم او رثائهم فمن ذكرهم انما يذكرهم سراً . وظلوا على ذلك في ايام الامين والمأمون . فسمع المأمون بشيخ يأتي خرابات البرامكة ويبكي ويتحب طويلاً ثم ينشد شعراً يرثيهم به وينصرف فبعث في طلبه فلما حضر انتهره الخليفة وسأله من هو وبما استحق البرامكة منه ما يصنع فقال الرجل وهو غير هائب « للبرامكة عندي اباد خضرة فان امر امير المؤمنين حدثته ببعضها » فقال « هات » فقال « انا المنذر بن المغيرة الدمشقي نشأت في

نعمه فزالت حتى وصلت الى بيع داري واملقت الى غابة فاشير عليّ بقصد البرامكة فخرجت الى بغداد ومعني نيف وعشرون امرأة وصبيّاً فدخلتُ بهم الى مسجدٍ ببغداد ثم خرجتُ وتركتم جياحاً لا نفقة لهم ففرت بمسجدٍ فيه جماعة عليهم احسن زيّ فجلست معهم اردد في صدري ما اخطبهم به فنجيد نفسي عن ذل المسألة واذا خادم قد ازعج القوم فقاموا فقمتم معهم ودخلوا داراً كبيرة فدخلت فاذا يحيى بن خالد على دكة وسط بستان فجلسوا وجلست وكنا مائة رجل ورجل ففوج مائة خادم في بدكل خادم منهم بحجرة ذهب فيها قطعة عنبر فتبخروا واقبل يحيى على القاضي وقال : زوج ابن عمي هذا بابنتي عائشة . فخطب وعقد النكاح واخذنا النثار من فئات المسك وبنادق العنبر ومائيل الند فالنقط الناس والنقطت . ثم جاءنا الخدم في بدكل واحد منهم صينية فضة فيها الف دينار مغلوطة بالمسك فوضع بين يدي كل واحد واحدة فاقبل كل واحد بأخذ الدنانير في مكه والصينية تحت ابطه ويخرج فبقيت وحدي لا اجسر افعل ذلك فغمزني بعض الخدم وقال خذها وقم . فاخذتها وقمت وجعلت امشي والتفت خوفاً من ان تؤخذ مني ويحجي بلا حظني من حيث لا افطن . فلما قاربت السور ددت فيئست من الصينية فجئته فأمرني بالجلوس فجلست فساءلني عن حالي فحدثته عن قصتي فبكى ثم قال : عليّ بموسى . فجاءه فقال بابني هذا رجل من اولاد النعم قد رمنه الايام بصرفها فخذ اليك فاخلطه بنفسك فأخذني وخلع عليّ وأمرني بحفظ الصينية لي فكنت في الد عيش يومي ولياتي . ثم استدعى اخاه العباس وقال : ان الوزير قد سلم اليّ هذا واريد الركوب الى دار امير المؤمنين فليكن عندك اليوم فكان يومي مثل امس فأقبلوا يتداولوني وانا قلقي بامر عيالي ولا اتجاسر ان اذكرهم . فلما كان في اليوم العاشر ادخلت على الفضل بن يحيى فأقمت عنده يومي ولياتي فلما اصبح جاءني خادم فقال : قم الى عيالك وصبيانك . فقلت : انّا لله ذهبت الصينية وما فيها فليت هذا كان من اول يوم . وقت والخدام يمشي بين يدي فاخرجني من الدار فازداد ما بي ثم ادخلني الى دار كان الشمس تطلع في جوانبها وفيها من صنوف الآلات والفرش فلما توسطتها رأيت عيالي يرتعون في الديباج والستور وقد حمل اليهم مائة الف درهم وعشرة آلاف دينار وسلم اليّ الخدام صكاً باسم ضيعتين جليلتين وقال : هذه الدار وما فيها والضياع لك فاقت مع البرامكة في اخفض عيش الى الان . ثم قصدني عمرو بن مسعدة في الضيعتين والزمني من خراجها ما لا يفي به دخلها فكلما لحقتي نائبة قصدت دورهم فبكيت »

فاستدعى المأمون عمرو بن مسعدة وأمره ان يرد علي الرجل ما استخرج منه وبقدر خراجها

على ما كان في ايام البرامكة . فبكى الشيخ بكاءً شديداً فقال له المامون « الم اسأئف بك جميلاً » فقال « بلى ولكن هذا من بركة البرامكة » فقال « امض مصاحباً فان الوفاء مبارك وحسن العهد من الايمان » ^(١)

وعلى ذلك شبَّ جعفر والفضل ابنا يحيى وسائر البرامكة وتوسعوا في السخاء حتى عينوا الرواتب لاهل الحاجات . فقد ذكرنا في ما تقدم ان غلثهم بلغت ٢٠,٠٠٠,٠٠٠ دينار في السنة فلما قتل جعفر وقبضت اموالهم وجدوا ١٢,٠٠٠,٠٠٠ دينار في بدر مخنومة وعليها صكوك لاناس على سبيل الرواتب أو الصلات او نحو ذلك ^(٢) . ومن فنون سخائهم ان الفضل ابن يحيى كان يكتب رقاعاً بخطه فخواها « امض الى فلان الصيرفي وخذ منه كذا وكذا ديناراً » حسبما يجره الله على يده ويركب في الليل او في القائلة ويحترق شوارع البلد وينثرها فيها . وسئل عن ذلك فقال « اردت ان يصل برّي الى من لا يصل اليّ ولا اعرفه ولا يعرفني » فاذا وجد احد رقعة من هذه الرقاع مضى بها الى الصيرفي فياخذها منه ويعطيه ما فيها وعند الصيرفي امينٌ جالس لئلا يصالحه على بعضها . ولا يعطي لاحد غير رقعة واحدة ولا يسأل عنه ولا يثبت اسمه وربما جاءت بيد الصبي والمرأة والذمي فيأخذ ما فيها ^(٣)

واشتهر من وزراء الدولة العباسية بالسخاء بعد البرامكة آل الفرات في ايام المقتدر فكانوا يفرضون الرواتب للعلماء والادباء والفقهاء واهل الفاقة وقد نكبوا كما نكب البرامكة ولكن شهرة البرامكة غلبت على سواهم فاصبحوا مضرب الامثال في الكرم . ولا يزال الناس يتداولون اخبارهم ويتثقلون بسخائهم ويستحشرون اريحية العظماء على السخاء بما يروون من احاديثهم حتى ظننها بعضهم موضوعة لهذه الغاية . ولا يبعد ان تكون رغبة الناس في الاستغثات بعثت على المبالغة في بعضها ولكنها صحيحة على اجمالها — قال السلطان العادل الابوي مرة وقد جرى ذكر البرامكة وامثالهم من الكرماء « هذا كذبٌ مختلق من الوراقين ومن المؤرخين بقصدون بذلك ان يحركوا هم الملوك والا كابر للسخاء وتبذير الاموال » فقال بعض الحضور « يا خوند ولاي شيء ما يكذبون عليك ؟ » ^(٤)

(١) الفرج بعد الشدة ٢٢ ج ٢ وسير الملوك ١١١ والانليدي ١٣٢

(٢) العقد الفريد ٢٢ ج ٣ (٣) ترتيب الدول ٢٢

(٤) نفح الطيب ٤٧٢ ج ١

السخاء على الشعراء والمغنين

واعتبر ذلك في سخائهم على الشعراء فقد كانت اجازة الشعراء قاعدة عامة من اوائل الاسلام لاسباب تقدم ذكرها ويشبه ذلك ما تنفقه بعض الدول اليوم على الصحافة لتنصرها او تأخذ بيدها في نشر مبدل أو رأي . وتعودوا ان يسموا ما يعطى للشاعر جائزة او صلة كما يسمون ما يعطى للصحف اعانة أو راتباً . على ان بعض الخلفاء كانوا يفرضون للشعراء رواتب يتناولونها مشاهرة او مسانحة وربما عدوا الجائزة راتباً يناله الشاعر اذا وفد على الخليفة او الامير في يوم من السنة . وقد تكلمنا عن الشعر وسائر احواله في ما تقدم ونحن ذاكرون سخاء الخلفاء على الشعراء في ابان الحضارة

اول من جاد على الشعراء في الاسلام بنو امية واستغاهم الوليد بن يزيد وهو اول من عدّ ابيات الشعر واعطى على كل بيت الف درهم ^(١) واقتدى به من جاء بعده منهم . اما العباسيون فزادوا القيمة واعطوا على القصيدة في مدحهم ١٠٠,٠٠٠ درهم واول من نال هذه الصلة منهم مروان بن ابي حفصة وصله بها المهدي على قصيدة مدحه بها مطلعها :
« طرقتك زائرة فخي خيالها » ^(٢) ومدحه سالم الخاسر بقصيدة مطلعها :

« حضر الرحيل وشدت الاحداج »

فارادان ينقص له من جائزة مروان خلف انه لا يأخذ الا ١٠٠,٠٠٠ درهم ويقال انه اعطاه اياها ^(٣) والغالب انه اعطاه ١٠٠,٠٠٠ فقط وانما أضيفت الالف الأخرى خطأ من النساخ

وكان المتصور قبله بخيلاً على الشعراء اذا احب ان يعطي شاعره ابا دلامة فرض على الهاشميين دينارين دينارين ليعطيها له ^(٤)

اما الرشيد فاعطى مروان كما كان يعطيه المهدي اي مئة الف درهم ^(٥) واعطاه مرة ٥٠,٠٠٠ درهم وعشرة من الرقيق وكان يعطي ابا العتاهية راتباً سنوياً مقداره ٥٠,٠٠٠ درهم غير الجوائز والمعاون ^(٦) وفاقهم المتوكل في ذلك لانه اعطى حسين بن الضحاك الف دينار عن كل بيت من قصيدة قالها وهو اول من اعطى ذلك ^(٧) وكان المعتصم اذا

(١) ابن الاثير ١٣٧ ج ٥ والاغانى ١٤٨ ج ١٧ و ٣٩ ج ٩

(٢) ابن خلكان ١١٢ ج ٢ (٣) ابن خلكان ١٩٨ ج ١

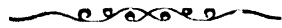
(٤) الاغانى ١٢٨ و ١٣١ ج ٩ (٥) الاغانى ١٩ ج ١٢

(٦) الاغانى ١٥٧ ج ٣ (٧) الاغانى ١٨٤ ج ٦

عجبه قول الشاعر ملاً فيه جوهرأ وقد سبقه الى ذلك يزيد بن عبد الملك ^(١)
وتشبه الوزراء والامراء بالخلفاء فكان خالد القسري يجلس للشعراء في يوم معين
ويجيزهم • وكذلك آل المهلب فانهم فرضوا لهم الاعطية والجوائز ^(٢)
اما في الدولة العباسية فالبرامكة لم يذخروا وسعاً في اجازة الشعراء وخصوصاً
الفضل بن يحيى وقد قال فيه بعضهم :

ما لقينا من جود فضل بن يحيى ترك الناس كلهم شعراء ^(٣)
وكان ابوهُ يحيى اذا لقيه شاعر ولم يكن معه مال اعطاه دابته ^(٤) وقد فاق البرامكة
الخلفاء في اجازة الشعراء فقال شاعرهم ابان اللاحقي على قصيدة واحدة مثل ما ناله
مروان بن ابى حفصة من الرشيد كل عمره ^(٥) وقس على ذلك سخاء سائر الوزراء
والامراء فان يزيد بن مزيد اعطى نصف ماله لشاعر ^(٦)

ويقال نحو ذلك في سخائهم على المغنين فقد اعطى المهدي دحمان المغني في ليلة
واحدة ٥٠,٠٠٠ دينار لانه اطربه • واعطى الامين اسحق الموصلي ١,٠٠٠,٠٠٠ درهم
لانه غناه شعراً في مدحه فحملها الى داره مئة فراش ^(٧) وكان الهادي يجري على ابراهيم
الموصلي عشرة آلاف درهم في الشهر سوى صلاته • اما الرشيد فكان اذا طرب وهب
وجاد حتى ولى اسماعيل بن صالح مصر لانه اطربه بغنائته ^(٨) واخبار الشعراء والمغنين
كثيرة لا محل لها
واقترى بسخاء العباسيين ورجال دولتهم سائر رجال الدول الاسلامية وان لم
يلفوا شأوهم



(١) الاغانى ١٧٤ ج ٦ و ١٤٧ ج ١ (٢) الاغانى ١٦٤ ج ١١

(٣) ابن خلكان ٤١١ ج ١

(٤) الاغانى ٨ ج ٥ (٥) الاغانى ٧٣ ج ٢٠

(٦) ابن خلكان ٢٨٥ ج ٢

(٧) الاغانى ٩٩ و ١٤٢ ج ٥

(٨) حلبة النكيت ٦٣ و ٦٤

٦ - المسكر

كان المسكر شائعاً قبل الاسلام في الشام والعراق وفارس ومصر وجزيرة العرب وغيرها وكان ملوك الفرس يقبلون على اللذات والمسكرات . ويقال ان الرومانيين لم يعودوا المسكر الا بعد فتحهم اسيا . على ان عقلاء الناس كانوا يحرمون شربه حتى في جاهلية العرب فان جماعة منهم حرموه على انفسهم واهلهم واذا عرّب احدكم بالمسكر وتكرر ذلك منه خلعه قومه ونفوه . فلما جاء الاسلام ورد النص بتجريمه واقبحت الحدود في منعه بالجلد والحبس وحلق الرأس او اللحية والشوارب او قطع العطاء وعاقبوا بائعيه وكسروا اوانيه ولا سيما في عصر الراشدين واوائل ايام بني امية حتى عنف عمر بن الخطاب خالد بن الوليد على تداككه في الحمام بغسل فيه خمر وقال له « ان الله حرم ظاهر الخمر وباطنها ومسها فلا تمسوها باجسادكم » ومع ذلك فاخذت الامم المسلمة باهل البلاد المفتوحة عودهم اياها حتى شربها جماعة من الصحابة وابنائهم فوقعوا تحت طائلة العقاب . واول من عوقب على شربها وحشي بن حرب قاتل حمزة ^(١) ثم عوقب غير واحد منهم ومن ابنائهم وفيهم جماعة من الكبراء كالوليد بن عتبة ويزيد بن معاوية وعبد الله بن عمر بن الخطاب واخويه عبد الرحمن وعاصم والعباس ابن عبد الله بن عباس وقدامة بن مظعون وعبد العزيز بن مروان وعبد الرحمن بن عبد الله الثقفي القاضي وايي محجن الثقفي وغيرهم ^(٢)

ومما ساعد على نشر الخمر بين المسلمين ان بعض الخلفاء الامويين كانوا يشربونها كيزيد بن معاوية وعبد الملك بن مروان ويزيد بن عبد الملك والوليد بن يزيد ^(٣) والوليد هذا اول من وصف الخمر وتغزل بها فسرقت الشعراء معانيه وادخلوها في اشعارهم . وتمتلك الوليد في المسكر حتى حدثته نفسه ان يسكر فوق الكعبة فخوفه اصحابه من الناس فامسك . وقد افسده وعلمه الخلاعة مؤدبه عبد الصمد بن عبد الاعلى ^(٤) على ان رجال الحكومة كانوا يشددون في منع الخمر والحد عليها حتى كثيراً ما كانوا يمتعون ببيع العسل لئلا يصنعوها منه ^(٥) واشهر من شدد في منعها من الخلفاء عمر بن عبد العزيز الاموي والمهتدي العباسي وهي لا تزداد الا انتشاراً باتساع اسباب الحضارة وذهاب دهشة الدين واشتغال الناس بالفناء والجواري .

(١) المعارف لابن قتيبة ١١٢ (٢) العقد الفريد ٣١٤ ج ٣

(٣) الاغانى ١٥٤ ج ١٩ و ١٥٧ ج ١٣ والعقد الفريد ٣١٤ ج ٣

(٤) ابن الاثير ١٢٤ و ١٣٦ ج ٥ (٥) المقرئ ٢٩٧ ج ٢

حتى صاروا يشربونها جهاراً . واشتهر بشربها غير واحد من الخلفاء واهلهم ورجال الدولة مع التهلكة في مجالس الشرب . فعمد بعض المتعلمين من الفقهاء ورجال الدين الى انتحال المسوغات لشربها فاحذوا يبحثون في الفرق بين انواعها ويميزوا بين الحلال والمحرم منها فاجمعوا على تحريم الخمر واختلفوا في تحريم النبيذ وفي اي انواعه حلال وايها حرام ويقال بالاجمال ان اهل العراق كانوا يستحلون النبيذ واهل الحجاز يحرمونه ^(١)

والنبيذ يصنع من اكثر انواع الفاكهة ولا سيما العنب والتين والزبيب والتفاح والمشمش ومن الذرة . ويختلف باختلاف البلاد وباختلاف طرق استحضاره وهو عصير بعض هذه الاثمار او منقوعها كما ينقع الزبيب اليوم (اخشاف) وقد يضيفون اليه العسل او الدبس او يصنعونه من احدهما مع الحب على النار ^(٢) وكانوا اذا اقبلوا على شربه صفوه وتناولوه بالاقداح الكبيرة وربما صنعوا الخمر منه واذا صفي في القناني صعب تمييزه من الخمر او منقوع الزبيب او مذوب العسل ^(٣) فمن احب الشرب استحل تناوله على انه نبيذ فاذا اكثر من شربه فعل فعل الخمر . وبعضهم كان يحلل قليل الخمر ويحرم كثيرها واخرون يحللون شرب الخمر الا اذا دت الى السكر ^(٤) ولكن الاكثرين حكوا بتحريمها ولم في ذلك اقوال يطول شرحها تراها مبسطة في كتب الشرع

فالخلفاء العقلاء الذين بلغنا انهم سكروا في بعض مجالسهم كانوا يستحلون شرب النبيذ وهو حلو منعش فيكثر من منه حتى يسكروا . ويؤيد ذلك انهم كانوا يشربونه بالارطال . واذا طال مكث النبيذ قبل شربه دب فيه الاختار وتولد الكحول ولو قليلاً . وقد يطول مجلس الشرب فيسكر الشاربون ويعربدون . وربما اتوا في سكرهم بما لا ياتيه غير المجانين وافطع ما يروى من هذا القبيل ان الملك الناصر بن الملك المعظم الايوبي كان اذا سكر يقول « اشتهي ان ارى غلامي فلاناً طائرًا في الهواء » فيرى ذلك المسكين بالخنق ويراه في الهواء فيضحك ويشرب ويقول « اشتهي ان اشم رائحة فلان وهو يشوى » فيحضر ذلك الرجل ويقطع لحمه ويشوى ^(٥) . وكتب التاريخ والادب مشعونة باخبار مجالس الشرب وهي في الغالب مجالس الغناء ويندر ان يترفع خليفة او وزير عنها ومن اكثر العباسيين رغبة فيها

(١) ابن الاثير ٣٦ ج ٦ وابن خلدون ١٥ ج ١ (٢) كتاب البخلاء ٥١

(٣) الاغانى ٤ ج ٥ و ١١٢ ج ٤ و ٣٥٥ ج ٣

(٤) العقد الفريد ٣٠٩ و ٣١٨ ج ٣ و ٢٧٠ ج ٢ والفاء ٨١ ج ١

(٥) فوات الوفيات ١٥٧ ج ١

الهادي والرشيدي والأمين والمأمون والمعتمد والواثق والمتوكل وأكثرهم نفوراً منها المنصور والمهتدي • واشتهر من الفاطميين بالتبتهك بها المستنصر^(١) واشتهر بمقاومتها الحاكم بامر الله وكثيراً ما امر باراقة الخمر وارقة العسل حتى لا تصنع منه
 ١. العامة فأنغمسوا في المسكر وشربوه على أنواعه شأنهم في كل زمان وإن لم يشربه
 حكاهم فكيف إذا كانوا يشربون • والغالب في شاربي التبتهك أن يندوه في بيوتهم وبعضهم
 يشربه عند اخوانه وآخرون يتناولونه في الحانات وكانت كثيرة وأكثر اصحابها من اليهود
 وقد يشربون الخمر في الادبار وخمرها مشهورة بجودتها

٧ - التبتهك

وطبيعي في ما قدمناه من الحضارة والترف أن يعتورها شيء من التبتهك والفحشاء وإن
 كان ذلك لا يخلو منه قومٌ مها بلغ من بعدهم عن الحضارة ولكنه يكثر غالباً في التجصرين
 لسكون خواطرم وتوفر اسباب الرغد والتنعيم عندهم • كان في جاهلية العرب جماعة من البغايا
 هن رايات ينتجها الفتيان وكان بعض الناس يكرهون اماءهم على البغاء يبتغون عرض الدنيا^(٢)
 ولكن ذلك شأن الحضرة منهم لان البدو اقرب الى صحة الآداب • فاعتبر كم تكون اسباب
 التبتهك اوفر في المدن الكبرى حيث تنزاحم الاقدام وتتوفر الثروة وتكثر الجوارى ويتفشى
 الغناء والمسكر كما كان شأن بغداد وقرطبة والقاهرة والفسطاط في ابان ذلك التمدن فلا غرو
 اذا تفتت الفحشاء فيها ولا سيما في العصور الوسطى حتى صار البغاء صناعة عليها رئيس يحتكم
 اليه البغّاءون عند الحاجة^(٣) وتفتنوا في ترويج تلك البضاعة بتصوير النساء على
 جدران الحمامات^(٤) واصبح اهل القصف من الاغنياء يصورون حظاياهم على جدران
 منازلهم كما فعل ابن طولون • وكان الحكماء العقلاء يذولون جهدهم في منع الفحشاء
 ويقاومون تيارها بما في امكانهم^(٥) ولما عجزوا عن كف اذائها بالقوة ضربوا عليها ضرائب
 يدفعها اصحابها مثل سائر التجارات^(٦)

(١) المقرئ ١٦٤ ج ٢ (٢) العقد الفريد ٢ ج ٣

(٣) الفرج بعد الشدة ١٤٣ ج ٢ (٤) ابن خلكان ١٢٧ ج ٢ ونفع الطيب ٨٦٠ ج ٢

(٥) ابن الاثير ٩٥ ج ١٠ و٢١٥ ج ١١ والمقرئ ٣١٦ ج ١

(٦) المقرئ ٨٩ ج ١

واقبح ما ظهر من التهنك في اثناء هذا التمدن مغازلة الغلمان وتسريحهم وظهر ذلك على الخصوص في ايام الامين وتكاثر بتكاثر غلمان الترك والروم من ايام المعتصم وفيهم الارقاء بالاسر او بالشراء . وتسابق الناس الى اقتنائهم كما تسابقوا الى اقتناء الجوارى وغالوا في تزيينهم وتطيبهم . وكانوا يخصوصهم ليا منوا تعديهم على نساءهم وجوارهم . وفشا حب الغلمان في اهل الدولة ببصر وتغزل بهم الشعراء^(١) حتى غارت النساء من ذلك فعمدن الى التشبه بالغلمان في اللباس والقيافة ليستملن قلوب الرجال^(٢)

وكثرة الجوارى في بعض القصور جرّهن الى التفنن باساليب الفحشاء وربما اتخذت كل جارية خصياً لنفسها كالزوج كما فعلت جوارى خماروية صاحب مصر^(٣) حتى النساء الشريفات فان قعودهن عن الزواج لعدم وجود الاكفاء أو لاسباب أخر كان يجرهن الى مثل ذلك فتكاثر الفساد فيهن لقلة التزويج^(٤) ذكروا ان ابنة الاخشيد صاحب مصر اشتهرت جارية لتتبع بها وبلغ المعز لدين الله الفاطمي ذلك وكان لا يزال في الغرب يتعفّز للوثوب على مصر ويخاف الفشل فلما بلغه ما فعلته ابنة الاخشيد استبشر وقال « هذا دليل السقوط » وجنّد على مصر وفتحها — والعفاف سياج العمران



(١) تزيين الاسواق ١٦٣ (٢) المقرئ ١٠٤ ج ٢

(٣) ابن الاثير ١٨٨ ج ٧ (٤) الفرج بعد الشدة ٦١ ج ٢

ابهة الدولة

الابهة « العظمة والبهجة والكبر والنخوة » ونريد بها مظاهر الدولة في ايهج احوالها وانغم اطوارها والبحث فيها يتناول النظر في مجالس الخلفاء ومواكبهم وضخامة دولتهم والاعاليهم وملاهيهم وملابسهم وغير ذلك مما سنفصله . ولما كانت الدولة العباسية اسبق الدول الاسلامية الى تلك المظاهر وقدوتها بها رأينا ان نخصر كلامنا عن الابهة في العصر العباسي مع ما يقتضيه المقام من الاستشهاد بما عند الدول الأخرى فنقول :



١ - مجالس الخلفاء

يختلف مجلس الخليفة شكلاً وابهة باختلاف الدول وفي الدولة الواحدة باختلاف اطوارها وفي كل طور باختلاف المراد منها . فكانت مجالس الراشدين في المسجد او المنزل يقعدون على حصير أو جلد يلتفون بعباءة او نحوها فيدخل عليهم الناس في حوائجهم ويخاطبونهم باسمائهم لا يستنكفون من ذلك ولا يرون فيه ضعة . واذا خرج احد قوادهم للفتح مشى الخليفة لوداعه بلا حرس ولا بنود ولا طبول . واوصاه بالتؤدة والصبر مع الرفق والعدل وكان عاملهم في الامصار على نحو ذلك — على ان العمال نظراً لاقامتهم في مدن عمرها الفرس او الروم مع ما رأوه من احوال تنسك الدولتين كانوا اقرب الى مظاهر الابهة والخلفاء اذا علموا بذلك انبوه كما فعل عمر لما علم ان سعد بن ابي وقاص امير الكوفة اتخذ قصرًا وجعل عليه باباً فأرسل اليه رجلاً من خاصته وامره ان يحرق الباب عليه ففعل

ثم ان طبيعة العمران غلبت على تلك السداجة فتدرج الخلفاء والامراء في مظاهر الابهة واتخاذ الحجاب — بدأ بذلك معاوية بن ابي سفيان واعانه عليه امرأته في العراق ومصر وعملوا مثل عملهم واثاروا عليه بضروب من الفخامة كان عليها ملوك تلك البلاد قبلهم واقتدى بهم سائر خلفاء بني امية . وزاد العباسيون اسباب الابهة بين قريبهم من الفرس فادخلوا في الدولة كثيراً مما كان عليه الاكسرة في مجالسهم وسائر احوالهم فتعددت تلك المجالس واصبحوا يجلسون مجلساً للحكم وآخر للمنادمة او للمناظرة او للذاكرة

او غيرها ويختلف المجلس باختلاف ذلك نخامة وترتيباً
على ان مؤسسي الدول قلما كانوا يجلسون لغير العمل والنظر في شؤون الدولة فعاوية
ابن ابي سفيان^(١) وابو جعفر المنصور^(٢) كانا يوزعان ساعات النهار على ما لذيهما من
الاعمال من ادارة وسياسة ومفاوضة ومطالعة . اما في اواسط الدولة فتعددت المجالس .
والمراد هنا بالاكثر المجلس الذي كانوا يجلسونه للنظر في مصالح الدولة
شكل المجلس وفرشه

فلما ان الراشدين وعالمهم كانوا يجلسون في المساجد لان الاسلام كان لا يزال ديناً فلما
جعله الامويون دولة جلسوا في قصور كانت للدول السابقة او بنوا قصوراً لانفسهم نصبوا بها
الاسرة والكراسي وافتشوا الطنافس والمصليات والوسائد وعلقوا الستور واقاموا الحجاب .
فالاسرة اول من اتخذها معاوية قلدها بطارقة الروم في الشام وكذلك الستور والطنافس
واما الكراسي فيظهر انه قلدها مرازمة الفرس لان اول من استخدمها من أمراء المسلمين
زياد بن ابيه عامله على فارس^(٣) فلعله نقلها الى الشام وقد يكون معاوية اقتبسها من الروم
رأساً — وقس على ذلك سائر ما ادخلوه من مظاهر الابهة من الطراز ونقش الاشعار سيف
صدور المجالس وفرش الديباج والخز واصطناع الاسرة من الابنوس او الصندل او العاج
او الذهب او غيرها

وبعد ان كانت مصالح الدولة تجتمع في بناء واحد اختصت كل منها بدائرة . واصبح
لبعض كبار الرجال دوائر خاصة باعماله تشبه ما للخلفاء من دوائر الكتاب والحساب والاطباء
وغيرهم^(٤) وكان لمجلس الحكم في العصر العباسي داران دار خاصة ودار عامة يجلس الخليفة
في الاولى مع رجال الدولة او من يفد عليه من كبار الامراء او الملوك . وينظر في الثانية في
سائر الشؤون ويعقد بها المجالس الاعتيادية

والمجلس في ابان الحضارة كان يتعقد في قاعة او بهو كبير على جدرانه صور ممثلة بالذهب
والفضة لما في البر والبحر من شجر او حيوان او جبال ويكسو ارضه بساط واحد او عدة ابسطة
من الديباج او نحوه وفي اطراف البهو مناوئ من الذهب او الفضة توضع عليها الشموع^(٥)
ويسبل على ابواب المجلس ونوافذه ستائر من الحرير او غيره مطرزة بشارة الدولة او باشعار

(١) المسعودي ٥١ ج ٢ (٢) ابن الاثير ١١ ج ٦

(٣) العقد الفريد ٤ ج ٣ (٤) طبقات الاطباء ١٣٠ ج ١

(٥) العقد الفريد ١٠٨ ج ٣

او حكم او آيات او احاديث او رسوم مدن او انهر او جبال . وفي وسط القاعة سدة او سرير يجلس عليه الخليفة ^(١) يصنع من العاج او الاينوس او الصندل ينزل بالذهب . وقد غالى الفاطميون في النفقة على الاسرة حتى يدخل في الواحد منها ١١٠,٠٠٠ مثقال من الذهب الابريز الخالص ^(٢) وقد يجعل الخليفة بين يديه بعض التحف او نحوها للزينة او التشاغل بها . فالمعتمد الاندلسي كانوا يضعون امامه في المجلس تماثيل عنبر من جعلتها جمل مرصع بالذهب واللؤلؤ وجل من بلور له عينان من ياقوت وقد حلي بنفائس الدر ^(٣) . ولما كان الخلفاء يمتنعون عن الناس كانوا يعلقون في وسط القاعة سترًا بينهم وبين الجلساء ^(٤) او يستترون عنهم وراء شباك مخرم . على ان فرشهم يختلف في الشتاء عما في الصيف فيضاف اليه في الشتاء مناقد النار يستجر فيها التد والعود ولبسسون الفراء اللائقة بالوقت على اشكالها ^(٥)

مجالسة الخلفاء

الاستئذان في الدخول

كان الاستئذان على الخليفة في عصر الراشدين ان يقف الرجل بالباب ويقول « السلام عليكم أأدخل ؟ » يكرر ذلك ثلاثًا فان لم يؤذن له لم يعدها ^(٦) وربما اقام الراشدون الحجاب لمنع الازدحام او للاستئذان في بعض الاحوال . فلما انقضى ذلك العصر اقيم الآذنون والحجاب يتوسطون للناس بدخولهم على الخليفة بحسب طبقاتهم وفي اوقات معينة لكل طبقة من الجلساء او الادباء او الشعراء او غيرهم ^(٧) اما في المجالس العامة فيقدمون الناس حسب مراتبهم

واول من رتب المراتب في الدخول على الخليفة زياد بن ابيه في العراق اشار عليه بذلك حاجبه عجلان ولعله اقتبسها من الفرس فجعل الاذن للناس على البيوتات ثم على الاسنان ثم على الآداب ^(٨) وصار ذلك سنة في الاستئذان على الخلفاء في عصر الامويين فاذا استأذن جماعة في الدخول على الخليفة او الامير يؤذن اولًا لاشرفهم نسبًا واذا تساوا

(١) طبقات الاطباء ١٤٢ ج ١ (٢) المقرئ ٣٨٥ ج ١

(٣) نفع الطبيب ١٢٨ ج ٢ (٤) الاغانى ٩٩ ج ٣

(٥) ترتيب الدول ١٢٣ (٦) العقد الفريد ٢١ ج ١

(٧) الاغانى ٦٠ ج ٥ (٨) العقد الفريد ٥ ج ٣ و ٢١ ج ١

في النسب قدموا اكبرهم سنًا فاذا تساوا في السن قدموا اكثرهم أدبًا وظلت هذه القاعدة مرعية في سائر العصور الاسلامية

وكانوا في ايام بني امية وفي اوائل الدولة العباسية اذا وفد الناس على الخليفة او الامير وقفوا ببابه يلتمسون الاذن فاما ان يأذن لهم او يصرفهم فاذا صرفهم عادوا ثانية واذا لم يؤذن لهم هذه المرة عادوا ثالثة حتى يؤذن لهم او يملوا . ويعبرون عن ذلك بقولهم الاذن الاول والثاني والثالث الخ^(١) ثم جعلوا للوافدين على الخليفة منازل بجوار دار العامة يقيمون فيها ريثما يؤذن لهم . واول من فعل ذلك المنصور العباسي لما بنى بغداد فاتخذ في قصره بيوتًا للاذن فجري الامر على ذلك في الدولة العباسية^(٢) فكان الوافد يقيم هناك ريثما يستريح ثم يستأذن . وقد يلتمسون اذنًا لدخول القصر وآخر لدخول المجلس

الدخول على الخليفة والسلام عليه

فاذا اذن لاحدهم بالدخول تقدم والقي التحية . وكانوا في اول الاسلام يميون تحية عامة فيقول الداخل على الخليفة او الامير او والي « السلام عليك » ويكرهون قولهم « عليك السلام » لانها تحية الموتى^(٣) وقد يضاف الى التحية كنية الامير او الخليفة ولا يزدون على ذلك فلما خالطوا الاعاجم ورأوا تمييزهم بين الرئيس والمرؤوس هموا بتقليدهم . واول من قلدهم المغيرة بن شعبة فقال « ينبغي ان يكون بين الامير ورعيته فرق » والزم اهل عمله ان يؤمروه اي يحيموه تحية الامراء وهي « السلام عليك ايها الامير ورحمة الله وبركاته »^(٤) او « السلام على الامير ورحمة الله » ففعلوا . واقتدى بهم سائر المسلمين وميزوا الخلفاء بتحية الخلافة فصاروا يقولون عند الدخول على الخليفة « السلام عليك يا امير المؤمنين ورحمة الله وبركاته » او « السلام على امير المؤمنين ورحمة الله »^(٥) وما زالت هذه تحيتهم حتى فسدت حضارتهم بالملق ونحوه فقلدوا الدول الأخرى بالتعظيم وحظروا على الناس السلام على الخليفة لما فيه من تكليف الرد والجواب واقتصروا في تحيته على الخدمة والدعاء له . والخدمة تختلف بين اب تكون باحناء الرأس والتظامن والبلوغ الى حد الركوع وما زاد عليه فهو سجود ولا يجوز لغير الله

وربما قبلوا يد الخليفة عند التحية وكانوا في اوائل الاسلام يقبلونها عند البيعة او

(١) الاغانى ٧٠ ج ٦ (٢) لطائف المعارف ١٤

(٣) العقد الفريد ٢٠٩ ج ١ (٤) الاغانى ٣٥ ج ١٢

(٥) المقرئ ٢٨٨ ج ٢

تجذب العطاء وعند العفو او الوداع . وكان الصحابة يفعلون ذلك مع النبي وظل متبعاً مع أكثر الخلفاء . ثم ترفع هؤلاء عن ان يلمس الناس اكنهم فصار التقييل للاكلام والعنات على حسب الاقتدار . واذا اراد الخليفة تشريف احد قواده منعه من ثقبيل يده او مكه كما فعل المهدي مع مسلم بن قتيبة فنجذب يده منه وقال « نضونك عنها ولانه ونها عن غيرك »^(١) وقد يختلف ذلك باختلاف الناس واختلاف الدول وتباين الاحوال . فان جوهر القائد لما ودع مولاه المعز لدين الله عند قدومه لفتح مصر انزل المعز اولاده لوداعه فنزلوا عن خيولهم ونزل اهل الدولة لنزولهم فقبل جوهر يد المعز وحافر فرسه^(٢) . وعبد الله بن مالك صاحب شرطة المهدي كان خائفاً من الهادي لانه سبّه قبل خلافته فرأى منه رعاية وحماً فلم يتالك عن ثقبيل يده ورجله وحافر دابته^(٣) وكذلك فعل ابراهيم الموصل فقبل حافر دابة الرشيد لانه تنازل لزيارته^(٤) وكان اهل الدين والنسك اذا دخلوا على الخليفة لا يخدمون مثل سواهم بل يدخلون وعليهم السكينة والوقار

والداخلون على الخليفة يجلسون في الموضع اللائقة بمراتبهم ويتولى اجلاسهم الحاجب او الآذن وكانت الرتبة الاولى بعد الخليفة في الدولة الاموية لبني امية يجلسون على الاسرة وبنو هاشم على الكراسي . واما في الدولة والعباسية فصارت الافضلية لبني هاشم وصاروا يسمونهم الملوك او الاشراف فيجلس الخليفة على السرير او السدة ويجلس بنو هاشم على الكراسي ويقعد بنو امية اذا حضروا على الوسائد تنثنى لهم^(٥) لكن الامويين قبلما كانوا يحضرون مجلس بني العباس بعد ان نكبهم وقتلوا معظمهم وما بقي منهم اسقطت مرتبته في ايام المستعين سنة ٣٥٠ هـ^(٦) وبلي هؤلاء سائر طبقات الجلساء من اهل الدولة وغيرهم وتفاوت مراتبهم هؤلاء وتباين على مقتضى الاحوال مما لا حد له

الآداب في مجالسة الخلفاء

كانت مجالسة الخلفاء في صدر الاسلام مثل مجالسة سائر الناس لما علمته من سداجة الراشدين وكانوا يخاطبون الخليفة باسمه او كنيته فيقولون يا عمر او يا معاوية او يا علي لا يرون بذلك بأساً . وكان الجلساء يخاطبون ويتباحثون بلا احتراس ولا تهيب

(١) ترتيب الدول ٦٠ و ٩ (٢) ابن خلكان ١١٩ ج ١

(٣) ابن الاثير ٤٢ ج ٦ (٤) الاغانى ٩١ ج ٩ (٥) الاغانى ٩٢ ج ٤

(٦) ابن الاثير ٥١ ج ٧

لاسباب تقدم بيانها . فلما تخم ملكهم وذهبت دهشة النبوة عمل الامويون على التشبه بالدول المستبدة واخذ الدهاة من عالمهم بتعظيم امر الخليفة وتفنيم منصبه وتنزيه مجلسه عن مجالس سائر الناس . واول من فعل ذلك زياد بن ابيه فوضع القاعدة « ان لا يسلم على قادم بين يدي الخليفة » ^(١) ثم منعوا الكلام في حضرة الخلفاء على الاطلاق واول من منعه عبد الملك بن مروان . وتجبر الخلفاء بعد ذلك حتى منعوا الناس من مخاطبتهم كما كانوا يخاطبون اسلافهم واول من تجبر الوليد بن عبد الملك فكلف الناس ان لا يكلموه كما كانوا يكلمون اسلافه وقال بعد كلام « واني اعطي الله عهداً ياخذني بالوفاء به لا يكلمني احد بمثل ذلك الا اتلفت نفسه فاعصري ان استخفاف الرعية براعيها سيدعوها الى الاستخفاف بطاعته والجرأة على معصيته » وقال له رجل من بني مرة يوماً « اننى الله يا وليد فان الكبرياء لله » فامر به فوطي حتى مات فانعظ الناس وهابوه ^(٢) وهو اول من منع الناس ان يكلموه بما كانوا يكلمون اسلافه او يكاتبون بعضهم بعضاً

ثم صارت القاعدة المرعية في مجالسة الخلفاء ان لا يدعى لاحد في حضرته ^(٣) ولا ينهض لداخل الا اذا نهض الخليفة — ثم صارت رسوم ارباب الدواوين كبارهم وصغارهم اذا كانوا في دواوينهم لا يقومون لاحد من خلق الله ممن يدخل عليهم ^(٤) — فلا يتكلم احد في مجلس الخلفاء الا اذا كلموه اي لا يبدأهم احد بكلام . وجرت العادة ان يطلقوا الكلام للوفاد عليهم بقولهم « ما انعمنا بك يا ابا فلان » وهي كلمة كانت تقولها العرب ^(٥) فيذكر الرجل ما جاء من اجله واذا لم يطلق له الكلام ظل ساكناً

وما زال ذلك سنة مرعية في مجالس الخلفاء حتى اباح المأمون الكلام لاهل مجلسه للمناظرة بين يديه ^(٦) واستمر ذلك بعده مع مراعاة الاحوال . اما مباداة الخليفة بالكلام فاول من استطاعها احمد بن ابي دوداد وزير المعتصم ^(٧) . ولما استولى القواد على الامور ضعفت هيبة الخلفاء وذهبت تلك الرسوم حتى ابيح اللعب والضحك والهزل في مجالسهم واول من اباحها المتوكل على الله في اواسط القرن الثالث للهجرة ^(٨)

(١) العقد الفريد ٦، ٢١٨ ج ٢

(٢) لطائف المعارف ١٤ والبيان والتبيين ١٢ ج ٢ وابن الاثير ٢٥١ ج ٤

(٣) البيان والتبيين ٣٨ ج ٢ (٤) الفرج بعد الشدة ١٠٠ ج ١

(٥) ترتيب الدول ٩٢ (٦) الاغانى ٣٦ ج ١٤ والمسدودي ٢٥٧ ج ٢

(٧) ابن خلكان ٢٢ ج ١ (٧) المسعودي ٢٦١ ج ٢

ومن اداهم في ذلك المجلس ان لا يأمر فيه احد غير الخليفة ^(١) واذا نهض نهض سائر الحضور . وان يصفي المجلس الى كلامه بكليته فلا يشتغل عنه بشيء . ومن لطيف ما يروونه من هذا القبيل ان معاوية كان يحدث يزيد بن سحرة حديثاً وابن سحرة مصغ فصك جبينه حجر غائر فادماه فجعلت الدماء تسيل على وجهه ولحيته وثوبه ولم يتغير عما كان عليه من الاستماع حتى نبهه معاوية الى ذلك فاجابه « ان حديث امير المؤمنين الهاني حتى غمر فكري وغطى على قلبي » فزاد معاوية عطاه ^(٢)

والخلفاء لا يزون وانما يقتصر على الدعاء لهم بدوام الظفر والسعادة من غير تطويل . ولا يقال للخليفة كيف اصبغ ولا كيف امسى ولا يسأل عن حاله ولا يطنب في تحسين كلامه ولا افعاله ولا يستعاد منه الكلام ولا يستزاد ولا تحسن الاشارات في مجلسه ولا يغامز ولا يشتغل بمحضرة بوداع راحل ولا سلام قادم ^(٣) ولا يلىق ان يرد على الخليفة بلفظ « لا » فيحتال في التخلص منها ^(٤) . وقد قالوا في الاحتراس من مخاطبة الملوك « من اراد مصاحبة الملك فليدخل كالاعمى وليخرج كالأخرس » ^(٥) . ومن امثلة التأدب في مخاطبة الخلفاء ان عبد الملك بن صالح وجه الى الرشيد فأكمة في اطباق الخيزران وكتب اليه « اسعد الله امير المؤمنين واسعدني به اني دخلت الى بستان لي افادنيه كرمك وعمرته لي نعمك قد انبعت اشجاره وآتت ثماره فوجهت الى امير المؤمنين منه شيئاً على الثقة والامكان في اطباق القضبان ليصل اليّ من بركة دعائه مثل ما وصل اليّ من كثرة عطائه » فاستحسن الرشيد تذكّيته عن الخيزران بالقضبان لانه اسم امير ^(٦)

وكان الحديث يجري في مجلس الخليفة في اول الاسلام باللغة العربية الفصحى فيعربون الكلام ويضبطون حركات الالفاظ فمن لم يستطع ذلك من الخلفاء عدوه لحناً . فكان الامويون يرسلون اولادهم الى البادية يشبون فيها ليضبطوا الفاظهم وقد احسنوا ذلك الا الوليد بن عبد الملك فان اباه لم يرسله الى البادية فنشأ لحناً وكان ابوه يكره اللحن ومن اقواله « اللحن في الكلام اقبح من التفتيق في الثوب والجدرى في الوجه » ومنها « تعلموا النحو كما تتعلمون الفرائض » وكان يخاف اللحن اذا وقف للخطابة فيؤمله ذلك وسأله سائل « لقد عجّل اليك الشيب يا امير المؤمنين » قال « شيبني ارتقاء المنابر وتوقع

(١) العقد الفريد ١١١ ج ٣ (٢) المسعودي ١٥٧ ج ٢ (٣) ترتيب الدول ٦١

(٤) ابن الجوزي ٣٦ و ٦٠ (٥) ترتيب الدول ٩٨

(٦) فوات الوفيات ١٣ ج ٢

اللحن » وكذلك كان سائر بني امية - وللوليد اخبار في اللحن مضحكة ^(١) . وكان حال بني امية مثل خلفائهم في المحافظة على الاعراب الا الحجاج بن يوسف فقد كان يلحن احياناً ^(٢) فلما استبجعت الدولة في زمن بني العباس قلت عناية الناس في الاعراب وظهر غير واحد من الفقهاء والعلماء بلحنون في كلامهم كابي حنيفة الزمان وابي عبيدة وغيرها احتجاب الخلفاء عن جلسائهم

كان الخلفاء الراشدون يجالسون الناس ويحاطبونهم ولا يحتجبون عنهم ثم احتجب الامويون وجعلوا بينهم وبين الجلساء حجاباً ووسطوا في حوائج الناس من بقضيا عنهم . واول من احتجب معاوية بعد اقدام البرك بن عبد الله الخارجي سنة ٤٠ هـ على قتله غيلة وكان قد قعدله في المسجد فلما خرج ليصلي الغداة شد عليه بالسيف فجرحه فلما شفي ابنتى هناك مقصورة يصلي فيها خوفاً من مثل ذلك واحتجب عن الناس الا من اختصهم بالجلاسة . واقتدى به الخلفاء بعده في اوائل دولتهم وكذلك الاوائل من بني العباس ^(٣)

والحجاب كان شائعاً عند الفرس من عهد ازديشير فكانوا ينصبون في مجلس الملك ستارة بينها وبينه عشرة اذرع وبينها وبين الجلساء عشرة اذرع فقلدهم العباسيون . ثم ضاعفوا الحجاب في بعض الاحوال فاتخذوا عدة استار الواحد وراء الآخر الى ثلاثة او اربعة وفعل ذلك وزراؤهم البرامكة ايضاً ^(٤) وجعلوا لقصورهم عدة ابواب الواحد وراء الآخر ^(٥)

كذلك كان شان العباسيين من ابني العباس السفاح الى المتوكل ومن بعده الالهادي فانه لم يحتجب عن احد ^(٦) على انهم كانوا يحتجبون غالباً عن الندماء والمغنين وسائر طبقات العامة وليس عن الخاصة الا احياناً . فكانوا يقيمون عند الستارة حاجباً يسحونه صاحب الستارة يتوسط في نقل ما يريد الخليفة ابلاغه الى جلسائه او ندمائه واقتدى بالعباسيين غيرهم من الدول الاسلامية بمصر والاندلس علامة الصرف

واذا اراد الخليفة صرف جلسائه ابدى اشارة يعرفونها فينصرفون . وهي عادة فارسية وضعها كسرى انوشروان فكان اذا احب ان يصرف ندماءه مد رجله فينصرفون . وتابعه

(١) المقدم الفرید ٢٢٤ ج ١ والفخري ١١٢ (٢) ابن خلكان ٢٤٤ ج ١

(٣) المسعودي ١٠٦ ج ١

(٤) الفرج بعد الشدة ٢٣ ج ٢ والمستطرف ١٦٤ ج ١ والانليدي ١٣٣

(٥) الانليدي ١١٥ (٦) الاغانى ١٦ ج ٥

ملوكهم على ذلك فكان فيروز بذلك عينيه وبهرام يرفع راسه الى السماء ^(١) وقدم فيها المسلمون من ايام بني امية فكان معاوية اذا اراد صرف الناس قال « اذا شئتم » او « العزة لله » وكان ابنه يزيد يعرفهم بقوله « على بركة الله » وعبد الملك كان يحمل يده خيزرانة فاذا القاها من يده عرف جالسه انه يريد انصرفهم ^(٢) وقس عليه سائر الخلفاء من بني امية وامرائهم فكان يزيد بن هبيرة اذا اراد صرف جلسائه دعا بتبديل فيقومون اما بنو العباس فقد كانت اماراة السفاح منهم ان يتأعب ويلقي المروحة من يده ^(٣) وكانت علامة المأمون ان يعقد اصبعه الوسطي باهامه ويقول « برق يمان برق يمان » ومن انصرف من حضرة الخليفة مثنى القهقري ووجهه نحو مجلسه حتى يتوارى

٢ - مجالس الادب والشعر

رغبة الخلفاء في الاطلاع

كان للخلفاء ميل شديد الى سماع الاخبار فيعقدون المجالس يحضرها الادباء من اهل الاخبار والمواد والادب والشعر يحادثون الخليفة بما يلذ له سماعه من اخبار العرب ونواديرهم واشعارهم . وكان الدهاء من الخلفاء والامراء مثل معاوية وهشام والمنصور وابن هبيرة ^(١) يقيمون اناساً يتلون عليهم اعمال القواد والملوك من الروم والفرس واخبار الدول وحوادث الشجاعة والرأي يلتمسون بذلك التوسع باسباب الدهاء وافانين السياسة كما يفعل رجال اليوم بالاطلاع على تراجم العظماء

على انهم كانوا يعقدون مجالس الادب على الغالب لترويج النفس من مشاغل الدولة وتلذذاً بالاطلاع على آداب العرب واخبارهم فاخص بكل خليفة جماعة ممن عاصروه من اصحاب الاخبار والشعر يجالسونه في اوقات معينة او اذا دعاهم في ساعة قلقه او ارقه . وقد يكون ذلك في اواسط الليل والناس نيام . فلا يزال الرجل ينقل بمجدبة من خبر الى نكتة الى نادرة الى شعر حتى يزول ما في نفس الخليفة وبنشرح صدره . وقد تفرغ جعبة المحدث مما يعلمه من الاخبار قبل ان ينشرح صدر الخليفة فيضع قصة من عند نفسه بينها على نكتة او حكمة مما يعلم ارتياح الخليفة له ^(٢)

(١) حابة الكميت ٢٦ (٢) البيان والتبيين ٦٠ ج ٢ والعقد الفريد ٢١٩ ج ١

(٣) الاغانى ٢٠٦ ج ١٨ (٤) ابن الاثير ١١ ج ٦ والمسعودي ٥١ ج ٢

وابن خلكان ٢٨٠ ج ٢ وسير الملوك ٢٢ (٥) المسعودي ١٦٣ ج ٢

احترام الخلفاء لاهل العلم

وكانوا يجلُّون اهل الادب والعلم ويقرّبونهم ويبذلون لهم الاموال وبدافعون عنهم ولا سيما الرشيد والمأمون . وفي ما يروونه عن الرشيد ومعاملته للعلماء ادلة عديدة على ذلك فكان كثير الملاطفة اللاصحي والاجلال له فاذا خلا به سألّه واستفاد منه علماً وادباً فيقول الرشيد عند ذلك « هكذا قرّنا في الملا وعلمنا في الخلا » وكان يعطيه الجوائز الحسنة . وأكل ابو معاوية الضرير طعاماً مع الرشيد فلما قام ليغسل يديه تناول الرشيد الابريق وصبّ عليهما والرجل لا يعلم فقال له « اتدري من يصبّ الماء على يدك ؟ » قال « لا » قال « انا » قال « انت يا امير المؤمنين ؟ » قال « نعم اجلاًّ للعلم »^(١)

ناهيك بما وقع من البحث في مسألة الزبور والنخلة بين سيبويه والكسائي وكيف انتصر الامين للكسائي والمأمون لسبويه وما جرى من الجدل في ذلك بحضرة الرشيد فاخذ الرشيد بناصر الكسائي في حديث طويل ذكرنا خلاصته في الجزء الثالث صفحة ٧٩

ومن ادلة اجلالهم للعلم انهم كانوا يحرضون ابناءهم على تلقية وحفظ الاشعار والاخبار ويعينون لهم المعلمين من نخبة العلماء المعاصرين . فالنصوصم الشريقي بن القطامي الى ابنه المهدي واوصاه ان يعلمه اخبار العرب ومكارم الاخلاق وقراءة الاشعار^(٢) والرشيد عهد بتعليم ابنه الامين الى الاحمر النخوي ثم الى الكسائي وعهد بتأديب المأمون لليزيدي وسيبويه وغيرها . وللرشيد وصية يقال انه اوصى بها الاحمر المذكور لما عهد اليه بتأديب الامين ينبغي ان يتخذاها سائر الآباء وهي :

« يا احمران امير المؤمنين قد دفع اليك مهجة نفسه وثمره قلبه فصير يدك عليه مبسوطة وطاعته لك واجبة فكن له بحيث وضعك امير المؤمنين . اقرئه القرآن وعرفه الاخبار وروّه الاشعار وعلمه السنن وبصره بمواقع الكلام وبدئه وامنه من الضحك الآ في اوقاته وخذه بتعظيم مشايخ بني هاشم اذا دخلوا عليه ورفع مجالس القواد اذا حضروا مجلسه ولا تمرّن بك ساعة الا وانت مغتنم فائدة تفيده اياها من غير ان تحزنه فتميت ذهنه ولا تمنع في مسامحته فيستحلي الفراغ ويألفه وقومه ما استطعت بالقرب والملاينة فان أباهها فعليك بالشدّة والغلظة »^(٣)

(١) سير الملوك ٧٩ (٢) المسعودي ١٨٠ ج ٢ وطبقات الادباء ٤٢

(٣) ابن خلدون ٤٧٥ ج ١ والمسعودي ١٩٤ ج ٢

وعهد المأمون الى الفراء بتعليم ولديه النخو واتفق ان الفراء اراد ان ينهض ذات يوم الى حوائجه فابتدرا الى نعله ليقدمها له فتنازعا ايها يقدمها ثم اصطلحا على ان يقدم كل منهما واحدة . وبلغ ذلك المأمون فاستدعاه فلما دخل عليه قال المأمون « من اعز الناس؟ » قال « لا اعرف احداً اعز من امير المؤمنين » فقال « بل من اذا نهض تقاتل على تقديم نعله ولياً عهد المسلمين حتى يرضى كل واحد منهما ان يقدم له فرداً » فقال « يا امير المؤمنين لقد اردت منعهما عن ذلك ولكن خشيت ان ادفعهما عن مكومة سبقا اليها او اكسر نفسيهما عن شريفة حرصا عليهما » ^(١) . وعهد المتوكل بتعليم ابنائه الى ابن السكيت ^(٢) وتعلم عبد الله بن المعتز الادب والعربية على المبرّد وتعلّب واحمد بن سعيد الدمشقي ^(٣)

تقديم الشعراء

وبقال نخو ذلك في تقديمهم الشعراء فقد اجزلوا لهم الاعطية وعينوا لهم اوقافاً يدخلون فيها عليهم كما قلنا في غير هذا المكان وكانوا يفرضون لهم مالاً يدفعونه اليهم كل سنة على الوفدة او القصيدة او يعطونهم على البيت من الشعر مبلغاً معيناً . على ان مقامهم كان يعلو ويهبط تبعاً لامزجة الخلفاء واغراضهم واحوال السياسة . ففهم من كان يبعد الشعراء من النخل كعبد الملك بن مروان وابنه الوليد ^(٤) . ومنع عمر بن عبد العزيز الشعراء من بابه تورعاً لاعنقاده انه لا تصح اجازتهم من بيت المال وكان ذلك اعتقاد غير واحد من ابناء الصحابة كعبد الله بن الزبير وغيره . وكان المنصور يخيلاً على الشعراء اشتغالاً عنهم بتأيد الدولة . فكانوا يخرجون في ابامه من بغداد ويجتمعون ويتذاكرون ايامهم في الشام ^(٥) على عهد بني امية

ولكن معظم الخلفاء كانوا يحبون الشعر ويقرّبون الشعراء وبعضهم تعلموا العروض ونظموا الشعر ولهم ابيات مشهورة . وكان الشعراء ينقبون الى الخلفاء او الامراء بالمدح وقد يرتكبون اقبح الاكاذيب في هذا السبيل الا من لم ينتجع بشعره وهم قليلون وكانت لهم منزلة رفيعة عند اهل الدولة ^(٦) . واما سائر الشعراء فكانوا يتعيشون بالمدح او الهجاء . وقيل للخطيئة « اباك وهجاء الناس » فقال « اذا يموت عيالي جوعاً هذا مكسي ومنه معاشي » ^(٧) وقد مدح

(١) طبقات الادباء ١٣٠ وابن خلكان ٢٢٨ ج ٢

(٢) طبقات الادباء ٢٣٨ (٣) فوات الوفيات ٢٤١ ج ١

(٤) الاغانى ١٥٨ ج ١٥ و ١١٩ ج ٢٠ (٥) الاغانى ٩١ و ١٠٢ ج ١٢

(٦) الاغانى ٧٩ ج ٢٠ (٧) الاغانى ٥٥ ج ٢

الشاعر الضدين رغبة في الكسب كما فعل ابن دأب فمدح معاوية وعلياً^(١)
وكان الشاعر اذا دخل على الخليفة بقصيدة انشدها بصوت عال وهو قائم . واذا تعدد
المشددون قدموه على الاسنان . وكان الخلفاء يتفهمون معاني الشعر حتى كثيراً ما كانوا
يباحثون الشاعر في معنى البيت او الكلمة . واذا استبطأوا الشاعر او الراوية بعثوا في استقدامه
من العراق او الحجاز وقد لا يكون الغرض من ذلك الاسماع بيت او قصيدة كما فعل الوليد
ابن يزيد في استقدام حماد من العراق لينشده قصيدة تغنيها مغنيته^(٢) اولينظم له شعراً
في حادثة جرت معه كما فعل الواثق لما غضبت عليه حظيته فاستقدم ابن الضحاك ليقول في
ذلك شعراً^(٣) وقد يجيزون من يأتهم بشاعر يعجبهم كما اجاز المهدي الفضل بن الربيع بعشرة
آلاف دينار وولاه حجابته لانه اتاه باين جامع^(٤)

وكانوا لا يكتفون بمن يفد عليهم من الشعراء للاستجداء فيرسلون في طلبهم الى الانحاء
وارغب الخلفاء في ذلك الرشيد^(٥) فتكاثر الشعراء ببابه حتى ضاقت بهم بغداد واضطروا
الى امتحانهم وترتيبهم في الجوائز فعهد يحيى بن خالد بذلك الى شاعره ابان اللاحي^(٦) واصبح
الخليفة اذا احب مجالسة الشعراء بعث رجلاً يشق به ليجتار له احسنهم^(٧) او اذا عن له بيت
او قصيدة خرج وصيف او حاجب او نحوهما فيقول للشعراء «من منكم يقدر يقول قول فلان
او يحفظ القصيدة الفلانية فليدخل وله كذا وكذا»^(٨) وكانوا يطيرون للشعر ويستلذونه
وربما تراحفوا عن مجالسهم اعجاباً وطرباً^(٩)

٣ مجالس المناظرة والعلم

كانت مجالس الادب في ايام بني امية واولئ بني العباس يقتصر البحث فيها على المسائل
الادبية والعلوم اللسانية كما تقدم فلما ترجمت علوم القدماء في العصر العباسي ونشأ علم الكلام
شاعت المناظرة بين العلماء والفقهاء . وقد سبق الناس الى العناية في ذلك البرامكة فكان
ليحيى بن خالد مجلس يجتمع فيه المتكلمون وغيرهم من اهل النحل يتباحثون في الكون

(١) الاغاني ١٣٩ ج ٤ (٢) الاغاني ٦٥ ج ٢ (٣) الاغاني ١٧٨ ج ٦

(٤) الاغاني ٧٣ ج ٦ (٥) الاغاني ٧٤ ج ١٧

(٦) الاغاني ٧٣ ج ٢٠ (٧) الاغاني ٢ ج ١٢

(٨) الاغاني ١٣٥ ج ١١ و ١٤١ ج ١٧ (٩) سير الملوك ٩٣

والظهور والقدم والحدوث والاثبات والنفي وغيرها من الابحاث الفلسفية المبنية على علم الكلام^(١)

ثم اهتم الخلفاء انفسهم في ذلك ولا سيما بعد ان ظهر القول بخلق القرآن وقام به المأمون فأخذ يعقد المجالس للمناظرة فيه وفي سواه وعين لذلك يوم الثلاثاء من كل اسبوع . فاذا حضر الفقهاء ومن يناظره من سائر اهل المقالات أدخلوا حجرة مفروشة وقيل لهم « انزعوا اخفافكم » ثم أحضرت الموائد وقيل لهم « اصبوا من الطعام والشراب وجددوا الوضوء ومن كان خفه ضيقاً فليزعه ومن ثقلت عليه قلنسوته فليضعها » فاذا فرغوا اتوا بالمجامر فتبخروا وتطيبوا ثم خرجوا فاستندناهم حتى يدنوا منه ويناضروهم احسن مناظرة والطفها وابعدها من مناظرة المتجبرين . فلا يزالون كذلك الى ان تزول الشمس ثم تنصب الموائد ثانية فيطعمون وينصرفون^(٢) وسار الواثق على خطواته في هذا السبيل . وكانوا يعقدون هذه المجالس كلما دعت الحاجة الى اثبات رأي أو مذهب جديد

ولما استمرت الدولة الفاطمية بمصر فعل وزيرها يعقوب بن كلس مثل فعل يحيى وزير العباسيين فانشأ مجالس للمناظرة في الفقه والادب والشعر وعلم الكلام وغيره وغرض هذه الدولة اثبات مذهب الشيعة لان عليه قامت دولتهم . فاخذ الحاكم بامر الله بفاوض العلماء ويجيزهم ويسهل عليهم البحث والمناظرة في دار الحكمة التي انشأها في القاهرة^(٣) وربما عقدوا حلقي المناظرة في الجوامع أو غيرها

وصارت تلك المجالس عامة في الدول التي خلفت الدولة العباسية او تفرعت منها واكثر العقلاء والاقوياء من الملوك والولاة كانوا يعقدونها للمناظرة -- كذلك فعل صلاح الدين وسيف الدولة ونظام الملك والحكم الاندلسي . واقتدى بهم اهل العلم والوحهاء والاطباء واطلقت حرية البحث في كل شيء . ومن اشهر مجالس المناظرة مجلس كان يعقده يوحنا بن ماسويه في بغداد فيحضره العلماء على اختلاف طبقاتهم من الفلاسفة والاطباء والادباء والمتكلمين وغيرهم^(٤) ومجلس ابي حامد الاسفراييني كان يحضره ٣٠٠ فقيه وقس عليهما مجلس ابن النجم وكان يعقده بمحضرة المكتفي^(٥)

(١) المسعودي ٢٠٢ ج ٢ وابن خلكان ٤٨٠ ج ١

(٢) المسعودي ٢٣١ ج ٢ وابو النرج الملطي ٢٣٦ (٣) الجزء الثالث ٢٠٩

(٤) طبقات الاطباء ١٧٥ ج ١ وابو الفرج الملطي ٢٢٧

(٥) ابن خلكان ٢٣٥ ج ٢

٤ - مجالس الغناء والانس

منزلة المغنين

نقدم الكلام في تاريخ الغناء واصله وانتشاره وقد رغب الخلفاء فيه على الخصوص في ابان الحضارة وعصر الرخاء والترف وجعلوا للمغنين نوبات يدخلون فيها بمجالسهم^(١) وفرضوا لهم الرواتب كما فرضوها للشعراء وعهدوا بهم الى بعض اهل البلاط او الحاشية ينظرون في امورهم^(٢). وكانوا يصطحبونهم في خروجهم للصيد او نحوه ويجيزونهم^(٣) الجوائز الكبرى وهم اقرب الى ذلك من الشعراء لما يتفق في مجالسهم من طرب الخلفاء لانهم كلما كانوا يسمعون الغناء من غير شراب فاذا طربوا بذلوا الاموال بلا حساب كما تقدم ومن اكثر الخلفاء الامويين رغبة في الغناء وبذلًا للمغنين يزيد بن عبد الملك الذي استخفه الطرب من غناء جاريته حبايه حتى قال « اريد ان اطير » فقالت له حبايه « على من تدع الامة وتدعنا »^(٤) وكذلك كان ابنه الوليد بن يزيد . ومن الخلفاء العباسيين المهدي والرشيد والامين والمأمون والواثق والمتوكل ومن نبغ في ايامهم من الوجهاء والعطاء

على انهم كانوا اذا همهم امر الدولة وخافوا سقوطها ابعثوا المغنين ليتفرغوا لمهامهم كما فعل المأمون لما رجع من خراسان^(٥). وكان لكبار المغنين منزلة رفيعة في الدولة كما ابراهيم الموصلي وابنه اسحق وابن جامع وكانت جوائزهم من الخلفاء تفوق الحصر — ذكروا عن ابراهيم المذكور انه غنى الامين بشعر ابي نواس :

رشاً لولا ملاحظته خلت الدنيا من الفتن

فاستخفه الطرب حتى وثب من مجلسه وركب على ابراهيم وجعل يقبل رأسه فنهض ابراهيم واخذ يقبل اخمص قدمي الامين وما وطئنا من البساط فأمر له بثلاثة آلاف درهم فقال ابراهيم « يا سيدي قد اجزيتني الى هذه الغاية بعشرين الف الف درهم » فقال الامين « وهل ذلك الاخراج بعض الكور ؟ »^(٦) فاعتبر ما دخل على الموصلي من الرشيد وغيره . فلا

(١) الاغاني ٩ ج ١٣ (٢) ابن الاثير ٦١ ج ٨ (٣) الاغاني ١١١ ج ٥

(٤) المسعودي ١٢٦ ج ٢ (٥) الفرج بعد الشدة ٨٧ ج ١

(٦) العقد الفريد ١٩٥ ج ٣

غرو اذا توفي عن ثروة طائلة . واشتهر في بلاد المغرب زرياب المغني وهو الذي نقل هذه الصناعة الى الاندلس فقد اثرى وارفعت منزلته حتى صار يركب في ٢٠٠ غلام ويمالك ٣٠,٠٠٠ دينار غير الخيل والضياع والرقيق^(١)

المضحكون والمجانون

ومن توابع مجالس الغناء المضحكون والمجانون اشهرهم اشعب في دولة بني امية وابو الحسن الخليع الدمشقي في ايام الرشيد وابو العبر في ايام المتوكل وغيرهم كثيرون . فكانوا اذا عقدت مجالس الانس ودارت الاقداح وطرب الخليفة لبسوا ملابس مضحكة يقلدون بها الدب أو القرد و يعلقون في اعناقهم الجلاجل والاجراس مما يضحك التكللي . وكان بعض الخلفاء اذا استغفهم الطرب كفوا هؤلاء المجانين ما لا يطاق من ضروب العذاب وهم يتلذذون بعذابهم فالمتوكل كان اذا طرب امر بابي العبر المجان ان يرمي به في المنجنيق الى الماء وعليه قميص حرير فاذا علا في الهواء صاح « الطريق الطريق » ثم يقع في الماء فتخرجه السباح . وكان يجلس احيانا على الزلافة فينحدر فيها حتى يقع في البركة ثم يطرح الخليفة الشبكة فيخرجه كما يخرج السمك^(٢) وكان الامين اذا طرب صاح في ندمائه وجلاسه « من يكون منكم حماري » فكل واحد يقول « انا » فيركب الواحد ويصله^(٣) وكان يقع في مجالس الوليد بن يزيد من السكر والفحش في القول والفعل ما نتعاشى ذكره . وقد افراط الخلفاء بالتبسط في العيش والتمتع بالملذات ولذلك كانوا قصار الاعمار مات اكثرهم قبل سن الكهولة

٥ مواكب الخلفاء

نريد بالموكب الاحتفال بخروج الخليفة او السلطان او الامير في عيد او غير عيد وهو من مقضيات الابهة والمدينة . وكانت المواكب معروفة عند ملوك العرب في الجاهلية فكان لمعدي كرب عبيد من الاحباش يمشون بين يديه بالحرا^(٤) فلما جاء الاسلام تزهّد اصحابه من التقوى فكان الخلفاء الراشدون يركبون في خروجهم كسائر الناس . وكان ابو بكر في اول خلافته يقيم في السنخ بضاحية المدينة ويغدو كل يوم على رجليه الى المدينة وقد يركب فرسه . وكان يغدو الى السوق فيبيع ويبتاع وله قطعة غنم تروح عليه وربما خرج هو بنفسه

(١) الاغاني ١٣٢ ج ١٠ (٢) الاغاني ٩٢ ج ٢٠

(٣) الاغاني ٢٠٣ ج ٦ ، ٤ المسعودي ١٩٧ ج ١

فيها منفرداً . وكان عمر يخرج في الاسواق ماشياً ويسوءه ان يركب عماله وامراؤه ركوب
الفرس والروم . وفد الى الشام اربع مرات جاءها في المرة الاولى على فرس وفي الثانية على
بعير وفي الثالثة على بغل وفي الرابعة على حمار وبعث في احدى خطراته الى امرائه ان يوافوه
في الجابية فكان اول من لقيه يزيد بن ابي سفيان وابو عبيدة ثم خالد على الخيول عليهم
الدياج والحرير فنزل واخذ الحجارة ورماهم بها ^(١) فقس على ذلك سائر الراشدين
مواكب الخلفاء في ابان التمدن

على ان اتخاذ الآلة والاعوان في المواكب انما بدأ به العمال في الامصار اقرهم من
حضارة الفرس والروم فاتخذوا الطبول والاعلام والحرس وغيرها من شارات الدولة . واسبقهم
الى ذلك معاوية فاقام حراساً يرفعون الحراب بين يديه او يقفون بالسيوف عند المقصورة
التي يصلي فيها خوفاً من الاغتيال ^(٢) واقتدى به عماله وبعضهم سبقه الى مثله فاتخذ زياد
ابن ابيه رجلاً يمشون بين يديه بالاعمد ^(٣) او بالحربة . واصبح ذلك قاعدة في المسير
بين يدي الخليفة ثم صار المسير بالحربة خاصاً بولي العهد او بكبار العمال يحملها رجل راكب
على جواد ينقدم الخليفة او الامير فخرى على ذلك الخلفاء العباسيون ^(٤)

وفي ايام المتوكل جاء بعضهم بحربة كانت للنبي تسمى العزة واصلها للنجاشي فاهداها للزبير
ابن العوام فاهداها الزبير الى النبي وكانت تركز بين يديه في العيدين ثم اتصلت بذلك الرجل
فحملها الى المتوكل فكان صاحب الشرطة يحملها بين يديه ^(٥) اذا خرج في موكب
وتدرجوا في الابهة بتدرجهم في اسباب المدينة واتساع السلطة حتى اصطنعوا المحامل
او القباب او الخفاف يحملون بها بدل الركوب على الخيل ثم صاروا يركبون والناس يمشون بين
ايديهم . واقدم من فعل ذلك الاشعث بن قيس سيد اهل اليمن فكان يركب والناس
يمشون بين يديه ^(٦) ثم صاروا يمشون بين يدي الخلفاء بالسلاح واول من فعل ذلك الهادي
العباسي فكان اذا ركب مشى الرجال بين يديه بالسيوف المرفهة والاعمد المشهورة والقسي
الموتورة ^(٧) فلما خلفه الرشيد تجاوزه فاتخذ خدماً صغاراً يسمونهم التمل يتقدمونه وباديهم قسي

(١) ابن الاثير ٢٤٦ ج ٢ والعقد الفريد ٢٣٦ ج ٢

(٢) الفخري ٩٧ (٣) لطائف المعارف ١٢ والعقد الفريد ٤ ج ٣

(٤) البيان والتبيين ١٥ ج ٢ وابن الاثير ٣٩ ج ٦ والمقرزي ٣٠٧ ج ١

(٥) ابن الاثير ٣٢ ج ٧

(٦) لطائف المعارف ١٢ (٧) المسمودي ٣٦٥ ج ٢

البندق يرمون بها من يعارضه من الناس^(١) ثم صار ذلك سنة جرى عليها الوزراء والامراء
 واول وزير مشى ارباب الدولة بين يديه رجالة الحسن بن علي وزير المسترشد^(٢) وهم
 الى ذلك الحين يركبون بالخلية الخفيفة الفضية والسروج المكسوة بالديباج ثم ركبوها في حلية
 الذهب واول من ركب بها المعتز العباسي المتوفى سنة ٢٥٥ هـ فجرى الناس على ذلك
 اما في مصر فالخلفاء الفاطميون قلدوا العباسيين في مواكبهم على جاري العادة في سائر
 اسباب المدنية وزادوا عليهم الركوب بالمظلة والشمسية ولعلمهم نقلوا هذه العادة من المغرب
 لانها كانت جارية هناك قبل الاسلام فكان الناس يظلمون حكماءهم بربيش الطواويس^(٣)
 فاتخذها الفاطميون من الديباج او الخبز المحلى بالذهب والمرصع بالجوهر وحوها الاعلام تختلف
 ألوانها باختلاف الاحوال

وكان السلاجقة يركبون بالطلل والبوق والعلم وبالخنجر على رؤوسهم وهو كالفية الصغيرة
 مرتفعة في الهواء على رمح يحمله من يسير قريب الملك بحيث يظلمه من الشمس ويتخذونه
 من الديباج او الحرير المذهب^(٤)

على ان تلك المواكب تختلف نفخامة وشكلاً باختلاف المقصود منها وباختلاف الدول
 اهمها موكب الخروج الى الحج او الى بلد آخر • ومواكب الاعياد وهي تمتاز بمن يقف
 للخليفة في خروجه من صفوف الجند • واول من صفت له الجنود يزيد بن الوليد الاموي
 فكان يخرج يوم العيد بين صفين عليهم السلاح^(٥)

وللخلفاء مواكب كثيرة لو اردنا الاتيان عليها كلها لضاق المقام ولكننا نقول
 بالاجمال انهم كانوا يخرجون على الخيول او في القباب وحوهم الاعوان ركوباً والشرطة
 مشاة وكذلك الغلمان على اختلاف طبقاتهم يلبسون مناطق الذهب او يحملون المقارع
 او الطبرزينات المحلاة بالذهب ويقف الناس او الجند في الطريق صفين يسير الموكب
 بينهما ويختلف طول هذا الموقف باختلاف ما يريدونه من اظهار الابهة • وقد بلغ طوله
 في خروج المتوكل على الله اربعة اميال ترجل فيها الناس بين يديه^(٦) واذا كان المسير الى
 مكان بعيد ضربوا القباب العظيمة في الطريق^(٧) يستظل الخليفة بها او يقيم فيها

(١) الاغانى ٩٤ ج ٢٠ (٢) الفخري ٢٧٢

(٣) الاغانى ٥٩ ج ٦ (٤) ترتيب الدول ١٠٣ (٥) ابن الاثير ١٤٧ ج ٥

(٦) ابن الاثير ٣٦ ج ٧ والاغانى ٣٢ ج ٩ وابن خلكان ٣٨٠ ج ٢

(٧) فوات الوفيات ٤ ج ١

وكان الخلفاء الفاطميون يركبون يوم الجمعة الى الجامع الازهر بالمظلة المذمبة وبين ايديهم نحو ٥,٠٠٠ ماشٍ وعلى الخليفة الطليسان والسيف ويده قضيب الخلافة حتى يأتي الجامع ويصلي ولهم رسوم كثيرة يجرونها قبل الصلاة • واذا خرجوا للمبايعة او الاحتفال لفتح الخليج ركب الخليفة وعليه العمامة الجوهر ^(١) وثوب يقال له البدنة كله ذهب وحرير مرقوم والمظلة من شكله وبين يدي الخليفة الجنايب عليها السروج الذهب المرصع بالجوهر والسروج العنبر والقباب الديباج بالحلي والعسكر على ازيائه من الاتراك والدبلم والعزيزية والاشيدية والكافورية بالديباج الثقيل والمناطق المذهبة وبين يديه القيلة عليها الرحالة بالسلاح والزراقة وفوق الخليفة المظلة الثقيلة بالجوهر ويده قضيب الخلافة وعشى امامه اصحاب الابواق الذهب قابواق الفضة فالتحاس واصحاب الطبول الكبار التي مكان خشبها فضة والالوية تخفق فوق ذاك الموب

٦ - احتفالاتهم

الاحتفالات الدينية

والاحتفالات في التمدن الاسلامي بعضها ديني^٣ كالمولد والاعياد والكسوة وبعضها وطني كالنيروز والمهرجان وشم النسيم وفتح الخليج • على ان الاحتفالات الدينية اتما اتخذوا اسلوب الاحتفال بها من غير المسلمين كما اتخذ النصارى بعض طقوس الاحتفال باعيادهم من الوثنيين • ولا يزال الاحتفال بالاعياد الاسلامية شائعاً الى الآن مع تغير اقتضاء الفرق بين التمدنين • واكثر الدول الاسلامية عناية بهذه الاعياد الفاطميون منها : يوم عاشوراء والمولد النبوي ومولد علي وفاطمة والحسن والحسين والخليفة الحاضر ولية اول رجب وعيد النحر وعيد الفطر وفتح الخليج ويوم النيروز وغيرها مما فصله المقرئ في خطه ^(٢) ولهم في كل من هذه الاعياد رسوم وقواعد يبدلون فيها الاموال ويفرقون الصدقات ويهدون الهدايا من النقود والياب والحلي وغيرها مما يطول شرحه

ومن اشتهرت عنايته بالاحتفالات الدينية مظفر الدين صاحب اربل وكان احتفاله بالمولد النبوي بالغاً حد النهاية بالاهبة والمشهور انه اول من احتفل به على الصورة المعروفة اليوم ^(٤) وكذلك السلطان ابو حمزة موسى صاحب تلمسان ^(٥) — غير احتفالاتهم الاجتماعية

(١) المقرئ ٢٨٠ و ٢٨٥ ج ٢ (٢) المقرئ ٤٩٠ ج ١

(٣) ابن خلكان ٤٣٦ ج ١ (٤) نفح الطيب ٦٠٤ ج ٤

كلاعراس والمآتم والختان ونحوها • والسباسبية كاستقبال الوفود والمباينة والتتويج والخلع فنذكر امثلة منها في ما يلي

احتفالات الاعراس ونحوها

فلاحتفال بالاعراس تقبل على احوال شتى ترجع الى نحو المشهور من الاحتفال باعراس المسلمين في مصر الآن مع اعتبار عوائد البلاد وتفاوت الثروة • ونأتي بمثال من ابلغ ما يعرف من التماهي بالبذخ في مثل هذه الحال فنذكر احتفالين اشهرها في تاريخ الاسلام :

الاول زفاف خديجة بنت الحسن بن سهل المسماة بوران الى الخليفة المأمون احتفلوا به في قم الصالح احتفالاً لم يسبق له مثيل نثر الحسن فيه على الهاشبيين والقواد والكتاب والوجوه بنادق المسك فيها رقايع باهاء ضياع واسماء جوارير وصفات دواب وغير ذلك • فكانت البندقة اذا وقعت في يد الرجل فتحها فيقرأ ما في الرقعة فاذا علم ما فيها مضى الى الوكيل المرصد لذلك فيدفعها اليه ويتسلم ما فيها سواء كان ضيعة او ملكاً آخر او فرساً او جارية او مملوكاً • ثم نثر على سائر طبقات الناس الدنانير والدرهم ونوافج المسك وببض العنبر غير ما انفقته على المأمون وقواده واصحابه وسائر من كان معه من اجناده وانباة وكانوا خلقاً لا يحصى حتى على الجمالين والمكاريبة والملاحين وكل من ضمه عسكره • ذكروا انه خدم في ذلك الاحتفال ٣٦,٠٠٠ ملاح ونفذ الجطب يوماً فلو قدوا تحت القدور الخيش مغموساً في الزيت • ولما كانت ليلة البناء وجلبت بوران على المأمون فرش لها حصير من الذهب وجمي بمكيتل مرصع بالجواهر فيه درر كبار نثرت على النساء وفهنت زبيدة وحمدونة بنت الرشيد فامست احداهن من الدر شيئاً • فقال المأمون شرفن ابا محمد واكرمنه فمدت كل واحدة منهن يدها فاخذت درة فبقي سائر الدر يلوح على ذلك الحصير الذهب ويتلألأ فقال المأمون : قاتل الله الحسن بن هانيء كانه قد رأى هذا حيث يقول :

كأن صفري وكبرى من فواقها حصباء دري على ارض من الذهب

وكانت في المجلس شمعة عنبر فيها مائة رطل فضج المأمون من دخلها فعملت له مثل من الشمع فكان الليل مدة مقامه فيه كالتهار • وبلغت نفقة هذا الاحتفال ٥٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم وامر المأمون للحسن بن سهل عند منصرفه بمبلغ ١٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم واقطعه فم الصالح مجلس الحسن وفرق المال على قواده واصحابه وحشمه واطلق له خراج فارس وكور الاهواز مدة سنة • وجاء المأمون الى عروسه في الليلة التالية فنثرت عليه

جذبها الف درة كانت في صينية ذهب ^(١) وغير ذلك مما يفوق طور التصديق والاحتفال الثاني احتفله المتوكل على الله حين ظهر ابنه المعتز بالموضع المعروف بركوازا ومما جرى فيه انه جلس بعد فراغ القواد والاكابر من الاكل ومدت بين يديه مرافيع ذهب مرصعة بالجواهر وعليها امثلة من العنبر والتند والمسك المعجون على جميع الصور وجملت بساطاً ممدوداً واحضر القواد والجلساء واصحاب المراتب فوضعت بين ايديهم صواني الذهب مرصعة باصناف الجواهر من الجانبين وبين السماطين فرجة • وجاء الفراشون بزنايل قد غشيت بالادم تملوء دراهم ودنانير نصفين فصبت في الفرجة حتى ارتفعت على الصواني وأمر الحاضرون ان يشربوا وان يتقل كل من شرب من تلك الدنانير بثلاث حفنات ماحلت يده وكلما خف موضع صب عليه من الزنايل حتى برد الى حالته • ووقف غلمان في آخر المجلس فصاحوا ان « لغير المؤمنين يقول لكم لياخذ من شاء ما شاء » فدن الناس ايدهم الى المال فاخذوه وكان الرجل يتقله ما معه فيخرج به فيسلمه الى غلامانه ويرجع الى مكانه • ولما تقوض المجلس خلع على الناس الف خلعة وحملوا على الف مركب بالذهب والفضة واعتق الف نسمة ^(٢)

وقس على ذلك احتفال الخليفة المقتدي بالله سنة ٤٨٠ هـ لما زفت اليه بنت السلطان ملكشاه وحمل جهازها الى دار الخلافة ^(٣) واما الاحتفال بتتويج السلاطين والبيعة فقد ذكرنا امثلة منه في الجزء الاول من هذا الكتاب صفحة ٩١ و١١٧

الخلع على الوزراء

ومن مظاهر الابهة احتفالهم بالخلع على الوزراء والسلاطين واول من خلع عليه جعفر البرمكي في اليوم الذي تولى الرشد الخلافة فيه وكان في جملة ماخلعه عليه ١٠٠ بدرة دراهم ودنانير وامر الناس فركبوا اليه حتى سلموا عليه واعطاه خاتم الملك ليغتم به على مايريد ^(٤) وحذا حذو الرشيد من جاء بعده فخلعوا على وزرائهم وعملهم خلعة تختلف شكلاً وقدراً باختلاف الاحوال ومعها في كل حال ثوب يرسله الخالع ولبسه الخالوع عليه يقال لها الخلعة • فالخليفة العاضد الفاطمي لما ولي السلطان صلاح الدين الايوبي الوزارة بمصر لقبه الملك الناصر وخلع عليه خلعة مؤلفة من عمامة بيضاء تنيسي بطرف ذهب وثوب ديبقي بطراز ذهب وجبة بطراز ذهب وطيلسان مطرز ذهب وعقد جوهر بعشرة آلاف

(١) لطائف المعارف ٧٣ وابن خلكان ٩٣ ج ١ (٢) لطائف المعارف ٧٤

(٣) ابن الاثير ٦٥ ج ١٠ (٤) المقرئ ٩٩ ج ٢

دينار وسيف محلى بخمسة آلاف دينار وحجرة بثنائية آلاف دينار عليها سرج ذهب وسر سار ذهب مجوهر وفي رأسها مائتا حبة جوهر وفي قوائمها اربعة عقود جوهر وفي رأسها قصبه بذهب وفيها شدة بياض باعلام بيض . ومع الخلعة عدة بقج وخيل وأشياء أخر ومنشور الوزارة مكتوب في ثوب أطلس أبيض^(١)

ولما نقلت الخلافة العباسية الى مصر خلع الخليفة العباسي على السلطان الملك الظاهر يومئذ خلعة البسه اياها باحتفال هي عبارة عن جبة سوداء وعمامة سوداء وطوق في عنقه من ذهب وقيد في رجله من ذهب^(٢) . وقس على ذلك

استقبال الوفود

اما استقبال الوفود فقد كان نفياً يظهر به عز الاسلام ولا سيما اذا كان القادمون من وفود الدول غير الاسلامية من الروم او الهند أو الافرنج . والاحتفال بذلك يختلف باختلاف الاحوال نذكر من امثله احتفال المقتدر العباسي برسل جاؤوه من ملك الروم سنة ٣٠٥ هـ فانه استقبلهم في دار الشجرة التي تقدم ذكرها وعي لهم الجيوش وصفت الدار بالاسلحة وانواع الزينة وكانت جملة العساكر المصفوفة حينئذ ١٦٠,٠٠٠ رجل بين ركب وواقف . ووقف الغلمان الحجرية بالزينة والمناطق المحلاة وكانوا اثنين وعشرين الفا . ووقف الخدم والخصيان كذلك وعددهم سبعة آلاف منهم ٤,٠٠٠ خادم ابيض و ٣,٠٠٠ خادم اسود . ووقف الحجاب وكانوا سبعائة حاجب وزينت المراكب والزوارق في دجلة أعظم زينة . وزينت دار الخلافة وكانت جملة الستور المعلقة عليها ٣٨,٠٠٠ ستر منها ديباج مذهب ١٢,٥٠٠ ستر وكانت جملة البسط ٢٢,٠٠٠ بساط واستعرضوا مائة سبع مع مائة سباع . وكان في جملة الزينة الشجرة الذهب والفضة التي تستمل على ثمانية عشر غصناً من الذهب والفضة فكانت أغصانها تتمايل بحركات موضوعة وعلى الاغصان طيور وعصافير مختلفة من الذهب والفضة تصفر بحركات مرتبة كما وصفناها في محلها . فشاهد الرسل من العظمة ما يطول شرحه^(٣)



(١) السيوطي ٢٥ ج ٢ (٢) السيوطي ٥٨ ج ٢

(٣) ابوالفداء ٧٣ ج ٢ وابن الساعي ٧٥

٧ - الخلفاء والدول المعاصرة

هبّ العرب للفتح والعالم قد تضعف واهله في خمول فبعثوهم فتحوا بلادهم في بضع عشرة سنة على اسلوب لم يسبق له مثيل . فلما افاقوا ارادوا ردهم فحجزوا عنه . وما لبثوا ان شاهدوا ائمتهم وعمران مملكتهم واشتغلوا بالعلوم والفنون والصناعة والتجارة والرحلة والسياحة فهابوهم واخذوا يتقربون اليهم بالوفود والهدايا الى المدينة فدمشق ثم أصبحت بغداد مجتمع الوفود القادمين من اطراف العالم من الهند والصين شرقاً الى اعالي اسيا واواسط اوربا شمالاً الى اقصى افريقيا غرباً والبحر الهندي جنوباً . وصارت البصرة بؤرة التجارة البحرية في الشرق وملتقى السفن القادمة من اقاصي البحور

الاسلام في تاريخ الصين

المشهور ان الاسلام لم يذكر ظهوره وانتشاره غير اصحابه ولم يدون اخباره غير اهله حتى الروم مع ما كان من مدينتهم يومئذ لم يكتب المعاصرون منهم شيئاً عن الاسلام او المسلمين . ولكن الباحثين عثروا في الكتب الصينية على خبر الاسلام وانتشاره الى استقلال معاوية بالخلافة لنفسه فقيام ابي مسلم الخراساني ونقله الدولة الى العباسيين وغير ذلك . فقرأوا أسماء محمد وقريش ومعاوية وابي العباس وابي جعفر وغيرهما من رجال الاسلام مكتوبة بالاحرف الصينية . وما جاء هناك ان ابا جعفر ارسل سنة ٧٥٦ م وفدًا الى امبراطور الصين التقى عنده بوفد قادم من « هوي هو » من مغول الشمال فاخضع الوفدان في من يتقدم بالدخول على الامبراطور فانصف الحاجب بينهما وادخل كل وفد من باب - ذكروا ذلك بكتاب طنج شوال الفصل العاشر في اثناء سيرة الامبراطور سوتسونغ - قالوا ثم تولى المهدي وخلفه هرون الرشيد وفي ايامه (سنة ٧٨٥ م - ٨٠٤) جرّد العرب اصحاب الجبة السوداء على توفان (تيبست) ثم صار اهل توفان يتجندون لقناصلهم كل سنة . وفي (٧٩٨ م) جاء ثلاثة سفراء من العرب الى البلاط الامبراطور الخ ^(١)

ووقفوا في تاريخ الصين ايضاً على نصوص تشير الى ما كان من العلاقات التجارية بين الصينيين والعرب من اواسط القرن العاشر للميلاد او الثالث للهجرة فذكروا سفناً تجارية عربية كانت ترسو على شواطئ الصين يحملون فيها الزجاج والسكر وغيرها . وان تجار العرب وربان سفنهم كثيراً ما كانوا يندون على البلاط ويدخلون على الامبراطور فيخاطبهم

(١) E. Bretschneider, The knowledge Possessed by The Ancient Chinese of the Arabs & Arabian colonies. 7

ويسألهم عن بلادهم وملوكهم وسائر احوالهم . ووقفوا على نصوص آخرتدل على علائق مثل هذه بين الصين وغير العرب من دول الاسلام بما بطول بيانه . ومع اختصار هذه الاخبار وتشوش حوادثها وفساد تهجئة الاعلام فيها فهي عظيمة الاهمية لانها منقولة عن مصدر صيني مستقل . اما العرب فقد ذكر مؤرخوهم واهل الرحلة منهم كثيراً من اخبار نزولهم شواطئ الصين والهند ودخولهم على ملوكها ومخاطبتهم في بعض الشؤون التجارية . ولكن اكثرت كانوا لا يكتثرون بتلك الروايات لاعتمادهم انها معشوة بالمبالغات والخرافات كأنهم قاسوها بما يقرأونه من الافاقيص الخرافية في الف ليلة وليلة مثل قصة السندباد البحري والفرس المسحور وغيرها . على ان هذه الافاقيص منقولة بالاصل عن غير العربية واكثر خرافات العرب دخيلة في آدابهم — واما ما يكتتبونه من عند انفسهم فالغالب فيه التحقيق والصدق ولا سيما كتب ونحوها اذا نظرنا فيها نظر الناقد المنصف واعتبرنا الفرق بين عصرهم وعصرنا على اننا لا نلوم المنكرين لانهم انما عرفوا العرب بعد ذهاب دولتهم وانحلال عصبيتهم وانحطاط همهم وضعف عزائمهم فاكبروا ان يكون لهم مثل تلك المهم الشئ في عهد ذلك التمدن فكذبوا ما قرأوه في كتبهم من هذا القبيل . اما وقد رأينا ما بؤيده في كتب اهل الصين على غير تواطؤ او فلم يبق لنا بد من تصديقه

واقدم ما وصل اليينا من الكتب العربية التي ذكرت تجارة العرب مع الصين والهند ونزول تجار العرب شواطئ تلك البلاد كتاب « سلسلة التواريخ » وهو يشتمل على السياحات البحرية التي اجرتها العرب والحجم من شواطئ خليج فارس الى بلاد الهند والصين تأليف سليمان التاجر وابي زبد حسن من ابناء القرن الثالث للهجرة . وقد طبع هذا الكتاب بباريس سنة ١٨١١ ومعه ترجمة فرنساوية للمستشرق الشهير رينو . ثم مروج الذهب للمسعودي وهو مشهور ومتداول غير امهات كتب الجغرافية العربية وكلها مبني على رحلات حقيقية اشهرها ما كتبه البخاري والاصطخري وابن حوقل والمقدسي وغيرهم وليس هنا مكان الافاضة في ذلك

وبقال بالاجمال ان في كتب التاريخ نصوصاً كثيرة تدل على علائق تجارية وسياسية بين العباسيين وملوك المشرق في الهند والصين وان المهاداة كانت متواصلة بينهما . فكانت وفود ملوك الهند تؤم بغداد من اواخر القرن الثاني للهجرة تحمل الهدايا او كتب المخابرة (١) ولا بد ايضاً من وفود كانت تأتي بغداد من صاحب الصين

(١) العقد الفريد ١٤٩ ج ١ والمسعودي ٢٤٨ ج ٢ وترتيب الدول ٩٦

الاسلام وملوك أوروبا

على ان علائق ملوك المسلمين مع ملوك اوربا واعظمهم يومئذ الروم والجرمان والافرنج والاسبان كانت اوثق من سواها . اما الروم وهم ملوك القسطنطينية فكانت المخابرات متواصلة بينهم وبين المسلمين من ايام بني امية اما الصلح او مهادنة او مفاداة^(١) . والحرب كانت سجالات بينهما على الحدود او في البحار . وقد حاصر الامويون القسطنطينية غير مرة ولم يفتحوها ولكنهم فتحوا بلاداً اخرى من أوروبا وأوقفوا العرب في دول الافرنج . وكذلك بنو العباس^(٢) فان الرشيد اخذ الجزية من ايربني صاحبة القسطنطينية

واما حوادث المهادنة فهدي الرشيد الى شارلمان ملك فرنسا اشهر من ان تذكر . على ان هدايا ملوك الروم الى دار الخلافة كانت متواصلة واكثرها من السيوف والثياب والاطياب والذهب والكلاب . منها هدية بعث بها قيصر الروم (ربما ميخائيل الثاني) الى المأمون وفيها تحف سنوية من جملتها مائة رطل مسك ومائة حلة سمور^(٣)

واهدت تريا بنت الاو باري (كذا) ملكة الافرنج الى المكتفي بالله سنة ٢٩٣ هـ خمسين سيفاً و ٥٠ ربحاً و ٢٠ ثوباً منسوجاً بالذهب و ٢٠ خادماً صقلياً و ٢٠ جارية و ١٠ كلاب كبار لاتغلبها السباع وستة بازات وسبعة صقور ومضرب حرير ملون كقوس القزح وغيرها^(٤) وكان الخلفاء ايضاً بوجهون وفوداً من عندهم في مراسلة او مخاضرة ومن سار في ذلك القاضي الاشعري المعروف بابن الباقلاني انفذه عضد الدولة سنة ٣٧١ هـ الى قيصر الروم (باسيل الثاني) في جواب رسالة فاطمه في بلاط القيصر انفة زادت مقام المسلمين عندهم^(٥) الاندلسيون وملوك الافرنج

على ان العلائق كانت اكثر وثوقاً بين ملوك اوربا وملوك الاسلام في الاندلس لان قياصرة القسطنطينية كانوا يتقربون من الخلفاء الامويين في قرطبة ليستنصروهم على العباسيين اعداء الجانبين . حتى ان ثيوفيلوس ملك الروم المعاصر لعبد الرحمن الأوسط هاداه سنة ٢٣٥ هـ وكتب اليه يرغبه في ملك المشرق من اجل ما ضيق عليه المأمون والمعتصم . وقد ذكرهما في كتابه له وعبر عنهما بابن مراجل وابن ماردة تحقيراً لهما بالانتساب الى امهات من الجوارى . فكافاه عبد الرحمن عن الهدية وبعث اليه يحيى الغزال شاعره واحد كبار

(١) المبرد ٢٩٦ و ٣٢٤ (٢) ابن الاثير ٧٤ ج ٦

(٣) فوات الوفيات ٢٤٠ ج ١ (٤) المستطرف ٤٦ ج ٢ (٥) ابن الاثير ٦ ج ٩

دولته فاحكم الصلة بينهما^(١) فلما ظهر الخليفة الناصر عبد الرحمن الثالث وأوطأ عساكر المسلمين من بلاد الافرنج مالم يطأه احد من اسلافه تقدم اليه ملوكهم بالطاعة وتقربوا بالهدايا فاوفدوا رسلهم وهداياهم من رومية والقسطنطينية وغيرها على سبيل المهادنة والسلام والاعتمال بما يعن في مرضاته ووصل الى بابه الملوك من الاسبان المتناخمين لبلاده بجهات قشتالة وبنبلونة وما ينسب اليها من الثغور الخوفية فقبلوا بده والتمسوا رضاه واحنقبا جوائزهم وامنطوا مركبه^(٢)

وتوات الهدايا على عبد الرحمن الناصر من سائر ملوك الاسبان . فملكا برشلونة وطر كونة هادابا . بآتمان تجديد الصلح^(٣) وملك الصقالبة وهو يومئذ « ذوفوة » (كذا) اوفد اليه رسولا مع رسل آخرين من ملك الالمان (ربما او ثوالاعظم) وملك الفرنجة وراه الرن وهو يومئذ « اوفه ؟ » ورسول آخر من ملك الفرنجة بقاصية المشرق واسمه « كدة » (ربما كونراد) واحتفل الناصر لقدمهم احتفالا شائقا . ولما رجعوا بعث مع رسول الصقالبة ربيعا الاسقف الى ملكهم . وبالجملة ان الخليفة الناصر كان سلطانه ضمنا عزيزا لم يبق ملك من ملوك اوربا الا خطب مودته وفي جملتهم قياصرة الروم وملوك الافرنج والاسبان والجرمان . وفي نفح الطيب للقرى تفصيل ما كان يجريه من الاحتفال في استقبالهم^(٤) تعظيما لدولة المسلمين . ولما اراد بناء « الزهراء » اهداه اولئك الملوك من اصناف الحجارة والرخام على اخلاف الروانه واشكاله شيئا كثيرا^(٥) وقد ذكرنا ذلك في كلامنا عن بناء هذا القصر الفخيم

وقس على ما تقدم علائق ملوك اوربا بسائر خلفاء المسلمين وملوكهم فكانت هدايا قيصر القسطنطينية ترد على صاحب مصر ولا سيما في زمن الفاطميين بعد ان ضغمت دولتهم منها هدية بعث بها الامبراطور قسطنطين التاسع الى المستنصر بالله الفاطمي سنة ٤٣٧ هـ اشتمات قيمتها على ثلاثين قنطارا من الذهب الاحمر كل قنطار في عشرة آلاف دينار الجملة ٣٠٠.٠٠٠ دينار^(٦) وكان رسول الروم اذا قدم القاهرة في ذلك العهد نزل عند باب الفتوح ولا يزال يقبل الارض وهو ماش حتى يصل القصر الكبير مقر الخليفة^(٧)

(١) نفح الطيب ١٦٣ ج ١ (٢) نفح الطيب ١٦٧ ج ١

(٣) نفح الطيب ١٨١ ج ١ (٤) نفح الطيب ١٧٢ ج ١

(٥) نفح الطيب ٢٧٠ ج ١ (٦) المستطرف ٤٦ ج ٢

(٧) المقرري ١٠٧ ج ٢

٨ - ألعاب الخلفاء وملاهيهم

ما برح الملوك من قديم الزمان يلعبون في ساعات الفراغ بالعباب يروضون بها عقولهم وابدانهم . ولكن امة العباب تلائم عاداتها وتشاكل اخلاق اهلها ولكن الملوك يتشابهون في اكثرها لتشابه مرادهم منها . والعباب الخلفاء كثيرة بعضها كان معروفاً في الجاهلية كالصيد والسباق وبعضها اقتبسوه من الاعاجم كاللعب بالكرة والصولجان والرمي بالبندق واللعب بالنرد والشطرنج ونحوها . واسبق الدول الى الاحتفاء بهذه الالعب العباسيون في ايام الرشيد فانه اول من لعب بالصولجان والكرة واول من رمى بالشباب في البرجاس واول من لعب بالشطرنج والنرد وقرب العباب واجرى عليهم الارزاق^(١) واليك وصف اهم العباب في ابان تمدنهم

١ - الصيد والقنص

كان الصيد معروفاً في الجاهلية ولكنه كان قاصراً على صيد غزال او طائر بالنبل او الفخ فلما تمدن العرب بعد الاسلام وخالطوا الفرس والروم توسعوا في طرائق الصيد والقنص فاتخذوا الجوارح من الطير وهي الباز والشاهين والعقاب والصقر يعلمونها صيد الطيور وغالوا في اقتناء الكلاب والفهود ونحوها يستعينون بها على صيد الخنازير والغزلان وحمر الوحش . واول من اشتغل بالصيد من الخلفاء يزيد بن معاوية وكان صاحب طرب وجوارح وفهود وفهود وله كلف بالصيد فاتخذ له و ليس للريضة . وكان يلبس كلابه الاساور من الذهب والأجلة المنسوجة بالذهب ويهب لكل كلب عبداً يخدمه^(٢) . واشتغل بالصيد غيره من خلفاء بني امية على تفاوت في ذلك

حتى اذا افضى الامر الى بني العباس ورسخت اقدامهم في الدولة اهتموا بالصيد وتفننوا في تربية الجوارح والكلاب والفهود وغالوا في انتقائها وبذلوا الاموال في اقتنائها وتربيتها واقاموا عليها اناساً ينظرون في شؤونها وفيهم البيارة والحجالون والهادون واصحاب الصقور والكلاب واطلقوا لهم الارزاق الجلييلة واقطعواهم الاقطاعات السنية وسهلوا عليهم حجابهم . وتسابق الشعراء الى وصف تلك الجوارح وحركاتها وسرعتها وخصالها^(٣) وكتبوا

(١) المسعودي ٣٦٥ ج ٢ (٢) الفخري ٤٩

(٣) ترتيب الدول ١٣٦ وديوان ابي نواس والاغاني ١١٦ ج ٩

في فنون الصيد واساليبه كتباً عديدة ككتاب البزاة والصيد وكتاب المصائد والمطارد (١) وكان العباسيون يصيدون السباع والخنازير فضلاً عن الغزلان والطيور وحرر الوحش ونحوها. واول من احب الصيد منهم المهدي فالرشيد وكان ابنه صالح يحب صيد الخنازير (٢) وابنه الامين يهوى صيد السباع يصطادها له جماعة يعرفون باصحاب اللبايد (٣) وكان المعتمد المهجهم به فبنى في ارض دجيل قرب بغداد حائطاً طوله فراسخ كثيرة يحدون الصيد عنده وذلك ان يطارد رجاله تلك الحيوانات من الجهة المقابلة للحائط فتفر نحوهم فيضربون حولها حلقة ولا يزالون يطاردونها بخيولهم وكلابهم وفهودهم وهي تثب بين الاعشاب والادغال حتي يضايقوها ويحصروها بين الحائط ورجلة فلا يبق لها مجال للنجاة فيقبل المعتمد واولاده واقاربه وخواص حاشيته وبناتقون في القتل والصيد وبتفرجون فيقتلون ما يقتلون ويطلقون الباقي (٤)

وقس على ذلك سائر الخلفاء من بني العباس والفاطميين والمروانيين وغيرهم من ملوك المسلمين السلاجقة والأتابكة والايوية والماليك . فقد عدوا ما اصطاده السلطان ملك شاه السلجوقي من الحيوانات فبلغ عشرة آلاف راس حتى بنى من حوافر الحجر الوحشية وقرون الظباء التي صادها منارة (٥) وكان السلطان مسعود السلجوقي يباليغ في ترفيه الكلاب حتى يسها الجلال الاطلس الموشاة وسورها بالاساور الذهب . واصطنع السلطان ابو عبد الله المستنصر في المغرب مصيداً بناحية بنزرت في بقعة ببسيط من الارض واحاطها بسياج خرج نطاقه عن التحديد بحيث لا يراع فيه حرم الوحش فاذا ركب للصيد تخطى السياج في اصحابه ومواليه وفعل فعل المعتمد بحصر الصيد عند ذلك السياج (٦) وفي كتاب الاعتبار لابن منقذ فصول طويلة في الصيد وطرقه (٧)

٢ - الحلبة او السباق

لم تبق امة من الامم القديمة او الحديثة الا لهجت بالسباق ولا سيما اليونان والرومان والفرس . وكان العرب في الجاهلية يتسابقون بخيولهم ويتفاخرون بذلك . وكثيراً ما انتشبت الحرب بين القبائل من اجل السباق . وكانوا يرسلون خيولهم الى الحلبة وهي

(١) ابن خلكان ٢٣٥ ج ٢ و ٤٢٣ ج ١ (٢) الاغانى ٩٧ ج ٩

(٣) المسعودي ٢١٣ ج ٢ (٤) الفخري ٤٧

(٥) ابن خلكان ١٢٤ ج ٢ (٦) ابن خلدون ٢٨١ ج ٦

(٧) كتاب الاعتبار ١٥٠

ميدان السباق عشرة عشرة وعندهم لكل منها اسم باعتبار تقدمها في السبق بعضها على بعض^(١)

ولما تحضروا بعد الاسلام بالغوا في اتخاذ الميادين واستكثروا من الخيول وتفننوا في تزيينها . وكان لمعاوية حلبة يخرجون اليها في ايام معينة للسباق فمن حاز قصب السبق أجازوه — وقصب السبق قصبة يفرسونها في آخر الحلبة فمن سبق اليها واقتلعتها فهو الفائز . ومن غريب ما ذكره ان يزيد بن معاوية كان له قرد يكنى ابا قيس يحضره مجلس منادته ويطرح له متكأ وكان نبيها خبيثا يحمله على اتان وحشية قد رiest وذلك لذلك بسرج ولجام وكان يسابق بها الخيل يوم الحلبة . فجاء ابو قيس في بعض الايام سابقا وتناول القصبة ودخل الحجرة قبل الخيل وعليه قباء من الحرير الاحمر والاصفر وعلى رأسه قلنسوة من الحرير ذات ألوان بشقائق وعلى الانان سرج من الحرير الاحمر المنقوش^(٢)

وكان لهشام بن عبد الملك رغبة في الحلبة يستعيد الخيل للسباق ويبذل في اقتنائها الاموال فاجتمع عنده ٤٠٠٠ فرس ولم يسبقه احد من العرب الى ذلك . وكان له فرس سابق اسمه « الزائد » اشتهر في ذلك العصر . وكان الوليد بن يزيد مغرى بخيل السباق فجمع منها الف فرس اسبقها فرس اسمه « السندي » كان يسابق به في ايام هشام وكان يقصر عن فرس هشام « الزائد » وربما ضامه او جاء مصليا . وكان ميدان السباق يومئذ في الرصافة (بالشام) ولهم فيها ميادين مشهورة وحوادث مذكورة^(٣) ولمحمد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان قصيدة عامرة وصف بها خيل الحلبة العشرة باسمائها وصفاتها هي احسن ما نظم في هذا الموضوع^(٤)

اما العباسيون فلم يكونوا اقل رغبة في السباق وكانت لهم ميادين كبيرة في الرقة والشامية والرشيد مواقف شهيرة في الحلبة نظم فيها الشعراء القصائد في مدح السوابق^(٥) وقس على ذلك ما كان من ميادين الحلبة في سائر دول الاسلام ومن اشهرها ميدان ابن طولون وميدان ييبرس بمصر^(٦) وميادين الحكم في الاندلس

(١) المسعودي ٣٨٠ ج ٢ (٢) المسعودي ٦٨ ج ٢

(٣) المسعودي ١٢٩ و ١٣٥ ج ٢ (٤) المسعودي ٣٨١ ج ٢

(٥) العقد الفريد ٤٧ ج ١ والمسعودي ١٩٩ ج ٢ (٦) المقرئ ١١١ ج ٢

٣ - الكرة والصولجان

هي لعبة فارسية لم يكن بنو امية يعرفونها واول من لعبها بنو العباس واسبقهم اليها الرشيد . وهي عبارة عن كرة تصنع من مادة خفيفة مرنة كالفلين ونحوه تلقى في ارض الميدان فيتسابق الفرسان الى التقاطها بعضا عقفاء يسمونها الصولجان او الجوكان ويرسلون الكرة بها في الهواء وهم على خيولهم وكان المعتصم شديد الرغبة فيها . ومن لطيف ما يحكى انه قسم اصحابه يوماً للعب بها فجعل الافشين في جهة وهو في جهة فقال الافشين « يعفني امير المؤمنين من هذا » فقال « ولم » قال « لاني ما ارى ان اكون على امير المؤمنين في جد ولا هزل » فاستحسن ذلك منه وجعله في حزه ^(١)

٤ - البندق

البندق كرات تصنع من الطين او الحجارة او الرصاص او غيرها وهي فارسية بلفظها واستعمالها و يسمونها ايضاً الجلاهقات جمع جلاهي . فكان الفرس يرمون هذا البندق عن الاقواس كما يرمون النبال . واقتبس العرب هذه اللعبة في اواخر ايام عثمان بن عفان وعدوا ظهورها في المدينة منكراً ^(٢) ثم الفوها حتى شكوا فرقاً من الجند ترمي بها . وقد رأيت ان الرشيد كان عنده فرقة يقال لها التل تسير بين يديه ترمي البندق على من يقف في طريق الموكب . وكان رماة البندق في العصر العباسي طائفة كبيرة يخرجون الى ضواحي المدن يتسابقون في رميه على الطير ونحوه ^(٣) و بعدئذ ذلك من قبيل الفتوة ويغلب في رماة البندق ان يشغلوا بتطير الحمام . ولهم زي خاص يمتاز بسر اويل كانوا يلبسونها و يسمونها سراويل الفتوة وكان العيارون من اهل بغداد يلبسونها في اواخر الدولة . حتى اذا افضت الخلافة الى الناصر لدين الله العباسي المتوفى سنة ٦٢٢ هـ جعل لرمي البندق شأناً لانه كان ولعاً به وباللعب بالحمام المناسب وكان يلبس سراويل الفتوة . وقد بلغ من رغبته في ذلك حتى جعل رمي البندق فناً لا يتعاطاه الا الذين يشربون كاس الفتوة ويلبسون سراويلها على ان يكون بينهم روابط وثيقة نحو ما عند بعض الجمعيات السرية . وجعل نفسه رئيس هذه الطائفة بدخل فيها من شاء ويحرم من شاء . وكتب سنة ٦٠٧ هـ الى ملوك الاطراف الذين يعترفون بخلافته ان يشربوا له كاس الفتوة ويلبسوا سراويلها وان ينتسبوا اليه برمي البندق ويجعلوه قدوتهم فيه فاجابوه الى ذلك فمن اراد الانتظام في سلك هذه الطائفة ياقي بغداد

(١) ترتيب الدول ١٣٠ (٢) ابن الاثير ٩٠ ج ٣

(٣) الاغانى ٩٣ ج ٢٠

فيلبسه ' الخليفة السراو بل بنفسه . . فبطلت الفتوة في البلاد جميعها الاً من لبس سراو بلها منه ومنع الرمي بالبندق الاً من ينحسب اليه . فاجابه الناس في العراق وغيره الاً انساناً اسمه ابن السفت من بغداد هرب الى الشام فارسل الخليفة اليه يرغبه ببذل المال ليرمي عنه وينتسب في الرمي اليه فلم يفعل فلأمله بعضهم على ذلك فقال « بكيفي نخرأ انه ليس في الدنيا احد لا يرمي للخليفة الاً انا » ^(١)

وكان لرمي البندق شأن كبير في العصور الاسلامية الوسطى بالعراق والشام ومصر وفارس وغيرها . وخط البندقانيين بالقاهرة ينسب الى صناعة اقواس البندق ^(٢) ثم تقننوا في رمي البندق بالمزاريق او الاناييب بضغط الهواء من مؤخر الانبوب بما يشبه اناييب البنادق . فلما اخترعوا البارود صاروا يرمون البندق به من تلك الاناييب وسموا هذه الآلة بندقية نسبة اليه . ومن قبيل رمي البندق رمي النشاب في البرجاس وهو غرض في الهواء او على راس رمح او نحوه بطلبون اصابته بالنشاب وهي لعبة فارسية اول من لعبها من الخلفاء الرشيد وما يدخل في الالاعاب والملاهي لعبة الشطرنج وهي هندية الاصل اخذها العرب عن طريق الفرس واول من لعبها من الخلفاء الرشيد ايضاً وهو اول من لعب النرد كما تقدم ولا تزالان هاتان اللعبتان شائعتين الى اليوم

٩ - ارتباط السباع

وكان من ملاهي الخلفاء والملوك ارتباط الاسود والفيلة والنمور لاثبات الهيبة في قلوب الرعية واول من اهتم بذلك بنو العباس فكان المنصور كثير العناية في جمع الفيلة لتعظيم الملوك السالفة اباهها وكان للرشيد اقفاص فيها الاسود والنمور وغيرها ^(٣) وغالى الذين جاؤا بعده باقتنائها واقتناء الكلاب والقردة ونحوها — ذكروا انه كان عند ام جعفر زوج الرشيد قرد يخدمه ثلاثون رجلاً وكانوا يلبسونه لباس الناس ويقلدونه السيف واذا ركب ركبوها في خدمته واذا دخلوا عليه قبلوا يده . فجاء يزيد بن مرثد يوماً الى ام جعفر ليودعها قبل سفره فاتوا اليه بالقرد وامروه ان يقبل يده فشق عليه ذلك وحرد السيف وقطعه نصفين وانصرف فبعث اليه الرشيد وعاتبه فقال « يا امير المؤمنين ابعده ان اخدم الخلفاء

(١) ابن الاثير ٢٠٢ ج ١٢ وابو الفداء ١١٩ و ١٤٢ ج ٣ وابن خلدون ٥٣٥ ج ٣

(٢) المقرئ ٣١ ج ٢ (٣) العقد الفريد ١٥٠ ج ١

اخدم القروء لا والله ابدأ» فعفا عنه^(١)

وما زال شأن الخلفاء واهلهم على ذلك حتى تولى المهندي وكان يشبه به عمر بن عبدالعزيز بالنقوى والزهد فامر يقتل السباع التي كانت في القصور وطرده الكلاب ولكن ذلك المنع لم يدم طويلاً . فلما مات المهندي عادوا الى المغالة في اقتناء السباع حتى ارتبطها بعضهم في مجلسه . فقد كان عضد الدولة بن بويه اذا جلس على سريره احضرت الاسود والفيلة والتور في السلاسل وجعلت في حواشي مجلسه تهويلًا بذلك على الناس وترويعاً لهم^(٢)

وقس على ذلك سائر دول المسلمين في مصر والاندلس وغيرها فقد كان لخمارويه بن احمد بن طولون دار خاصة بالسباع عمل فيها بيوتًا بأزاج كل بيت يسع سبعة ولبوءته وعلى تلك البيوت ابواب تفتح من اعلاها بمحركات ولكل بيت منها طاق صغير يدخل منه الرجل الموكل بخدمة ذلك البيت بفرشه بالرمل . وفي جانب كل بيت حوض من رخام بميزاب من نحاس يصب فيه الماء . وبين يدي هذه البيوت قاعة فسيحة متسعة فيها رمل مفروش بها وفي جانبها حوض كبير من رخام يصب فيه ماء من ميزاب كبير . فاذا اراد سائس سبع من تلك السباع تنظيف بيته او وضع وظيفة اللحم لغذائه رفع الباب بجيلة من اعلى البيت وصاح بالسيح فيخرج الى القاعة المذكورة فيرد الباب وينزل الى البيت من الطاق فيكنس الزبل ويبدل الرمل بغيره مما هو نظيف ويضع الوظيفة من اللحم في مكان معد لذلك بعد ما يخلص ما فيه من الفسد ويقطعه له ويغسل الحوض ويلاؤه ماء ثم يخرج ويرفع الباب من اعلاه وقد عرف السبع ذلك فحال ما يرفع السائس باب البيت يدخل اليه الاسد فيأكل ما هيء له من اللحم حتى يستوفيه ويشرب من الماء كفايته . فكانت هذه البيوت مملوءة من السباع . ولهم اوقات تفتح فيها فتخرج السباع كلها الى القاعة وتمشي فيها وتمرح وتلعب ويهارش بعضها بعضاً فنقيم يوماً كاملاً الى العشي فيصيح بها السوايس فيدخل كل سبع الى بيته لا يتخطاه الى غيره

وكان من جملة هذه السباع سبع ازرق العينين يقال له زريق قد أنس بخمارويه وصار مطلقاً في الدار لا يؤذي احداً ويقام له بوظيفته من الغذاء كل يوم . واذا نصبت مائدة خمارويه اقبل زريق معها وريض بين يديه فيرمي اليه الدجاجة بعد الدجاجة والفضلة الصالحة من الجدي ونحو ذلك مما على المائدة فينتفكه به . وكانت له ابوءة لم تستأنس

(١) تاريخ طبرستان لابن اسفنديار ترجمة ادورد برون الى الانكليزية صفحة ٤٥

(٢) الفجري ٢٠

كما انس هو فكانت مقصورة في بيت ولها وقت معروف يجتمع معها فيه . فاذا نام خمارويه جاء زريق ليحرسه فان كان قد نام على سرير ربض بين يدي السرير وجعل يراعيه مادام نائماً وان نام على الارض بقي قريباً منه وتفتن لمن يدخل ويقصد خمارويه لا يغفل عن ذلك لحظة واحدة . وكان على ذلك دهره وقد ألفه ودرب عليه وكان في عنقه طوق من ذهب . فلا يقدر احد ان يدنو من خمارويه ما دام نائماً لمراعاة زريق له وحراسته اياه ^(١)

وتطرف آخرون في اقتناء الحيوانات حتى الهوام والحشرات فالوزير جعفر بن خنزابه احد وزراء المقتدر بالله العباسي كان يهوى النظر الى الحشرات من الافاعي والحيات والعقارب وام اربعة واربعين وما يجرى هذا الجرى وكان في داره بمصر قاعة لطيفة مرخمة فيها تلك الحيات بالسلال ولها قيم وفراش وحاو يستخدمون يرسم ثقلها وحطها وكان كل حاو بمصر يصيد ما يقدر عليه من الحيات ويتناهون في ذوات العجب من اجناسها وفي الكبير والغريب منها وهو بثيهم على ذلك اجل ثواب وبذل لهم المال الجزيل . وكان له وقت يجلس فيه على دكة فيدخل المستخدمون والحواة فيخرجون ما في تلك السلال وي طرحونه على ذلك الرخام ويحرشون بين الهوام وهو يستعجب من ذلك ويستحسنه ^(٢)

وكانت لهم عنابة في تربية الحيوانات الداجنة ايضاً كالغزلان والقماري واشباههما يعملونها في حظائر واقفاص مخصوصة عليها قوام يخدمونها ^(٣)

واجتمع عند العزيز الفاطمي صاحب مصر من غرائب الحيوانات ما لم يجتمع عند غيره وذكروا بينها العنقاء ؟ قالوا « وهو طائر جاءه من صعيد مصر في طول البلاشون واعظم جسماً منه له غيب وحية وعلى رأسه وقاية وفيه عدة ألوان ومشابهة من طيور كثيرة » ^(٤) واتخذ الخليفة الناصر الاموي في مدينة الزهراء محلات للوحوش والسباع واسعة الارزاء متباعدة السياج ومسارح للطيور مظلة بالشباك كالاقفاص الكبيرة ^(٥)

وهناك العباب آخر تتعلق بالحيوانات كسمكة كانت للامين مقرطة صيدت له وهي صغيرة فقرطها لمخلفتين من ذهب فيهما حبنا در . وكلعب الحمام وتطييره واللعب بالكباش والديوك للمناطحة والمهارشة وغير ذلك مما لا يحل لذكره
(تم الجزء الخامس وهو آخر اجزاء الكتاب والحمد لله)

(١) المقر يزي ٣١٧ ج ١ (٢) فوات الوفيات ١٠٥ ج ١ (٣) المسعودي ٢٦٠ ج ٢

وابن الاثير ٦٦ ج ٨ (٤) ابن خلكان ٢٦٧ ج ١ (٥) نفح الطيب ٢٧٤ ج ١

فهرس الجزء الخامس

صفحة		صفحة	
٤٢	الصناع	٣	المقدمة
	الطبقة الثانية من العامة	٨	خريطة بغداد
٤٤	المزارعون اعل القرى		نظام الاجتماع
٤٥	العامة سكان المدن		طبقات الناس قبل الاسلام
٤٩	اخلاق العامة		طبقات الناس في الشام والعراق
	الارباب الاجتماعية	٩	» » مصر
٥٢	مناقب العرب الجاهلية	١٣	» » افرقية
٥٥	المرأة في الجاهلية	١٤	» » فارس
٥٧	العصر الاسلامي العربي	١٥	» » العرب الجاهلية
٥٨	عصر الراشدين	١٧	» » عصر الراشدين
٦٠	عصر الامويين	١٧	» » الامويين
٦٢	المرأة في العصر الاموي	١٨	
	عصر العباسيين		نظام الاجتماع في العصر العباسي
٦٧	المرأة في العصر العباسي	٢٠	طبقات الخاصة واتباعهم
٦٩	الارتزاق بالسخاء	٢٢	الارقاء
٧٥	الجمالة في المعاملة	٢٦	الخصيان
٧٧	العائلة في الدين الاسلامي	٢٨	الجواري
٧٧	الحجاب		الطبقة الاولى من العامة
٧٨	تعدد الزوجات	٣٢	اهل الذنون الجميلة
٧٩	الطلاق	٣٣	المغنون
	المعيشة العائلية	٣٨	العلماء والادباء والفقهاء
٨٠	الطعام	٣٨	التجار

صفحة		صفحة	
١٢٠	السبخاء	٨١	اللباس
١٢٧	المسكر	٨٤	المأوى
١٢٩	التهتك		
			مضارة المملكة
	أبهة الدولة		عمارة المدن والقصور
١٣١	مجالس الخلفاء	٨٦	القطر المصري
١٣٩	• الادب والشعر	٩٠	الاندلس
١٤٢	• المناظرة والعلم	٩٢	مباني الامويين في الشام
١٤٤	• الغناء والانس	٩٣	• العباسيين بالعراق
١٤٥	موالك الخلفاء	٩٥	• الامويين في الاندلس
١٤٨	احتفالاتهم	٩٩	• مصر
١٥٢	الخلفاء والدول المعاصرة		الثروة والرخاء ونتائجها
١٥٦	العاب الخلفاء وملاهيهم		
١٦٠	ارتباط السباع	١٠٣	التأنيق في الطعام
١٦٥	جدول اسماء الكتب	١٠٦	البذخ في الالبسة
١٧١	فهرس ابجدي عام	١٠٨	الاثاث والرياش والمجوهرات
		١١٧	التسري

اصلاح خطأ

جاء في الجزء الثالث صفحة ١٩٨ سطر ٨ « ابراهيم بن اسحق الموصلي » صوابها « اسحق ابن ابراهيم الموصلي »
 وجاء في الجزء الرابع صفحة ٥٤ سطر ٢ « عبد الملك بن مروان » صوابها « عبد الملك ابن صالح » وينبغي حذف العبارة من قوله « وكان اشداهم بطشاً » الى « في اجمة »



جدول اسماء الكتب

وهي المؤلفات التي وردت اسماؤها في هوامش صفحات هذا الكتاب مرتبة على حروف الهجاء مع اسماء مؤلفيها وسني طبعتها واماكنه — وهي غير مارجعنا اليه في التحقيق من القواميس والموسوعات العربية والافرنجية ونحوها

اسم الكتاب	اسم مؤلفه	مكان طبعة وسنته
الآثار الباقية عن القرون الخالية	البيروني	ليبسك سنة ١٨٧٨ م
الآداب السلطانية (الفخري)	لابن الطقطقي	مصر ١٣١٧ هـ
ابجد العلوم ٣ اجزاء	لصديق القنوجي	الهند ١٢٩٦ هـ
ابن الاثير	(انظر الكامل)	
» الجوزي	(كتاب الاذكياء)	
» حوقل	(المسالك والممالك)	
» خردادبه	(» »)	
» خلدون	(العبر والمبتدا والخبر)	
» خلكان	(وفيات الاعيان)	
» الساعي	(مختصر اخبار الخلفاء)	
» عساكر	(تاريخ دمشق)	
» الفقيه	(كتاب البلدان)	
» هشام	(السيرة النبوية)	
ابو الفرج الملقبي	(مختصر الدول)	
» المحاسن	(النجوم الزاهرة)	
الاتليدي	(اعلام الناس)	
احسن التقسيم في معرفة الاقاليم	للمقدسي	ليدن ١٨٧٦ م
الاحكام السلطانية	للماوردي	مصر ١٢٩٨ هـ
اخبار الدول وآثار الاول	للقرمانلي	بغداد ١٢٨٢ هـ
ادب الدنيا والدين	للماوردي	بهامش انكشكول
الاستقصا في المغرب الاقصى ٤ اجزاء للسلاوي		مصر ١٣١٢ هـ

اسم الكتاب	اسم مؤلفه	مكان طبعه وسنته
أسد الغابة في اخبار الصحابة ٥ اجزاء الاصطخري	لابن الاثير (المسالك والممالك)	مصر ١٢٨٦ هـ
اعلام الناس الاغانى ٢٠ جزءا	الاتليدي لابي الفرج الاصفهاني	مصر ١٣١٨ هـ بولاق ١٢٨٥ هـ
الافادة والاعتبار	لعبد اللطيف البغدادي	مصر ١٢٨٦ هـ
الف باء جزآن البخاري	يوسف البلوي (صنيح البخاري)	مصر ١٢٨٧ هـ
بغية الطالبين في علوم وعوائد المصريين البلاذري	لاحمد بك كمال (فتوح البلدان)	بولاق ١٣٠٩ هـ
بلوغ الارب في احوال العرب ٣ اجزاء البيان والتبيين جزءان	للالوسي للجاحظ	بغداد ١٨٩٨ م مصر ١٣١٣ هـ
البيروني	(الآثار الباقية)	
تاريخ ابي الفداء ٤ اجزاء » الام والملوك ١١ جزءا	للملك المؤيد للطبري	الاستانة ١٢٨٦ هـ ليدن ١٨٨٥ م
» دمشق	لابن عساكر	(خط)
» المشاركة	لصليبا بن يوحنا	(خط)
» الوزراء	لللهلال الصابي	بيروت ١٩٠٤ م
تحذير المسلمين تراجم الحكماء	محمد ظافر لابن القفطي	مصر ١٩٠٤ م (خط)
ترتيب الدول	للحسن بن عبد الله	بولاق ١٢٩٥ هـ
ترزين الاسواق	لداود الانطاكي	مصر ١٣٠٨ هـ
تهذيب الاسماء الجبيري	لننوي (عجائب الآثار)	جوننجن ١٨٣٢ م
حسن المحاضرة في مصر والقاهرة جزءان	للسيوطي	مصر ١٢٩٩ هـ
حلبة الكميت	لشمس الدين التواجي	مصر ١٢٩٩ هـ

اسم الكتاب	اسم مؤلفه	مكان طبعه وسنته
حياة الحيوان الكبرى جزءان	للدميدي	مصر ١٣٠٩ هـ
الخراج - كتاب	لابي يوسف	بولاق ١٣٠٢ هـ
» »	لقدامة بن جعفر	لندن ١٣٠٦ هـ
الخطط التوفيقية ٢٠ جزءا	لهلي باشا مبارك	بولاق ١٣٠٦ هـ
خطط مصر جزءان	للمقريري	بولاق ١٢٧٠ هـ
الخمس جزءان	للديار بكري	مصر ١٣٠٢ هـ
الدميري	(حياة الحيوان)	
ديوان ابي نواس	للحسن بن هاني	مصر ١٨٩٨ م
رحلة ابن بطوطة جزءان	لابن بطوطة	مصر ١٢٨٧ هـ
رحلة ابن جبير	لابن جبير	لندن ١٨٥٢ م
رسائل الخوارزمي	لابي بكر الخوارزمي	الاستانة ١٢٩٧ هـ
سراج الملوك	للطروشني	على هامش مقدمة ابن خلدون
سلسلة التواريخ	اسليمان وافي زيد	بمصر ١٣١١ هـ
السيرة الحلبية ٣ اجزاء	لابن برهان الدين	مصر ١٣٠٢ هـ
سير الملوك	لعبد الرحمن الاريلي	بيروت ١٨٨٥ م
السيرة النبوية ٣ اجزاء	لابن هشام	بولاق ١٢٩٥ هـ
السيوطي	(حسن المحاضرة)	
شعراء السريان	للقرداحي	رومية ١٨٧٥ م
الشعر والشعراء	لابن فتيبة	لندن ١٩٠٢ م
الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية	لطاشكيري زاده	على هامش ابن خلدون
الشهرستاني	(الملل والنحل)	
صحيح البخاري ٤ اجزاء	للإمام البخاري	مصر ١٣٠٤ هـ
طبقات الاطباء جزءان	لابن ابي أصيبعة	مصر ١٨٨٢ م
» الادباء	لعبد الرحمن الانباري	مصر ١٢٩٤ هـ
» ابن سعد	لابن سعد	(خط)

اسم الكتاب	اسم مؤلفه	مكان طبعه وسنته
طغر بردي	(النجوم الزاهرة)	
العبر والمبتدا والخبر ٧ مجلدات	لابن خلدون	بولاق ١٢٨٤ هـ
عجائب الآثار ٣ اجزاء	للجبرتي	علي هامش ابن الاثير
» المخلوقات	للقزويني	علي هامش الدميري
العقد الفريد ٣ اجزاء	لابن عبد ربه	مصر ١٣٠٥ هـ
» »	للملك السعيد	مصر ١٢٨٣ هـ
فتوح البلدان	للبلاذري	ليدن ١٨٦٦ م
الفخري	(الاداب السلطانية)	
الفرج بعد الشدة جزءان	للتنوخي	مصر ١٩٠٣ م
الفلاحة النبطية	لابن وحشية	(خط)
الفهرست	لابن النديم	ليبسك ١٨٧٢ م
فوات الوفيات جزءان	لابن شاكر الكتبي	مصر ١٢٨٢ هـ
قاموس الادارة والقضاء ٧ اجزاء	ليفيلب جلاد	مصر ١٧٩٠ م
القانون	لابن سينا	رومية ١٥٩٣ م
القبة الزرقاء	للككتور فاندريك	بيروت ١٨٩٣ م
قدامة	(الخراج)	
القرماني	(اخبار الدول)	
القزويني	(عجائب المخلوقات)	
القوانين العقارية	للعكومة المصرية	مصر ١٨٩٣ م
الكامل ١٢ جزءا	لابن الاثير	مصر ١٣٠٢ هـ
الكامل	للمبرد	مصر ١٢٨٦ هـ
كتاب الاذكياء	لابن الجوزي	مصر ١٣٠٦ هـ
كتاب الاعتبار	لابن منقذ	ليدن ١٨٨٤ م
كتاب الجلاء	للجاحظ	مصر ١٣٢٤ هـ
كتاب البلدان	لابن الفقيه الممذاني	ليدن ١٨٨٥ م
» »	لليقبوبي	» » »

اسم الكتاب	اسم مؤلفه	مكان طبعه وسنته
كتاب الحيوان ٣ اجزاء	للجاحظ	مصر ١٣٢٤ هـ
كشف الظنون جزءان	لكاتب جابي	الاستانة ١٣١١ هـ
الكشكول	للعالمي	مصر ١٣٠٥ هـ
لطائف المعارف	للتعالبي	لندن ١٨٦٧ م
اللمعية الشهية في اللغة السريانية	للمطران يوسف داود	الموصل ١٨٧٩ م
الماوردي	(الاحكام السلطانية)	
مجمع الامثال جزءان	للبيداني	بيروت ١٣١٢ هـ
مختصر اخبار الخلفاء	لابن الساعي	بولاق ١٣٠٩ هـ
» الدول	لابي الفرج الملقبي	بيروت ١٨٩٠ م
مروج الذهب جزءان	للمسعودي	مصر ١٣٠٤ هـ
الزهر جزءان	للسيوطي	بولاق ١٢٨٢ هـ
المسالك والممالك	لابن حوقل	لندن ١٨٧٣ م
» »	لابن خردادبه	» ١٣٠٦ هـ
» »	للاصطخري	» ١٨٧٠ م
المستطرف جزءان	للابشيهي	مصر ١٣١١ هـ
المسعودي	(مروج الذهب)	
مشكاة المصابيح	لوني الدين العمري	دهلي ١٣١٠ هـ
المعارف	لابن قتيبة	مصر ١٣٠٠ هـ
معجم البلدان ستة اجزاء	ليافوت الحموي	ليبسك ١٨٧٠ م
مفتاح السعادة	لطاشكبري زاده	(خط)
المقديسي	(احسن التقاسيم)	
المقري	(نفع الطيب)	
المقريزي	(خطط مصر)	
الملل والنحل جزءان	للشهرستاني	لندن ١٨٤٢ م
الموطأ	للالمام مالك	(خط)

اسم الكتاب	اسم مؤلفه	مكان طبعه وسنته
الميداني	(مجمع الامثال)	
ميزانية مصر لسنة ١٩٠٢	للحكومة المصرية	بولاق ١٩٠٣ م
النجوم الزاهرة جزءان	لابي المحاسن	لندن ١٨٥١ م
نفع الطبيب ٤ اجزاء	للمقري	بولاق ١٢٧٩ هـ
نهاية الارب في قبائل العرب	للقلقشندي	(خط)
الهداية	برهان الدين الفرغاني	لكنهو ١٣١٤ هـ
الهمداني	(كتاب البلدان)	
وفيات الاعيان ٣ اجزاء	لابن خلكان	مصر ١٣١٠ هـ
اليقوي	(اكتاب البلدان)	

Gibbon's Roman Empire.	London	...
Bretschneider's Knowledge Possessed by ancient chinese of the Arabs.	„	
Porter's Constitutional History of turkey.	Ms.	
Lane Poole's Mohammadan Dynasties.	London	1894
Statesman's Year book.	„	1904
Williams' Sanskrit Crammar.	Oxford	1876
Browne's Literary History of Persia.	London	1902
Frazer's „ „ „ India.	„	1898
Rawlinson's Ancient Monarchies, 4Vol.	„	1862
Whitaker's Almanack.	„	1901
Browne's Translation of Ibn Isfandiyar's History of Tabaristan.	Leyden	1905
Library of Universal History, 8Vol.	New York	1897
Clot Bey, Aperçu sur l'Egypte, 2Vol.	Paris	1840
Labourt, Christianisme dans l'Empire Perse,	„	1904
Revue Archéologique.	„	1905
Van Vloten, La Domination Arabe etc. sous le khalifat des Omayyades.	Amsterdam	1894
Von kremer, Einnahmebudget des abbass.	Wien	1887
„ „ Culturgeschichte des Orients. 2 Vol.	Wien	1875

رسائل شبلي النعماني في اللغة الهندستانية طبعت في علي كده بالهند سنة ١٨٩٨

فهرس الجدي عام

يشمل ما حواه هذا الكتاب في اجزائه الخمسة من المواضيع الهامة مرتبة على احرف الهجاء

صفحة جزء		صفحة جزء	
٥ ١٤٨	الاحتفالات في الاسلام	٥ ٥٢	الآداب الاجتماعية في الاسلام
١ ٣٨	أحد . واقعتها	٣ ١٣٢	آداب اللغة السريانية
٢ ٩٢	اخماس المعادن . ضريبة	٣ ١٣٠	» » الفارسية
٣ ١٧٧	اخوان الصفا . جمعية	٣ ١٣٤	» » الهندية
٣ ٧٧	الادب والادباء	٣ ١١٦	» » اليونانية
٥ ٦٩	الارتزاق بالسبخاء	٥ ١٠	الآراميون
٥ ٥٤ : ٤	الاريجية عند العرب	١ ٣٨	ابن ابي سلول
٣ ١٢٠	ارسطو ومؤلفاته	٢ ٦٢ و ٥٣	ابن خرداذبه قائمته
١ ١٥٦	الاساطيل الاسلامية	٢ ٥٣ و ٤٩	» خلدون »
٤ ١٧	الاستلحاق في الجاهلية	٤ ٧٣	ابن الزبير بخله
٥ ٥٤	استغلال الفكر عند العرب	٤ ٢٥	الابناء الاحرار في الجاهلية
٤ ١٥٠	الاسرار في الدولة العباسية	٥ ١٣١	اهبة الدولة
٥ ٢٣	الاسرى . كثرتهم	١ ٤٣	ابو بكر . اسلامه
١ ٢٤	الاسلام . الدعوة اليه	٢ ١٢	» . زهده
١ ٣٦	» . انتشاره	٤ ٣٦	» . سياسته
٥ ١٥٢	» والدول المعاصرة	٢ ١٦	ابو ذر الغفاري . نفيه
٥ ١٥٤	» في اوربا	١ ٤١ و ٣٧	ابو سفيان في الجاهلية
٥ ١٢	» في تاريخ الصين	١ ٢٥	ابو طالب عم النبي
٣ ٤٦	» والرومان والعلم	٥ ٣٢	اتباع الخاصة
٣ ٣٧	» والعلوم الاسلامية	٤ ١٥٥ و ٢ : ١٠٨ و ٣١	الانراك الاجناد
٣ ٣٢	اسواق العرب في الجاهلية	٤ ١٧٤	» . دولهم في ظل العباسيين
١ ٢٠	الاشناق . من مصالح الكعبة	٥ ١٠٨	الاثاث والرياش والمجوهرات
٥ ١٦٢ و ٢ : ١٩٢	اصلاح خطأ		

صفحة جز

- ٤ ١٠١ الامويون واهل الذمة
- ٢ ١٨ » والثروة
- ١ ١١٢ امير الامراء . رتبته
- ٤ ١٤٦ الامين والمأمون تنازعهما
- ٤ ٥١ امية وهاشم »
- ٥ ١١١ و ١٣١ الانباط قبيلة عربية
- ٢ ٣٦ الاندلس . جبايتها
- ٣ ١٠٩ » . شعرها
- ٥ ٩٠ » . عمراتها
- ٥ ١١٦ الاندلسيون . بذخهم
- ٤ ١٩٢ » . سياستهم
- ٥ ٩٥ » . مبانيمهم
- ٤ ٣٤ : ٣ و ١١١ انساب العرب
- ٤ الانساب . اخلاطها بعد الاسلام ١٥١
- ٣ ٨٠ الانشاء . بلاغته
- ٣ ١٣ الانواء . علم في الجاهلية
- ٥ اهل البيوتات في الدولة العباسية ٢١
- ٤ اهل الذمة في العصر الاموي ٩١ و ١٠١
- ٤ » » في العصر العباسي ١٢١
- ١ ٢١ الايسار في الجاهلية
- ٢ ١٣٣ الابغار في الخراج
- ٤ ١٧٨ الايوبيون دولتهم
- ب
- ٢ ١٥٢ بابك والافشين حربهما
- ١ ١٤٥ البارود . العرب اخترعوه
- ١ ٣٧ بدر . غزوتها الكبرى

صفحة جز

- ٣ ٥٦ الامم . النقط
- ٥ ١٤٩ الاعراس . احتفالاتها
- ٢ ٩١ اعشار السفن . ضريبة
- ١ ٢٠ الأئنة . من مصالح الكعبة
- ٥ ١٥٤ الافرنج . هداياهم للخلفاء
- ٢ ١٥٣ الافشين و بابك . حربهما
- ٣ ١٢٠ افلاطون . فلسفته
- ١ ١٧٨ الاقطاع في الاسلام
- ٤ الاكراد دولتهم في ظل العباسيين ١٧٨
- ٢ ١٣٠ اللجاء في الخراج
- ٥ ١٥٦ ألعاب الخلفاء
- ١ ١٠٩ امارة الاستكفاء
- ١ ٢١ الاموال المحجرة في الجاهلية
- ٤ ١٥ الامومة في الجاهلية
- ١ ٥٩ و ٦٣ الامويون . دولتهم
- ٤ » . آثارهم في الاسلام ٦١
- » . الآداب الاجتماعية
- ٥ ٦٠ في عصرهم
- ٤ ٧٨ » . استخفافهم بالدين
- ٤ ٧٤ » . استكثارهم للمال
- ٤ » . انتقال الخلافة اليهم ٥٠
- ٥ ١٠٩ » . بذخهم
- ٤ ٥٣ » . رغبتهم في السيادة
- ٥ ٥٢ » . مبانيمهم
- ٥ » . نظام اجتماع في ايامهم ١٨
- ١ ٧٣ » في الاندلس

صفحة جزء

صفحة جزء

ح	
٢ ١٥٠	حاشية الخليفة • روايتهم
١ ٢٣	الحبشة • سطوهم على الحجاز
٢ ١٧٦	الحجّاب • ثروتهم
٥ ٧٧	حجاب النساء
١ ٢٠٠	الحجابة • وظيفة
٣ ٦٨	الحديث • وضعه واسناد ووعده
٣ ٥٥	الحركات في الخط العربي
٤ ١٢٩	حرية الدين في الدولة العباسية
٣ ١٩٥	الحساب والجبر والهندسة في الاسلام
١ ١٨٩	الحسبة • وظيفة
٥ ٨٦	حضارة المملكة الاسلامية
١ ٢١	الحكومة في الجاهلية
٥ ١٥٧	الحلبة
٤ ١٧	الحلف في الجاهلية
٥ ٩٨	الحراء • قصر في غرناطة
٣ ٤٨	حملة العلم في الاسلام العجم
٥ ١٦٠	الحيوانات تربيتها عند الخلفاء

خ

١ ٩٤	الخاتم في الخلافة
٥ ٢٠	الخاصة طبقاتهم في العصر العباسي
٥ ٢٢	الخدم في نظام الاجتماع
٤ ١٦١	» نفوذهم في الدولة
٥ ٢٤ : ٧٠	خديجة زوج النبي
١ ١٧١	الخراج • اصله وتاريخه
٢ ٢١	» ايام الامويين

١ ١٥٣	الثغور والعواصم
ج	
٤ ١٧١	الجابوسية في الدولة العباسية
٣ ١٥٣	جالينوس كتيبه
٤ ٣٠	الجامعة الاسلامية
٤ ٣١	الجامعة العربية
٢ ٧٣	الجباية • مصادرها
٢ ٧٤	» • سبب كثرتها
٢ ٢٧	جباية الدولة ايام الامويين
٢ ٤٩	» • ايام العباسيين
٢ ١١٢	» • عصر الانحطاط
١ ٥٦	جبل بن الايهم
٣ ١٩٥	الجبر والحساب في الاسلام
١ ٥٢	الجرادة
١ ١٢٦ و ٩٣ و ٢١	الجزيرة • اصلها
١ ١٦٩	» • تاريخها
٤ ٧٦	» • والاسلام
٣ ٩٥	الجغرافية • كتبها ومؤلفوها
١ ١١٧	الجند • اصله وتاريخه
٤ ١٥٦	الجند التركي في الدولة العباسية
٢ ١٥٢ و ١ : ١٢٤	الجند • روايته
٤ ٢٨	الجوار في الجاهلية
٥ ١١٩	الجواري • اثنائهم
٢ ١٣٦	» • والغمان
٥ ٢٨	» • في نظام الاجتماع

صفحة ١٢٠	الخلفاء • سخاؤهم	صفحة ١٢٤	الخراج • تخفيضه
١٣٨	» • صرف جاسائهم	٨٥	» • ثقله أيام العباسيين
١٣١	» • مجالسهم	٧٤	» • سبب كثرتهم
١٣٣	» • مجالستهم	٨٠	خراسان • ثروتها
١٥٦	» • ملاهيمهم	٨٤	خزائن الرؤوس
١٤٥	» • مواكبتهم	٢٦	الخصيان • اصلهم وتاريخهم
١٦٩	» • والامراء والعلم	٨٣	الخصاب من الزينة
١٥٢	» • والدول المعاصرة	٢٩	الخطابة والخطباء في الجاهلية
١٦٠	» • وتربية السباع	٩٨	» • في لاسلام
٤٣	» • الراشدون	٩٦	الخطبة للخليفة
١١١	» • والشعراء	٥٢	الخط العربي • تاريخه
	» • والعلماء المسلمون ٧٢ : ٣	٥٠	الخلافة • انتقالها الى الامويين
١٤٠ و ٤		١٥٢	» • عظمتها
١٦٣	» • غير المسلمين	٨٧	» • ماهيتها وشروطها
٣٦	» • والغناء	١٨٥	» • والدول الاسلامية
١٥٣	» • الهجاء	١٧٩	» • والسلطة
٢٠	الخليفة في نظام الاجتماع	١٨٧	» • وقريش
١٦١	خمارويه • سبائه	٧٩	» • والنبوة
٣٩	الخنديق • واقفته	١٨	الخلع في الجاهلية
١٥	الخوالة في الجاهلية	١٥٠	الخلع على الوزراء
	د	١٣٨	الخلفاء • اجتماعهم
٢٠٩	دار الحكمة • مكتبة	١٤٨	» • احتفالاتهم
٩٤	دار الشجرة • قصر	١٣٣	» • امراءهم
١٦١	» • الصناعة للاساطيل	١٣٤	» • ثروة نسائهم
٩٤	» • الضرب • غلتها	١٠١ و ١٢١ و ١٠٢	» • ثروتهم
١٨٩	» • العدل	١٤٧	» • روايتهم

صفحة جزء

ز	
٥	٩٧ الزاهرة • نصر في قرطبة
	الزكاة ٨٣، ١٦٣ : ١ و ٩٣
٤	١٢٦ : ٢ : ٧٧
٣	٧٩ الزبور والفحة • مسألة
٥	٩٦ الزهراء • نصر في قرطبة
٥	٧٨ الزرجات • تعدد من في الاسلام
	س

٥	١٦٠ السباغ • ارتباطها عند الخلفاء
٥	١٥٧ السباغ
٣	٨٥ السبع في الانشاء
٥	٥٣ السخاء عند العرب
٥	٦٩ السخاء من ابواب الارتزاق
٢	١٣٧ » والخلفاء
٥	١٢٠ » في عصر الحضارة
١	١٩ السدانة من مصالح الكعبة
١	٢١ السفارة في الجاهلية
١	١٩ السقاية » »
٣	١٢٠ سقراط • فلسفته
١	٩٦ السكة (النقود) في الاسلام
٤	١٧٥ السلاجقة • دولتهم
١	١١٦ السلطان • لقب
١	٣٩ سلمان الفارسي
٢	٨٥ و ٧٨ السواد • ثروته
٣	١٤٨ السوربون ونقل العلم
٤	١٧٩ السياسة والدين في الاسلام

صفحة جزء

١	١٤٣ الدبابة • سلاح
١	١٤٠ الدرع • شكلها
١	٦٤ دهانة العرب
٤	١٧٩ الدين والسياسة في الاسلام
١	١٢٣، ٨٥ الديوان للجنود
١	١٩١ ديوان الانشاء
١	١٨٧ » المظالم
٢	١٠١ ديون الحكومات

	ر
٥	٥٨ الراشدون والاداب الاجتماعية
١	٦٢ الراشدون • عصرهم
٥	١٧ » ونظام الاجتماع
٣	٧١ الرأي والقياس
١	١٣٣ الرابة • اشكلها واحوالها
٥	١٠٢ رجال الدولة • ثروتهم
١	٤٥ الردة ايام ابي بكر
٤	١٤٠ الرشيد والشيعة
١	٢٠ الرفادة • من مصالح الكعبة
٤	٤٤ الرق في الاسلام
٤	١٩ » الجاهلية
١	١٣٨ الرماح • اشكلها
٢	٢٠ الرهبان والجزية
٢	١٥٢ و ١ : ١٢٤ رواتب الجنود
٢	١٤٣ » الموظفين
١	٢٩ الروم عند ظهور الاسلام
٣	١٥٥ لرياضيات والنجوم • كتبها

صفحة جز	صفحة جز
٥ ٤٢	٤ سياسة التقسيم في الدولة العباسية ١٣١
٥ ١٥٩	١ ١٣٨ السيف من السلاح
٥ ١٥٦	ش
٣ ١٨٤	شارل مارتل الفرنساوي ١ ٧٦
ض	٥ ٥٣ الشجاعة من مناقب العرب
٢ ١٢٨	١ ١٩١ الشرطة
ط	٥ ٤٧ الشطار • من رعاى المدن
٣ ١٨٠ و ١٣٨	٥ ١٦٠ الشطرنج • لعبة
٣ ١٩	١ ١٥٣ الشعراء الجند
٣ ١٥٣	٣ ١٠٨ الشعراء واشعارهم في الاسلام
٣ ١٠٦	٣ ٣٨ » • القاهيم
٤ ٣٤	٥ ١٤١ » • تقديمهم عند الخلفاء
٣ ٨٩	٥ ١٢٥ » • السخاء عليهم
٥ ٩	٣ ١٠٢ الشعر ودول الاسلام
٥ ١٣	٣ ٢١ الشعر والشعراء في الجاهلية
١ ١٠٢	٣ ٢٢ الشعر العبراني
١ ٢٠٢	٣ ١١٧ » اليوناني
٥ ٨٠	٤ ١٣٥ الشعوبية والعرب
٥ ١٠٣	٥ ٥٥ الشيخوخة عند العرب
٥ ٧٩	٤ ١٠٨ الشيعة العباسية
٥ ٩٩	٤ ١٠٦ » العلوية
ع	٤ ١٤٠ » » والرشد
١ ٢٣	٤ ١٩٧ » » في المغرب ومصر
٥ ٤٩	ص
٥ ٧١	الصدقة (راجع زكاة)
٥ ٣٢	٤ ١٩٤ الصقالبة • استخدامهم

صفحة	جزء	صفحة	جزء
٣٠	٢	٤٤	٥ العامة اهل القرى
٩	١	٤٦	٥ » سكان المدن
١٤	١	٧٧	٥ العائلة في التمدن الاسلامي
٩	٣	٦٩	١ العباسيون . اصل دعوتهم
١٢٩	١	٢٨	٢ » . سبب قيامهم
٦٩	٥	٦٧	٥ » . الاداب الاجتماعية بعصرهم
١٣٥	٤	١٠٦	٤ » . انتقال الخلافة اليهم
١٧	٥	١٠٩	٥ » . بذخهم
١٨٨	٤	١١٢	٤ » . سياستهم
١٣٥	٣	١٦٧	٤ » . فساد الاحكام عندهم
١٤٦ و ٢ : ١٠٦	٤	٩٣	٥ » . مبانيهم
٣٩	٣	١٤٦	٥ » . مواكبتهم
٥٤	٤	٢٠	٥ » . نظام الاجتماع عندهم
٥٢ و ٤ : ٢٧	٥	١٥٠	٤ » . والاسرار
٥٨	٤	١٢١	٤ » . واهل الذمة
٥٨	٤	٦٦	١ عبد الملك بن مروان
١٠	٤	١٩	٤ العبيد في الجاهلية
٥٤	٤	٤٨	٥ » من رعا اهل المدن
١٣١	٤	٢٣	٥ » في نظام الاجتماع
٥٢	٥	٥٩	١ عثمان بن عفان
٦٢	٤	١٥	٢ » » والمال
٢٠	١	٣٧	٤ » » . سياسته
٣٣	٣	٢١١	٤ العثمانيون . دولتهم
٣٨	٥	١٦	٣ العرافة . عند العرب
٧٢	٣	٣٩ و ٣٢	٤ العرب . انتشارهم في الارض
٥٠	٣	١٧	١ » . حكومتهم في الجاهلية

صفحة جزء	صفحة جزء
٥ ٣٣	علي بن ابي طالب • مناقبه ٣٧ ٤
١ ١٦٦ و ٨٤	» » • تديقه ٧٣ ٤
ف	» » • والمال ١٣ ٢
٤ ١٩٧ و ١ : ٧٤	علي الرضا والفضل بن سهل ١٤٨ ٤
٥ ١١٢	العمارة من مصالح الكعبة ٢١ ١
٥ ١٠٠	عمارة المدن في الاسلام ٨٦ ٥
٤ ٨١	العمال • استثنائهم بالجباية ١٢٦ ٢
١ ٤٦	العمال • ثروتهم ١٧٢ ٢
٥ ١٥٩	» • جورهم ١٩ ٢
٤ ١٧٣ و ١١٧	» • روايتهم ١١١ : ١ و ١٤٣ ٢
٥ ١٥	» • صدقهم ٩٥ ٢
١ ٢٩	» • علاقتهم بالخلفاء ٤٦ ٢
٢ ١٠٦	عمال بني امية • ظلمهم ٧٥ ٤
٢ ١٨٧	عمر بن الخطاب • سياسته ٣٦ ٤
٤ ١٤٨	» » • زهده ١٣ ٢
٣ ٧٠	» » • مناقبه وعهده ٩٨ ٤
٣ ١٧٩	» » • وييت المال ١١ ٢
٣ ١٥١	عمر بن عبد العزيز ٦٧ : ١ و ٢٤ ٢
٣ ١٤٠ و ١٣٥	عمرو بن العاص • دهاؤه ٦٨ ٤
٣ ١١٨	عهد عمر لنصارى الشام ٩٥ ٤
٥ ٣٣	العهد النبوية للنصارى ٩٣ ٤
١ ١٦٧	العيارون طائفة من العامة ٤٦ ٥
ق	غ
٥ ٩٠	غزاة • عمرانها ٩١ ٥
١ ٢٠	الغزوات ١٥٤ ١
٤ ١١٢	الغلمان • من الخدم ١٣٦ ٢

صفحة	جزء	صفحة	جزء
٣ ١٠	الكلدان في جزيرة العرب	١ ٩	المخطاينة • تمدنهم
٣ ١٦	الكهانة والكهان • •	٢ ٥٧ و ٥٢	قدامة بن جعفر • قائمته
٢ ١٨٧	الكوفة • عمرانها	٣ ٥٨	القرآن • جمعه وتدوينه وقراءته
٣ ١٨٤	الكهنة في الاسلام	٣ ٣٩	» والعرب والاسلام
	ل	٥ ٩٠	قرطبة • عمرانها
٥ ٨١	الاباس • تاريخه في الاسلام	٢ ١٨٢	القرى • ثروتها
٥ ١٠٦	» • البذخ فيه	٤ ٥٤	قريش • عصبيتهم
٤ ١٧١	الاصوصية • فتواها	١ ١٨	» والتجارة
١ ١٣٣	اللاء • اشكاله واحكامه	١ ١٦	» في الجاهلية
	م	٥ ٩٣	قصر التاج وقصر الثريا
١ ١١	مأرب • سدّها	٥ ٩٥	القصر الكبير بقرطبة
٣ ١٨٦	المارستانات في الاسلام	١ ١٨٣	القضاء • تاريخه واحكامه
٤ ١٧٠	المال • ابتزازه في آخر الدولة	٢ ١٤٧	القضاء • روايتهم
٢ ١٤	» • اختزانه	١ ١٣٧	القوس من السلاح
٤ ٧٤	» • استكثر الامويين منه	١ ٢٠	القيادة في الكعبة
٤ ٦٩	» • بذل » »	٣ ١٨	القيافة • عند العرب
٢ ١١٠ و ١٠٦٥	المال والدولة		ك
٢ ١٠٨	المؤمن • منافبه	١ ١٤٤	الكباش • آلة حرية
٣ ١٤٠	» والفلسفة والمنطق	٣ ٥٧	الكتابة • ادواتها
٥ ٨٤	المأوى عند العرب	٣ ١٥٦	الكتب المنقولة عن الفارسية
٥ ٩٢	المباني في الاسلام	٣ • •	» • النبطية وغيرها
٣ ٣٢	مجالس الادب في الجاهلية	٢ ١٧٥	الكتّاب • ثروتهم
٥ ١٣٩	» • والشعر في الاسلام	٢ ١٤٥	» • روايتهم في الحرب
٥ ١٣١	» الخلفاء	١ ١٤٨	الكراديس
٥ ١٤٢	» المناظرة	٥ ١٥٩	الكرة والصولجان • لعبة
٥ ٧٥	المجاملة في المعاملة	١ ١٩ و ١٦	الكعبة ومصلحتها في الجاهلية

صفحة جزء

١	١٥١	معسكر اسلامي
٥	٣٣	المغنون والغناء • تاريخهما
٥	١٢٥	» • الخفاء عليهم
٤	١٠٤	المغول • دولتهم
١	٤٧	المغيرة بن شعبة
٣	٢٠٥	المكاتب الاسلامية وكتبها
٤	٢٢	المكاتبة في العتاق
٣	٤٠	مكتبة الاسكندرية ومدرستها
٣	١٢٣	• • • • • احراقها
١	٤١	مكة • فتحها
١	١٥	• في الجاهلية
٢	٩٣	المكوس والمراد
٥	١٥٦	ملاهي الخلفاء
٤	١٩٥	ملوك الطوائف بالاندلس
٥	١٠٠	الممالك • مبانيهم
١	٧٥	المملكة الاسلامية • احصائها
١	٧١	» • اعمالها
٢	٣٧	» • جغرافيتها
٤	١٧٢	» • العباسية • تشعبها
٢	٧٥	» • مساحتها
٣	١١	منازل القعر عند العرب
١	١٤١	المنجنيق • آلة حرية
٤	١١٣	المنصور • سياسته
٣	١٠٩	» • نكته بيعة العلويين
٢	٣٣	» • وثروة الدولة
٣	١٣٧	» • والنجوم والطب

صفحة جزء

٥	١٤٥	الجنانون والمضحكون
١	٢٤	محمد النبي ظهوره
٢	٢٨	المختار بن ابي عبيد
٥	٤٩	المختشون
٣	١٩٩	المدارس في الاسلام
٤	٦٣	المدن الاسلامية • تعصمها
٢	١٨٤ و ١٧٩	» • ثروتها
٥	٨٦	» • • • • • عمارتها
٥	٥٥	المرأة في الجاهلية
٥	٥٨	» • عصر الراشدين
٥	٦٢	» • • • • • الامويين
٥	٦٧	» • • • • • العباسيين
٢	٩٣	المراد والمكوس
٣	١٩١	المراد وآلاتها في الاسلام
٢	٩٤	المستغلات • ضرائب
٥	٩٥	مسجد قرطبة
٥	١٢٧	المسكر في الاسلام
١	٢٠	المشورة من مصالح الكعبة
٤	١٦٧ و ٢: ١٧٠	المصادرة
٥	٨٦ و ٢: ٨٨ و ١: ٨٢	مصر • عمراتها
٥	٩٩	• • • • • مبانيها
٥	٣٢	المصورون
١	٦٠	معاوية بن ابي سفيان • ظهوره
٤	٦٥	» • • • • • سياسته
٤	٥١	» • • • • • وعلي
٤	١٥٦	المعتصم والاتراك

صفحة	جزء	صفحة	جزء
١٢٧	٤	٣٤	٢
٩٩	٤	١٤٥	٥
٩	٥	٤٧	٤
٦٧	٢	٢٨ و ١٨	٢
٢٠١	١	٢١	٤
١٤٣	٣	٨٦	٤
٩٧	١	٥٨	٤
٢٢	١	٩٣	٣
		١٩٧ و ١٣٦	٣
٢٠	٥	٨٥	١
٣١	١	٩٦	٢
٦٩	١	٤١	١
٢٠٩	٤	١٧٣	٣
		١٥	٣
٥٥	٥		ن
١١٢	١	١٤٤	١
١٧٣ و ١٦٦	٢	١٨٤	٣
١٥٠	٥	٦١	٥
١٤٦	٢	٥٤	٥
١٣٦	٤	١٥٥	٣
٥٣ و ٢٧	٥	١٨٩ و ١٣٧	٣
١٠٦	١	١٠	٣
٩٢	١	٧٥	٣
٦٩	١	٢٠	١
	ي	١٦٠	٥
٢٨	١	١٥٦	٤



صفحة جزء

٤

٥٦

اليمينية والمضربة • احزابهم

١

٥٥ و ٣٤

اليهود والروم

صفحة جزء

١

٥٣

اليرموك • واقعتها

١

٦٨

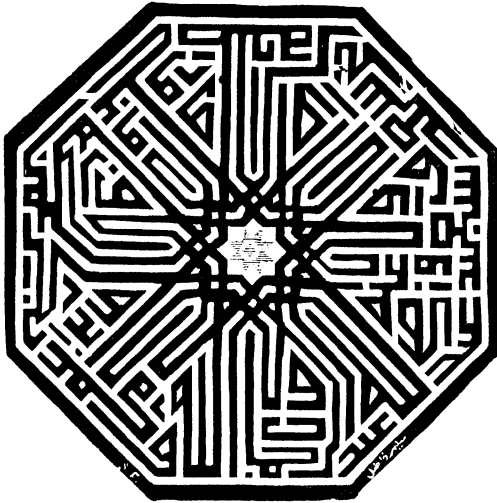
يزيد بن عبد الملك

١

٣٣

اليعاقبة • اصالحهم

❖ تمّ الفهرس العام ❖



اسماء الجلالة والنبي والصحابه



